الفكر العسكرى الرومانى بين الدفاع والهجوم والتوسع والاستعمار
حتى نهاية العصر الجمهورى (٥٠٩ - ٣١ ق.م)



د/رجب سلامة عمران

الفكر العسكرى الرومانى بين الدفاع والهجوم والتوسع والاستعمار حتى نهاية العصر الجمهورى ٥٠٩-٣١ ق.م

د/رجب سلامة عمران

الطبعة الأولى

القاهرة ٢٠١٠

الناشر

مكتبة الثقافة

٢ش سيف الدين المهرانى

الفجالة- القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد

صدق الله العظيم

إهداء

إلي زوجتى العزيزة.... وإلي ابنّى و ابنتى: محمد وياسين و نجلاء. عناصر الدفاع و الهجوم و التوسع و الاستعمار فى حياتى.

تحية عرفان و تقدير؛؛؛؛؛؛؛؛؛

المقدمة

إن الطريقة التقليدية التى اعتدنا عليها فى تدريس التاريخ فى مدارسنا ومعاهدنا العلمية وجامعاتنا تركت انطباعا لدى كثيزين مؤداه أن التاريخ هو مجرد مادة للحفظ والتلقين فقط دون إعمال العقل، ودون النظر إلى ما له من فوائد؛ لأن هذه الطريقة تجبر الدارس على التعلم بطريقة سخيفة؛ ويحفظ عن ظهر قلب معطيات وتواريخ ليست لها أية فائدة فى حياته، ولا تتناسب مع اهتمامه. وقد عالج البعض التاريخ من وجهة نظرهم الخاصة بدون اهتمام وحولوه إلى حكايات صغيرة، وطرائف تافهة، والأسوأ من ذلك هو استخدامهم للتاريخ من أجل خلق معتقدات غير سليمة، وتخليد نظريات باطلة ومغرضة عن العالم.

والواقع أن التاريخ ليس مجرد سلسلة من الأحداث المنعزلة، بل أحداث محكمة متبادلة التأثير، وصراع محكم بين القوى الروحية، وهو أيضا لا يقدم مشهدا لأحداث صرفة- كما يبدو للوهلة الاولى-، ولا مشهدا للشعوب والدول القائمة بالغزو والهدم، ويخلف بعضها بعضا، بل إنه علم غزير الفائدة جم المنفعة.

إن التاريخ هو وعاء الحياة العملية، وهو محل العبرة والعظة والدرس، وله أهمية عظمى فى بناء الأمم، والمحافظة عليها وعلى شخصيتها وهويتها، وعلى كيانها وتماسكها، وهو أيضا مدرسة السياسة فمن معينه يتزود رجال السياسة بالخبرة والحنكة السياسة من خلال معاينة حوادث ووقائع واجهت غيرهم وكيف تصرفوا حيالها، وبالتالى يكتسب السياسى خبرة من سبقوه فى مواجهة بعض الأزمات والمشاكل.

ولكى نفهم اليوم لابد ن نسترشد بالماضى فى الكشف عن المستقبل،

وعندما نتحدث عن تاريخ الأمة العربية فى المستقبل ونعلن عن رغبتنا فى الخروج من الهوة السحيقة والثبات العميق لابد لنا أن ندرس ماضينا، وكيف نجح نفر خرجوا من قلب شبه الجزيرة العربية فى سيادة العالم بثقافتهم وعلومهم، وكيف تحولوا إلى فاعل ومؤثر فى الحضارة الإنسانية التى أسهموا فيها بقسط وافر. علينا أن ندرس سبلهم وطرقهم، وأن نحذو حذوهم فى اتجاهنا نحو المستقبل. من هنا يساعدنا التاريخ على تطوير الذات نحو المستقبل، وهذا هو فحوى عبارة كونفيشيوس (حكيم الصين القرن السادس قبل الميلاد) ونصها(منذ قديم الأزل يدرسون الماضى-أى التاريخ- بهدف تطوير أنفسهم، إن دراسة التاريخ تعلم الناس كيف يلتقون ويتعرفون على تاريخ الأجداد وأفكارهم برغم مرور آلاف السنين التى تفصل بين الطرفين) ، وهذا بالطبع يمكننا من الوقوف على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم، والأنبياء فى سيرهم، والملوك فى دولهم وسياستهم، من هنا تتم فائدة الاقتداء بهم فى أحوال الدين والدنيا كما ذكر ابن خلدون.

حتى بالنسبة للفرد العادى البسيط فإن التاريخ له أهمية عظيمة لأنه إذا تدبر أمسه (تاريخه)، وتجنب الأخطاء التى ارتكبها يكون قد حقق الفائدة من التاريخ.

إذا تدبر الأمس يفيد فى الواقع والمستقبل. وتأسيسا على هذه القاعدة جاء هذا الكتاب الذى يتضمن سيرة ومسيرة روما فى رحلتها منذ البداية، يوم أن كانت مدينة صغيرة حتى غزت العالم وسادته.

وقد يتساءل البعض ماهى الفائدة التى نكرس من أجلها كتابا يتحدث عن حروب روما وفتوحاتها ونظامها العسكرى؟

الواقع أن إدراكنا لسلوك روما وتوسعاتها هو بحق إدراك لما يجرى الآن

فى عالمنا المعاصر، فلا فرق بين الأمريكان والرومان، كليهما أصبح قطبا أوحد فى زمانه، فلو قرأنا التاريخ لقلنا جميعا لحاكم العراق كف عن مهاجمة دولة شقيقة ذات سيادة، ولما شغلنا أنفسنا بما يدور فى الغرب من صراعات وحروب منذ الحرب العالمية الأول فالثانية، ثم ما عرف باسم الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتى وبين أمريكا لأن المنتصر لن يكتفى بما حققه، بل سيسير شرقا لاحتلالنا. والغريب أنه كان من بيننا من قرأ الغيب، وحذر حاكم العراق من التمادى فى مسلكه لأنه سيعطى الفرصة للغير لكى يأتى ويحتل بلادنا. والأغرب من هذا أن لدينا نموذجاً مشابهاً فى العالم القديم، أعنى فيليب المقدونى الذى أغار على بعض المدن الإغريقية ذات السيادة فوقف أحد حكماء الإغريق ويدعى اجيلاوس يدعوه– إذا كان يبحث عن ميدان للحرب – أن يسير غربا للقضاء على روما قبل أن يستفحل خطرها. ففى ذلك الوقت كانت تدور على أرض إيطاليا وأفريقيا واحدة من أعظم معارك التاريخ وهى الحرب البونية الثانية بين روما وقرطاجة، فقال هذا الرجل مخاطبا الجميع بما فيهم فيليب كفوا عن النزاعات والمشاحنات بين بعضكم البعض، وكفوا عن ترقب المنتصر من روما أو قرطاجة لأن المنتصر لن يكتفى بما وصل إليه، بل سوف يسير شرقا إليكم إلى بلاد الإغريق لاحتلالها، وقد صدق حدس هذا الرجل فعندما انقشع غبار المعركة وانتصرت روما سارت إلى الشرق واحتلت بلاد اليونان، ثم آسيا الصغرى، ثم سوريا فمصر، وكانت قد احتلت فى وقت سابق شمال أفريقيا، فلم يأت عام 31 ق.م إلا وكان البحر المتوسط بحيرة رومانية خالصة.

وكانت هناك وسائل للرومان من أجل تحقيق هذا منها تطوير الذات وهو الأهم، كذلك عدم جمع عدوين على روما فى وقت واحد، إضافة إلى سياسة فرق تسد أو فرق تأمن، لكن أهم من هذا كله كان سلاح الممالك العميلة التى كانت عين روما ويدها فى الشرق.

في هذا الكتاب لا نهتم بسرد أحداث بقدر ما نهتم باستخلاص عبر ودروس تفيدنا فى الخروج من كبوتنا التى طال أمدها.

وفى النهاية أود أن أوجه خالص شكرى وتقديرى للعقيد محمود هويدى ذلك الرجل صاحب الخيال الخصب مصمم غلاف هذا الكتاب، كما أوجه شكرى وتقديرى للأستاذ مظهر عبد الله الذى قام بجهد كبير فى تصويب وتدقيق اللغة، كما أشكر الأستاذ عصام رضا على جهده فى إعانتى على قراءة الكتاب قبل مثوله للطباعة، وأخيراً وليس بآخر الشكر كل الشكر لوالدى الذى عودنى منذ طفولتى على الصبر والجلد.

وفى النهاية أدعو الله العلى القدير أن ينفعنا بما تعلمنا، وأن يجعله زادا لنا فى الآخرة، إنه نعم المولى ونعم النصير.

مقـــدمــات تـــمهيديـة

إن قصة توسع روما وتحولها خطوة بخطوة سيدة لإقليم لاتيوم الموجودة به، ثم سيدة لإيطاليا ككل، ورويدا رويدا تتسع الدائرة، وتمتد الحدود حتى أضحت روما سيدة البحر المتوسط بعد أن كونت إمبراطورية كان هذا البحر مركزا لها. لقد كان هذا التحول طفرة جديدة فى سجل الاستعمار العسكرى لم يسبق لها مثيل فى التاريخ، ووصلت بوحدة البحر المتوسط[1] إلى منتهاها، وتحول البحر المتوسط إلى مجرد بحيرة داخلية mare internum للرومان، وبحر مغلق mare clausum، أو كما كانوا يفاخرون دائما "بحرنا mare nostrum "[2]؛ لأن كل البلاد المطلة عليه أصبحت تقع داخل النفوذ الرومانى، وأصبح هذا البحر نواة للإمبراطورية الرومانية.

فهل قصة التوسع هذه تمت من خلال خطط موضوعة وفكر رومانى خالص له أسبابه ودوافعه؟ أم أنها كانت عبارة عن تجاوب- أى رد فعل- من جانب الرومان لعدة تحديات أفضت بهم فى نهاية المطاف إلى هذا الوضع كما يدعى تينى فرانك[3] فى مؤلفه القيّم (الاستعمار الرومانى) وغيره من المؤرخين أصحاب المدرسة التبريرية. ولعل رأى فرانك هذا يُعد انعكاسا لما نظمه فرجيل شاعر الرومان الكبير حين قال: إن قدرنا أن نتوسع بلا حدود imperio sine fine؛ أى أن قدر الرومان أن يتوسعوا، و أن يغزوا العالم المسكون. إن هذه العبارة تكشف عن ما يمكن ان نسميه غطرسة القوة، وكأننا أمام شعب قوى فتى لايعرف حدوداً يقف عندها[4]. وقد ترددت أصداء نفس المعنى عند نفس الشاعر

([1]) لم يظهر اسم البحر المتوسط mare mediterraneum إلا فى النصف الثانى من القرن الثالث الميلادى عندما استخدمه سولينوس Solinus . رايس 2005،ص21.

([2]) جمال حمدان(1999)؛ استراتيجية الاستعمار و التحرر، مكتبة الأسرة، الأعمال الفكرية، القاهرة،ص22.

([3]) Tenney Frank(1929), *Roman Imperialism*, New York,pp130ff.

([4]) تشارلز ورث(1999)؛*الإمبراطورية الرومانية*، ترجمة فوزى عبدة جرجس ومحمد صقر خفاجة، مكتبة الاسرة سلسلة الأعمال الفكرية، القاهرة. ص39.

فى موضع آخر[1] حين خاطب بنى جلدته قائلاً:

"لكن أنت أيها الرومانى ضع نصب عينيك أن تسود الشعوب بسلطانك، فرسالتك هى أن تفرض سُنة السلام، وتصفح عن المقهورين، وتقهر المتجبرين".

وكأن فرجيل كان مؤمنا -إلى حد بعيد- بقدرية التوسع الرومانى، وبالتالى فالعسكرية الرومانية فى حروبها كانت تتصرف بيد القدر.

ولعل نقطة البداية هى السؤال عن سبب اختيار فترة العصر الجمهورى لدراسة الفكر العسكرى الرومانى خلالها، ويمكننا طرح أسباب هذا الاختيار من خلال عدة عوامل يمكن تلخيصها فى الآتى:-

1. يمثل العصر الجمهورى فترة التكوين الأولى لروما، إذ وضعت خلاله اللبنات الأولى للفكر

الاستعمارى الرومانى وكان بمثابة الانطلاقة الحقيقية، كذلك تميز الفكر العسكرى خلال بدايات هذا العصر بالبدائية وافتقاد الخصوبة، وبالتالى فقوة الرومان فى تطوير أنفسهم، واحتلال ما حولهم، وتكييف ظروفهم العسكرية على حسب ما يواجهون من أعداء تعكس مدى التقدم سواء فى المعدات أو التحركات أو التكتيك العسكرى نفسه بالقياس إلى الفترات التالية. وبنجاح الرومان فى الاستفادة من الأزمات فى تطوير فكرهم العسكرى أصبحت العسكرية الرومانية خلال العصور اللاحقة هى المرجع والملهم لكل القادة العسكريين الأوروبيين وعلى رأسهم نابليون بونابرت.

2. ادعى الرومان أن مدينتهم كانت محاطة بالأعداء من كل جانب، وكان عليهم الدفاع عن وجودهم وإثبات الذات خلال هذا الطور الدقيق لاسيما

(1) VI, 51-53: tu regere imperio populos, Romane, memento
(hae tibi erunt artes), pacisque imponere morem,
parcere subiectis et debellare superbos.

وأنهم اكتسبوا عداء معظم المدن نتيجة لدفاعهم عن حريتهم وطردهم للأتروسكيين، واختيارهم لنظام حكم جديد غير الحكم الملكى البغيض الذى ارتبط بالاحتلال الأتروسكى لهم، لذلك كان عليهم تبنى المبدأ الشهير " نكون أو لا نكون".

3. ظهور عدد من الشخصيات والقادة الأكفاء- خصوصاً خلال القرن الأخير من العصر الجمهورى- والذين قادهم التطاحن فيما بينهم من أجل كسب أكبر قدر من التأييد الداخلى إلى التوسع الخارجى، وكسب المزيد من الأراضى، وضم شعوب جديدة إلى الكيان الرومانى. ويرتبط بهذه الجزئية دخول تطورات جديدة من حيث تكوين وبنية الجيش الرومانى ذاته، ومن حيث انصراف ولاء الجند للقائد وليس للدولة الرومانية.

4. ان الفكر الرومانى الذى تلا الحروب البونية الثانية 202 ق.م لم يختلف كثيراً عما سبقه، واستدار الرومان لاحتلال الشرق الهلينستى وابتلاع ممالك الإسكندر الأكبر بنفس المعايير وبنفس الذرائع التى احتلوا بها غرب البحر المتوسط، فجوهر الفكر العسكرى الرومانى خلال تلك المرحلة لم يختلف كثيراً عما سبقه. كذلك كان ابتلاع روما لممالك الشرق الهللينستى محوراً لدراسة أكاديمية -على قدر كبير من الأهمية- أفاضت فى علاج هذه الجزئية، ورغم مرور وقت على هذا العمل فلا يزال فريداً فى معالجته لتوجه روما صوب الشرق[1].

يجدر بنا أن نتلمس الموقع الجغرافى الذى هيأ للرومان التوسع، وكفل لهم البقاء، ولنبدأ أولاً بالوعاء الدى حوى روما وهو إيطاليا التى احتلت موقعاً متوسطاً بين أشباه الجزر الأربع فى شمال البحر المتوسط (إسبانيا-إيطاليا-

---

([1]) فاروق حافظ القاضى؛ *روما وسقوط الممالك الهللينستية فى شرق البحر المتوسط*، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب جامعة عين شمس 1965.

البلقان-آسيا الصغرى)، وهذا الموقع قد هيأها لأن تكـــون مقـــراً طبيعيـــاً لأي
امبراطورية تقوم فى هذا البحر. وجدير بالذكر أن إيطاليا تدير ظهرها للشرق.
وتتجه بها ظروفها الطبيعية اتجاهاً جغرافياً واضحاً ناحية الغرب حيث إسبـــ
وشمال أفريقيا، وحيث تمتع كل من ساحليها الغربى والجنوبى بموانىء طبيعـ
طيبة حرم منها الساحل الشرقى. وقد نعمت السواحل الغربية بخصوبة عاليـ
سمحت بقيام تجمعات سكنية، لذلك ولهذه العوامل كان توجه إيطاليا للغرب على
اعتبار أنه مجالها الحيوى حيث تكاد تلامس إيطاليا - بـــسواحلها الجنوبيـــ
جزيرة صقلية[1]، وهنا يتبادر هذا السؤال: لماذا نعمت روما دون غيرهـــا مـــ
مدن الغرب الإيطالي بتكوين إمبراطورية، وتوسعت إلى هذا الحد؟

لقد كان موقع روما الجغرافى أحد أهم مقومات التوسع، حيث إن موقعها
على التيبر كان الأفضل فى إيطاليا من الناحيـــة الإســـتراتيجية؛ لأن اتـــصالها
بالبحر كان سهلاً ميسوراً، كما كان السبيل أمامها مفتوحاً إلى وسط إيطاليا عن
طريق وادى نهر التيبر وهو المدخل الطبيعى الوحيد من البحر، كما أن تبعـــ
روما تبعد عن البحر مسافة كافية تجعلها فى مأمن من إغارات القراصنة، ومع
ذلك فهى قريبة منه قرباً يتيح لها الاتصال بشعوب أُخرى عن طريق الـــسفن.
كذلك هيأ لها نفس الموقع مناعة كمركز دفاعي طيب خـــصوصاً أنهـــا كانـــ
محاطة بالأعداء من كل جانب؛ كالأتروسكيين من الشمال، ومدن اللاتين التـــي
كانت تناوىء روما من آن لآخر، ومن الشرق كانت هنـــاك قبائـــل الأيكـــوى
والفولسكى البربرية التى كانت تسكن الأبنين، وتشكل خطراً دائماً على روما.

لقد كانت المدينة-روما- ذاتها مبعث زهو للرومان حتى أن المؤرخين

([1]) فاروق حافظ القاضى(1997)؛ *التاريخ الرومانى منذ تأسيس المدينة حتى عام 133 ق.م*،القاهرة، ص ص 41-42.

([2])عبد اللطيف أحمد على(1974)؛ *التاريخ الرومانى (من تأسيس المدينة حتى بداية الثورة)*، بيروت، ص 33.

الرومان استخدموا عبارة ترد فيها كلمة " المدينة urbus" ، وكأن لا توجد مدينة سواها. والعبارة هى " منذ تأسيس المدينة ab urbe condita"، وأصبح هذا- تاريخ تأسيس المدينة 753- تاريخا ثابتا. ولاشك فى أن هذه العبارة تنطوى على من الزهو والفخر بروما التى نجحت فى أن تتحدى الأتروسكيين الشمال والوسط ، والإغريق فى الجنوب ، وأن توحد شبه الجزيرة الإيطالية ككل تحت زعامتها على أساس متين، فلم يحدث أن نجحت مدينة دولة فى بسط سيادتها سواء على مثل هذا النطاق، أم على مثل هذا الأساس، ويصبح اسمها علماً على إيطاليا بأسرها دون غيرها من المدن[1].

- روما خلال الحكم الملكي

إن التاريخ التقليدى لنشأة المدينة هو عام 753 قبل الميلاد، وهذا التاريخ قد لقى قبولاً كبيراً من المؤرخين القدامى والمحدثين على حد سواء. وتأكيداً على هذا التاريخ فقد احتفل الإمبراطور العربى الأصل فيليب العربى (244-249 م) بالعيد الألفى لروما عام 247م ، و كذلك اعتبر الراهب المسيحى ديونيسوس إكسيرجورس Dionysius Xergorus أن السيد المسيح المولود بعد 753 عاما من تأسيس المدينة هو بداية التاريخ الميلادى.

إن نسب تأسيس روما إلى روملوس ينطوى على حقيقة مهمة جدا، وهذه الحقيقة تتعلق بطقوس تأسيس المدينة، إذ أن عملية إنشاء أو تأسيس مدينة فى فجر التاريخ الإيطالى كانت إجراءً دينياً سياسياً يقوم به زعيم وفقا لعدد من الطقوس الدينية الرسمية تبدأ بقيام المؤسس البطل بربط ثور وبقرة من أجل شق سور المدينة المقدس Pomerium الذى سيحدد مساحتها. أما داخل المدينة فيتم اختيارُ مكان سكنى الآلهة فوق أعلى تل بها، وهؤلاء الآلهة هم حماة المدينة فيما

---

[1] القاضى(1997) ،ص 70.

بعد، ثم يخطط بعد ذلك الطريقان الرئيسيان للمدينة وهما الطريق الممتد من الشمال إلى الجنوب Cardo، والطريق الممتد من الشرق إلى الغرب Decumanus. ولقد كانت روما فى البداية عبارة عن عدد من القرى المنعزلة فوق تل البلاتين خلال القرن العاشر قبل الميلاد، وكان لها نظائر على التلال الأخرى. وخلال القرنين السابع والثامن اتسعت هذه القرى وتمددت واتحدت، وما أن أنشئت المدينة حتى ازدهرت الحياة بها بفضل مزايا موقعها، وكان الكابيتول يمثل مركزها وقلعتها الرئيسية[1].

- **دلائل العصر الملكى**

1. هناك نقش (ILS 4913) يعود للقرن السادس قبل الميلاد ذُكرت فيه بوضوح كلمة "ملك Rex ، وهذا النقش عبارة عن جزء من قانون دينى، ويعرف هذا النقش باسم عمود الحجر الأسود Lapis niger، وسمى بذلك لأنه عُثر عليه تحت رصيف من الرخام الأسود المجلوب من منطقة فيبى، ويعود هذا النقش إلى أواخر القرن السادس قبل الميلاد كما توحى بذلك طريقة نقش الحروف التى تشابه نقش أتروسكى يعود لنفس التاريخ[2].
2. ما أورده تاكيتوس من أن الملوك حكموا روما[3].
3. هذا إلى جانب بقاء كلمة ملك (rex) فى لقب ملك القرابين rex Sacrorum الذى أطلق على أحد الكهنة خلال العصر الجمهورى[4].

([1]) دونالد.ر.ددلى (1979)؛حضارة روما،ترجمة جميل يواقيم الذهبى و فاروق فريد، راجعة محمد صقر خفاجة، القاهرة،ص ص 18-19.

([2]) Paul MacKendrick (1976); The mute stones speak, The story of Archaeology in Italy, New York & London,p74 ff.

([3]) Annales I,1:Urbem Romam a principio reges habuere).

([4]) Arthur E.R.Boak & William Sinnigen (1965); A History of Rome to A.D.565,5th ed., New Yrok &London ,p43.

* سلطات الملك

كان يحكم روما منذ نشأتها ملك يتولى العرش من بين أفراد الأسرة المالكة شريطة أن يكون صالحا ومؤهلا لتحمل تبعات الحكم، وكان يختار عن طريق مجلس الشيوخ. وللملك زي خاص قرمزي اللون ,وله كرسي من العاج. وكانت تصاحبه شاراته الرمزية المسماة الفاسكيز fasces، وهى عبارة عن حزمة من العصى- التى ترمز إلى حقه فى جلد المواطنين- محزومة بشريط أحمر (داخل المدينة) أو حول بلطة، وترمز البلطة إلي حقه في إعدامهم (خارج المدينة)، وكان يحملها أمامه في أيديهم وفوق أكتافهم اليسرى عدد أثنى عشر حارسا يسمون lictores ويرافقونه أينما ذهب تذكيرا للمواطنين الرومان بأن واجبهم الأول هو إطاعة السلطة الدستورية.

ويتمتع الملك بعدد من السلطات كانت جميعها تتبع من سلطة الإمبريوم imperium المخولة له، والتى كانت بمثابة حجر الزاوية في بناء الحكومة في جميع فترات تاريخها. وقد كانت هذه الكلمة أصدق تعبيرا في نظر الروماني من أية كلمة أخرى عن فكرة إطاعة النظام فى الدولة, ولم تكن " الإمبريوم " تمنح لمواطن إلا بقرار من الشعب، ولابد من أن تقرها الآلهة بإظهار فأل ميمون، وكان هذا يتم من خلال عدد من المراسيم التقليدية. وجدير بالذكر أن كلمة " إمبريوم " تدل على ثلاثة أنواع من السلطة كانت ممنوحة للملك وهى:-

* السلطة الدينية

حيث كانت للملك السلطة الدينية الأولى على اعتبار أنه المسئول عن تحقيق سلام الآلهة Pax deorum أى عن رضائهم ،ذلك لأنه كان مسئولا عن تحسين الصلات بين سكان المدينة من البشر وسكانها من الآلهة، وقد ارتبط بحفظ هذا السلام تحقيق الرخاء للدولة. لقد كان على الملك رعاية المجتمع دينيا،

وعليه أن يقدم القرابين، ويتقدم الناس في المناسبات المهمة, ويساعده في عمله الديني مجموعة من الكهنة pontifices، والعرافين augures الخبيرين بتفسير الطوالع والتنبؤ بمشيئة الآلهة . وقد ارتبطت ممارسة الملك لهذه السلطة الدينية بالانصياع لمشورة الكهنة والعرافين.

- السلطة القضائية

من أجل أن يستتب السلام بين الأفراد من المواطنين تمتع الملك بسلطة غير محدودة لا فى الفصل في المنازعات فقط، بل في توقيع العقوبات كذلك، ومن بينها عقوبة الموت، ولكن سلطته هنا أيضاً لم تكن استبدادية بالرغم من أنها كانت مطلقة قانوناً، لأن سلطان العرف على الدولة كان أقوى من سلطانه عليها، وكان واجبه يحتم عليه أن يعمل على أن يظل العرف مرعيا. وكان يعاون الملك في النهوض بهذا الواجب على خير وجه مجلس السناتو senatus المكون من الشيوخ، وإن لم يلزمه بقبول مشورتهم. لقد كان الملك هو مصدر القانون, وتمتع بسلطة مطلقة، وكان يشكل لجنة محكمين للفصل في القضايا بين المواطنين بالغرامة, أما سلطاته الجنائية فهى غير محددة أيضا، وكان القضاء يحكم بالجلد والنفي والإعدام، وللملك حق تخفيف الأحكام، وهو الذى يعلن الحرب، ويحقق السلم.

- السلطة العسكرية

كانت للملك سلطة عسكرية مطلقة يزاولها القائد في الحرب، وهنا- كما هو متوقع – لا يتدخل العرف لتقييدها، فقد كان الملك الرومانى وهو في ميدان الحرب يعتبر خارج نطاق العرف السائد في دولته، وفي منأى عن رعاية آلهته، واقعا تحت رحمة آلهة مجهولة. وكان الجيش قبل خروجه في حملة، وقبل دخوله المدينة بعد عودته يقوم بطقوس دينية معينة تدل على ما كان يساور الرومان أنفسهم من مخاوف عندما كانوا يفارقون بلادهم وآلهتهم، فلم يكن

للعرف سلطان فى ميدان الحرب، ولهذا ظلت سلطة القائد فيه مطلقة إن لم تكن استبدادية طوال التاريخ الرومانى. ولا ريب في أنه كان في وسع القائد أن يستشير – وكثيراً ما كان يستشير – غيره ويعمل بمشورتهم , بيد أنه لم يكن ملزما حتى من الناحية الأدبية بأن يفعل ذلك. لقد رأى الرومان أن الحكمة تقتضى أن تكون سلطة الملك فى الميدان العسكرى مطلقة دون قيد[1].

الهيئات الدستورية والدينية المعاونة للملك

1. مجلس الشيوخ أو السناتو Senatus

كان عدد أعضاء مجلس الشيوخ مائة عضو، وكان فى أول أمره يضم الآباء Patres، أى كان يضم كبار السن المحنكين، ثم تطور فيما بعد ولم يعد شرطا عليه أن يكونوا مسنين. ولم يكن رأى مجلس الشورى إلزاميا بل استشاريا، وهو الذى يختار الملك أوالحاكم المؤقتinterrex عند وفاة الملك. وجدير بالذكر أن هذا المجلس أصبح مجلسا للنبلاء مثل مجالس دويلات المدن فى بلاد الإغريق.

2. جمعية الأحياء أو الجمعية الكورية Comitia Curiata

كانت جمعية الكور جمعية شعبية؛ لأنها تضم الشعب بفئتيه من أشراف وعامة، وتتكون من العشائر أو الكور Curiae، ولم تتمتع هذه الجمعية باختصاصات تشريعية غير أن المسائل المهمة كإعلان الحرب، وتعيين ملك جديد، ومنحه سلطاته عقب انتخابه كانت تقتضى موافقتها الرسمية، وكانت تنعقد بدعوة من الملك للنظر فى بعض المسائل التى تهم المجتمع مثل التبنى والوصاية ومنح الجنسية.

([1]) عبد اللطيف على(1974)،صص 168-171.

* **ملوك روما**[1]

إن المعلومات التاريخية الحقيقية عن الملوك الرومان قليلة ومحدودة، ويغلب عليها الطابع الأسطورى, ومازال الشك يحيط ببداية حكمهم، وكان أولهم رومللوس Romullus, ومن المفترض أن عددهم كان سبعة ملوك, منهم ثلاثة ملوك من اللاتين – سكان الإقليم – ثم غزاها الأتروسكيون، وحكمها واحد منهم , وهو الذي تدعوه الروايات القديمة لوكيوس تاركوينيوس بريسكوس Lucius Tarquinius Priscus، ثم تمكن الرومان من حكم الإقليم إذ كان الملك سرفيوس توليوس Servius Tullius رومانيا, ومن بعده استرد الأتروسكيون السلطة ثانية فى روما, وكان آخر الملوك فيها أتروسكي وهو لوكيوس تاركوينوس سوبيربوس Lucius Taquinius Superpus (المتكبر) الذى ثار الرومان فى عهده بسبب الفساد، وسطوة الأتروسكيين على روما لذا سقط الحكم الملكي بدون رجعة في روما(510 ق.م). أما أهم أعمال هؤلاء الملوك فقد كانت على النحو التالى:-

1. رومللوس (753-716 ق.م)

هو المؤسس الأسطورى لروما، ويذكر أنه حين تولى الحكم دعا جموع الرومان للاجتماع فى جمعية عمومية، ومنحهم قوانين تنظم حياتهم،. كما كان له مائة من المستشارين من أبناء العائلات الأرستقراطية الأخرى غير العائلة الملكية، وكان هؤلاء بمثابة الآباء الروحيين لعائلاتهم وعشائرهم وقبائلهم.

---

(1) اتفقت معظم الروايات على انه حكم روما سبعة ملوك بداية من رومللوس ثم نوما بوبليوس و توليوس هوستيليوس وانكوس ماركيوس وتاركوينوس بريسكوس وسيرفيوس تولليوس ولوكيوس تاركوينوس سوبيربوس انظر: Livy ;ab urbe Condita,I;Eutrpoius I,1-11;Florus ,I,1,2,4;Cicero, De Rep.,II,1-30; Donald Kagan(1986); problems in Plutarch, Romulus, Numa, Poplicola; Cass Dio.I-IV: Ancient History, Vol II, The Roman History, New York,pp5-9.

وكانوا هم النواة الأولى أو المبكرة لمجلس الشيوخ الروماني الذى كان المجلس الاستشارى للملك فى العصر الملكى، والذى تألف من صفوة الأرستقراطية الرومانية من زعماء القبائل والعشائر الذين يطلق عليهم اصطلاحا الآباء Patres، وقد هبت عاصفة فى العام السابع والثلاثين من حكمه اختفى روملوس على أثرها فى ظروف غامضة وتمت عبادته بعد أن تحول إلى إله.

2. نوما بومبيليوس Numa Pompelius (715-673 ق.م)

تم انتخابه بعد اختفاء روملوس على أثر العاصفة، والواقع انه لم يشتبك فى أية حروب، لذلك كانت لديه فرصة طيبة للعمل،. ومن أعماله سن عدد من القوانين والطقوس والشعائر الدينية، كما أنه خصص كهنة لجوبتر، ومارس، وكويرينوس، واختار عذارى للربة فستا من أجل الحفاظ على النار المقدسة الخاصة بها، وبنى عدداً من المعابد فى روما، أشهرها معبد الإله يانوس وهو حارس أبواب السماء وإله البدايات والنهايات، واشتق منه يناير أول شهر فى السنة الميلادية، الذى كان يصور غالبا برأس ذى وجهين أحدهما للداخل، والآخر للخارج، وتوضع على البوابات فى الداخل. وقد اعتاد الرومان على غلق معبد يانوس فى روما وقت السلم. وجدير بالذكر أن أغسطس ذكر فى نقشه الشهير المعروف باسم نصب أنقرة Monumentum Ancyranum أو أعمال المؤله أغسطس Augusti Res Gestae Divi أنه قد أغلق معبد يانوس فى ثلاث مناسبات مع أن هذا المعبد لم يغلق أبوابه منذ تأسيس المدينة حتى عهده إلا مرتين فقط[1].

3. توليوس هوستيليوس Tulius Hostilius(672-641 ق.م)

تولى الحكم بعد نوما بوبليوس، وعاد الى سياسة الحرب والتوسع على حساب جيران روما وخصوصاً مدن البالونجا Alba Longa وفيدناى

(1) Res Gestae 13:Kagan (1986), p277.

Fidenae وفيي Veii، كما أنه ضم بعض التلال إلى روما. ومن أشهر ما صيغ عن هذه الحروب تلك القصة التى تحكى صراع روما مع البالونجا عندما اتفقت المدينتان على المبارزة الشخصية بين ثلاثة أشقاء من كل مدينة، فى البداية تمكن الأشقاء الثلاثة من البالونجا من قتل اثنين من الأشقاء التابعين لروما، وعلى الرغم من هذا فقد نجح شقيقهم الثالث فى أن يصرع الأشقاء الثلاثة التابعين لمدينة البالونجا، وبالتالى نجح فى حسم الأمر لصالح روما، فأقيمت الاحتفالات ابتهاجاً بهذا النصر، غير أن أخت البطل المنتصر ظلت تنتحب وتنوح بسبب مقتل خطيبها الذى كان أحد أبطال البالونجا، وضاعف من حزنها أن أخاها -البطل- ارتدى قميصا كانت قد صنعته بنفسها لخطيبها، فما كان من أخيها إلا أن قتلها، وقال عبارته الشهيرة التى صارت مضربا للمثل فيما بعد: " فليهلك كل من ينوح على أعداء روما". وقد قام الملك توليوس بغزو البالونجا نفسها، ودمرها، ثم جلب سكانها، وأسكنهم على تل كايليوس، وقد صعقه الرعد واحترق هو ومنزله بعد أن حكم اثنين وثلاثين عاماً[1].

4. انكوس ماركيوس Ancus Martius (640–617 ق.م)

هو حفيد الملك نوما من ابنته، وقد حارب اللاتين، وضم تلال الافنتين ويانيكولان Janiculan، كذلك ينسب إليه تأسيس ميناء أوستيا على الساحل، والتى تبعد حوالى ستة عشر ميلاً عن روما، وقد مات ميتة طبيعية بعد أن حكم لمدة أربعة وعشرين عاما. وقد ذكر ديونيسوس الهاليكارناسى[2] أن الملك انكوس ماركوس تلقى من الكهنة تعليقاتهم على الطقوس الدينية التى ألفها نوما، وقام بنسخ هذه القوانين الدينية على ألواح خشبية نصبها فى السوق العامة، وقد ظلت

([1]) محمد عبد الغنى(2005)؛ تاريخ الرومان حتى نهاية العصر الجمهورى، جـــ1، الإسكندرية،،صص108-109.

([2]) III,36,4.

نصوص هذه القوانين موجودة فى السجلات حتى أيام شيشرون[1].

5. لوكيوس تاركوينوس بريسكوس Lucius Tarquinius Priscus (616-579 ق.م)

لعل تاركوينوس بريسكوس وخلفاءه سيرفيوس توليوس وتاركوينوس سوبيربيوس يمثلون السيطرة الأتروسكية على روما، ويعبرون أمامنا بشكل واضح عن أسلافهم، إذ كان تاركوينوس الأول بنّاءً عظيماً إذ بنى مصرف المجارى الكبير Closa Maxima، ومعبد جوبيتر الكابيتولى، والملعب الرياضى الكبير Circus Maximus، ويقال انه زاد عدد أعضاء السناتو إلى ثلاثمائة ليضعف نفوذ الأشراف، كما أنه شن حروباً ناجحةً على السابينى واللاتين والأتروسكين.

وجدير بالذكر أن لوكيوس تاركوينوس هو أحد الأمراء الأتروسكيين من مدينة تاركوينى Tarqunii، وكان قد وفد إلى روما برفقة زوجته المدعوة تانا كويل فى عهد انكيوس ماركيوس الذى قربه إليه بعد أن ذاع صيته فى المدينة، وجعله وصياً على أبنائه، وعندما توفى انكوس ماركوس تولى هو الحكم، وصار يعرف باسم تاركوينوس بريسكوس (تاركوينوس الأكبر تمييزاً له عن الملك تاركوينوس سوبيربوس المنتمى لنفس المدينة الأتروسكية تاركوينى). وقد أغضب اغتصابه للعرش أبناء الملك انكوس، فدبروا أمر اغتياله لاسيما بعد أن قرب إليه رجلاً يدعى سرفيوس توليوس كان أبناء الملك يصنفونه فى مرتبة العبيد، إلا أن سرفيوس توليوس تولى العرش بمساعدة زوجة الملك تاركوينوس التى زوجته ابنتها، وقام توليوس بتثبيت نفسه على العرش، وقام بنفى أبناء الملك السابق انكوس ماركيوس بسبب تدبيرهم أمر اغتيال تاركوينوس بريسكوس.

([1])De Repub.,II,14.26.

6. سيرفيوس توللِيوس Servius Tullius (578 –535 ق.م)

يروى القدماء أنه ابن أمه من رجل لاتينى، وقد حارب مدينة فيي، وأدخل روما فى العصبة اللاتينية، كذلك قام بضم ثلاثة تلال إلى روما؛ وهى الكورينال،الاسكويل والفيمينال، وذلك بعد أن نجح فى هزيمة السابينى، كذلك قام بإحاطة روما بعدد من الخنادق حول أسوار المدينة، وبالتالى ربط المدينة بسياج دفاعى مترابط.

ويعزى إلى الملك سيرفيوس توليوس Servius Tullius أنه أستحدث نظاما عسكريا جديدا بدلا من نظام العشائر الوراثية كان الأساس فى نشوء الجمعية المئوية. وقد ارتكزت فكرة هذا الإصلاح العسكرى المنسوب إليه[1] على أساس الثروة والوضع الاجتماعى، أى تجنيد كل المواطنين الرومان للعمل فى الجيش حسب الطبقات الاجتماعية، وحسب مقدرة كل طبقة اقتصاديا، وبناءً على ذلك كان المواطنون الأغنياء فى مقدمة الجيش؛ لأنهم كانوا يستطيعون تجهيز أنفسهم بالسلاح الجيد والخيول، فى حين كان الفقراء فى المؤخرة لعدم قدرتهم على امتلاك الخيول والأسلحة الثقيلة. ويذكر أن سرفيوس قسم الشعب الرومانى–أغنياء وفقراء– إلى عدد 193 وحدة مئويةcenturia، وكل وحدة– كما يتضح من اسمها– تتكون من مائة محارب، وكان كل فرد يقف وفقاً للامتيازات الاجتماعية لطبقته، فكان النبلاء يشكلون ثمانى عشرة وحدة مئوية؛ وهى• سلاح الفرسان الذى يتقدم الوحدات الأخرى، ويلى ذلك باقى الجيش الرومانى الذى يشمل 157 وحدة مئوية مقسمة حسب الوضع الطبقى لرجالها إلى خمس مجموعات تبدأ بأغنى رجال الطبقة المتوسطة الذين كانت لهم ثمانون

([1]) لكن الأقرب إلى الواقع أن هذا النظام يعود إلى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد؛ لأن روما خاضت خلال هذا القرن حروباً متصلة ضد القبائل التى كانت لاتفتأ تقاتلها من الجبال الشمالية وبالتالى كانت بحاجة ماسة إلى تطوير جيشها ونظمها. ددلى (1983)، ص52.

وحدة مئوية، ويتدرج الوضع إلى رجال الطبقة المتوسطة، كما كان الجيش يشتمل على وحدتين مئويتين من الصناع الفنيين Fabrum، ووحدتين أخريين من عازفى النفير Cornicium وضاربى الطبول Tupicinum، أما الوحدة المائة والثلاث والتسعون فقد كانت تتكون من المواطنين المعدمين الذين لا يستطيعون شراء السلاح، وقد أُطلق عليهم لقب المنجبين Proletarii، لأنهم لايقدمون للوطن شيئاً سوى إمداده بالخلف وإثرائه بالرجال، وفى مقابل ذلك فقد كان لهم حق التصويت فى الجمعية المئوية Comitia centuriata. ونتيجة لقيام تنظيم الجيش على الثروة الشخصية فقد كان هذا التنظيم يتغير بعد إجراء التعداد. وكانت الوحدة الأساسية فى الجيش الرومانى هى الفرقةlegio التى كانت تتألف من 500 من المشاة و300 من الفرسان[1]. ولقد كان جميع المواطنين يخدمون في الجيش كواجب عليهم أن يؤدوه نحو المدينة , ويدفعون من الضرائب ما يلزم لمواجهة الأعباء العسكرية قبل أى شيء آخر. ولم تكن الخدمة مأجورة، بل كان المشاة, وهم الجانب الأكبر من الجيش، يجهزون أنفسهم بالسلاح والعتاد. وأما بالنسبة للفرسان فقد كانت الدولة هي التى تزودهم بالخيل نظرا لغلائها. ولما كان كبار الملاك من المواطنين هم أصحاب المصالح العليا في الدولة, فقد ألقيت على عاتقهم أثقل أعبائها، ويتضح ذلك من نظام الجيش عند خوض المعركة, إذ كان القادرون على تجهيز أنفسهم بالسلاح الكامل يقفون في المقدمة، بينما يقف المجهزون بالسلاح الضعيف أو الخفيف فى المؤخرة. وكان ذلك هو المبدأ السليم الذي طبق في الجيش خلال فترة التوسع والغزو في إيطاليا . إذن كان الجيش هو جيش المواطنين الذين يتألف منهم الشعب Populus، وكانت الخدمة فيه واجبة على جميع الذين كانوا مطالبين

---

[1] سيد احمد على الناصرى(1982)؛ تاريخ و حضارة الرومان من ظهور القرية حتى سقوط الجمهورية، القاهرة، ص ص80-81.

بدفع الضرائب كل على قدر دخله. وأما القيادة فكان يتولاها حامل سلطة " الإمبريوم " ومن يعينهم من الضباط لتنفيذ أوامره. وقد لعب هذا الجيش دوراً مهما فى الاستيلاء على البالونجا، وفى التوسع لضم الجماعات الدينية الصغيرة المنتشرة في سهل لاتيوم فيما بين روما والبالونجا، وفى وادى نهر التيبر الأدنى حتى أوسينا وفيدناى وفومنتوم. وقد توفى توليوس فى العام الخامس والأربعين من حكمه، وتولى بعده زوج ابنته تاركوينوس المعروف بلقب سوبيربوس أى المتغطرس أو المتجبر.

7. لوكيوس تاركوينوس سوبيربوس Tarquinius Superbus (534-510 ق.م)

تؤكد الروايات الرومانية أن هذا الملك أشتهر بالفسق والفجور والاستبداد، وتذكر أن الرومان ثاروا عليه وقتلوه، وخلصوا بخلاصهم منه من الحكم الملكى نهائيا. وبذلك تخلصت روما من الاحتلال الأتروسكى. ويذكر أن تاركوينوس سوبيربوس انتصر على الفولسكى وهم شعب كان يسكن بالقرب من روما على الطريق المؤدى إلى كمبانيا، كما أنه عقد اتفاقية سلام مع التوسكان، وبنى معبدا للإله جوبيتر فى الكابيتول، وحدث أثناء حصاره لمدينة ادريا Adrea - وهى مدينة تبعد حوالى ثمانية عشر ميلا عن روما- أن قامت ثورة ضده فى روما، وطرد من الحكم، وذلك بسبب أن ابنه المدعو أيضا تاركوينوس قد انتهك شرف السيدة لوكرتيا زوجة أحد النبلاء، وقد تزعم هذه الثورة ابن أخيه المدعو لوكيوس جونيوس الذى عرف بلقب بروتوس Brutus أى الأبله، لأنه كثيراً ما كان يتظاهر بالغباء لكى يتفادى هواجس الملك وشكوكه. أما الجيش الذى كان مرافقا للملك فى حصاره لمدينة أدريا فقد تخلى عنه، فعاد الملك إلى روما فوجد أبواب المدينة مغلقة أمامه، فاضطر إلى الهروب هو وزوجته. وقد تم طرد أبناء الملك أيضا حيث تبعه اثنان منهم إلى مدينة كايرى Caere الأتروسكية .

الدفاع من أجل التوسع

كانت أولى خطوات روما هى تخلصها من الحكم الملكى عام 510 ق.م عندما ثارت على الملك تاركوينوس سوبربوس (المتغطرس) Tarquinius Superbus آخر الملوك الأتروسكيين الذين حكموها، وبذلك تخلصت روما من الاحتلال الأتروسكى. وتمت إقامة نظام سياسى جديد ذا نزعة أرستقراطية عام 509 ق.م، وقد اعتبر هذا النظام أمراً عاماً Res publica، وكان على قمته قنصلان يتم انتخابهما سنوياً لمدة عام من قبل الشعب[1]، وإعلاءً لقيمة المواطن الرومانى، وحرصاً على حياته و كرامته التى كانت مهدرة أثناء الحكم الملكى البغيض صدر أول قانون فى الجمهورية بعد طرد الملوك نص على أنه لا يجوز لأى موظف سام أن يعدم أو حتى يجلد مواطناً رومانياً إذا مارس حقه فى الدفاع عن نفسه[2].

وقد تعرض النظام الوليد لأول اختبار صعب دفاعاً عن وجوده وكيانه، وبالتالى كانت روما فى موقف الدفاع، وذلك عندما تقدم تحالف المدن الأتروسكية بقيادة لارس بورسينا Lars Porsena لإعادة الملك الطريد بالقوة، وقد نجح هذا التحالف فى حصار روما، والاستيلاء على بعض ممتلكاتها على الضفة اليمنى لنهر التيبر، وأُرغم الرومان على تقديم ماليديهم من حديد باستثناء ما يستخدمونه فى الزراعة، وكان هذا أول موقف صعب تعرضت له الجمهورية الرومانية الوليدة، ونجح الرومان فى الدفاع عن وجودهم فى مواجهة قوة الأتروسكيين، حيث استجمعوا قواهم، وألحقوا بالمعتدين هزيمة نكراء عند أريكيا عام 505 ق.م، على أثر الهزيمة انسحب المعتدون من لاتيوم[3].

وتكمن مهارة الرومان الحقيقية فى تعلمهم من المحن والكوارث التى تمر

---

(1) Livy I, 57-60.
(2) Cicero, De Rep.II, 52.
(3) Flor. I,4.

بهم، فقد تعلموا من أزمة تحالف المدن الأتروسكية أن لهم شـركاء فـى إقلـيم لاتيوم وهم اللاتين، لذا كان لابد أن تكسب روما ودهم حتى تأمن جانبهم وتؤمن البيت من الداخل؛ لأن ثمة مصيراً مشتركاً يربطها باللاتين، لذلك عقدت معهـم اتفاقية تبادل بمقتضاها الطرفان الحقوق، وأفضت هذه الاتفاقية أيضاً إلى قيـام حلف عسكرى ضمنت روما بمقتضاه تعاون اللاتين فى أى مجهود حربى قادم، كذلك جعلت منهم درعـا بـشرياً لحمايتهـا مـن الـشعوب البربريـة مثـل الأيكوىAequi والفولسكى Volsci فى جبال الأبنين. وقد أُبرمت هذه الاتفاقيـة عام 493 ق.م، ونسبت إلى القنصل الرومانى سبوريوس كاسـيوس Spurius Cassius، لذلك عُرفت باسم معاهدة كاسـيوس Foedus Cassium، وكانـت لاتزال محفورة على لوحات برونزية فى السوق العامة حتى أيام شيشرون. وقد أعطى ديونيسوس الهاليكارناسى[1] ملخصاً لها ذكر فيه أن هذه المعاهدة مثـال رائع على معاهدة عُقدت بين طـرفين متـساويين Foedus aequum، علـى الرغم من أن روما عقدت المعاهدة مع جميع المدن اللاتينية مجتمعة. ولعل أهم خطوة فى هذه المعاهدة هى توحيد القانون الخاص[2]، وهومايدل علـى مـدى التقدم الحضارى، كذلك لابد من بأن نعترف أن المدينة القوية– داخل أى اتحـاد

---

(1) Dionysius, .Hal., 95,6.1-3.

(2) القانون الخاص أو المدنىius civile اشتمل على ثلاثة حقوق هى:

1. حق الزواج (conubium,ius connubii) بمعنى أنه اصبح فى وسع اى مواطن من أية مدينة لاتينية (بما فى ذلك روما) عقد زواج شرعى منتج لجميع الآثار القانونية للزواج بما فى ذلك نشوء السلطة الأبوية والقرابة والميراث والنفقة والوصاية. وقد كان هذا الحق = مقصورا على طبقة الأشراف دون طبقة العامة، ثم منح هذا الحق لأفراد طبقة العامة بمقتضى قانون كانوليوس Lex Canuleia الذى صدر فى عام 445 ق.م، وقضى بإباحة التزاوج بين طبقتى العامة والاشراف.
2. حق التعامل(commercium,ius commercii) الذى يخول صاحبه أن يَملك ويُملك وأن يصير دائنا أو مدينا بكافة أنواع التصرفات الشرعية ، وبالتالى أصبح فى وسع اى مواطن من اية مدينة لاتينية(بما فى ذلك روما) أن يبيع و يشترى ويمتلك فى أية مدينة أخرى وهو مطمئن إلى حماية قانون تلك المدينة لما يبرمه من عقود.
3. حق التقاضى(legis acio) اى حق استعمال طرق المرافعات المقررة فى القانون المدنى. بدر والبدراوى 956، 196.

بوجه عام– كانت دائما تتملكها الرغبة الدائمة فى احتلال مركز الزعامة وهو ما ينطبق على روما، لذلك تعتبر هذه المعاهدة أول انتصار تحققه روما فـي فـن الحكم والسياسة[1]. وننتيجة لهذه المعاهدة أصبحت روما ولاتيوم شـيئاً واحـداً، وخاضت روما ومعها مدن الحلف حروباً ضد قبائل الأيكوى والفولسكى التـي كانت تسكن جبال الأبنين، وتشكل خطراً على السهل بما فيه روما نفسها، إلـى جانب إغاراتهم وغزواتهم الحدودية على إقليم لاتيـوم. وبعـد سـنوات مـن المناوشات بين هذه القبائل وبين روما نجحت روما فى هزيمتهم، وضم مدينتهم الحصينة أنتيوم Antium وتحويلهم إلى حلفاء[2].

طروادة الإيطالية

تعنى مدينة طروادة الكثير والكثير بالنسبة لليونان، وتغنى بها الـشاعر الكبير هوميروس فى ملحمتيه الخالدتين الإلياذة والأوديسة. ومن الملاحـظ أن كُتاب الرومان وشعراءهم عمدوا إلى نسج التاريخ الرومانى على غرار مثيلـه اليونانى، وأدخلوا علية حكايات وأساطير شبيهة بالتاريخ اليونانى، لذلك حاولوا نسج معارك كبيرة تظهر أمجاد وبطولات الرومان كما هـو الحـال بالنـسبة لليونان، حيث نسجوا بعض الأساطير حول حصار مدينة أو أخرى لإبراز مثل هذا الجانب. وطروادة محل الحديث هنا ليست طروادة الآسيوية، بـل هـي مدينة فيبى Veii أقوى المدن الأتروسكية على الإطلاق، والتى كانت تقع علـى بعد حوالى 9 أميال شمال روما، وكانت هذه المدينة كبيرة، ونعم أهلها بالرخاء والثراء من مكاسب تجارتهم المزدهرة ، وهذا دعم رغبتها فى حرية الملاحـة فى نهر التيبر والوصول إلى البحر. الصراع إذاً كان صراع حياة أو موت بين روما وفيبى من أجل السيطرة على نهر التيبر وضفتيه ومصبه، ولو أن رومـا

(1) ددلى (1979)، ص34.
(2) عبد اللطيف أحمد على (1974)، ص135 ومابعدها.

هُزمت فى هذا الصراع لقاست الأمرين، ولاقت نفس المصير التى واجهته فيبى بعد هزيمتها على يد الرومان بعد حصار دام عشر سنوات، إذ سقطت عام 396 ق.م بعد حصار طويل أشبه ما يكون بحصار اليونان لطروادة، لذلك حاولت الاساطير الرومانية ان تقارن بين هذه المدينة وبين حصار الإغريق الإسطورى لطروادة، فقد ادعت ان حصار فيبى استمر عشر سنوات مثل حصار طروادة ، وكذلك كانت هناك بطولات خارقة للرومان مثل بطولات أخيليس وغيره من القادة الإغريق، كذلك هناك حيلة مثل حيلة حصان طروادة ، ونسبوا هذه البطولات إلى الجنرال الرومانى كاميللوس Comillus الذى لجأ إلى حيلة ذكية لدخول فيبى. قام بحفر نفقاً تحت الأرض ووصل الى داخل المدينة المحاصرة، وطبقاً لخطته توقف الحفر تحت قلعة المدينة الرئيسية. وتوقف كاميللوس ليستمع وينصت لترايم كهنة الأتروسكيين فى المعبد وهم يذبحون الأضاحى قربانا لألهتهم، وسمع أحد الكهنه يروى لزعماء الأتروسكيين أن من يكمل الشعائر الدينية سيكون النصر حليفة، هنالك أندفع كاميللوس إلى المعبد، وأكمل الشعائر الدينية ثم واصل اندفاعه إلى الطريق العام وفتح بوابات المدينة ليتدفق الجيش[1].

وعندما ظفرت روما بالمدينة تم تقسيمها إلى مساحات صغيرة وزعت على المواطنين الرومان، وهو إجراء يشير إلى افتقاد روما لمساعدة الحلف فى حصار هذه المدينة. وقد كان لسقوط هذه المدينة الأتروسكية العظيمة نتائج مهمة منها :-

(أ) مضاعفة مساحة نفوذ روما التى أصبحت بمقتضى هذا النصر أكبر مدينة فى لاتيوم .

(ب) أدى تقسيم ممتلكات مدينة فيبى إلى مساحات صغيرة وتوزيعها على الجنود إلى زيادة قوة الجيش، وأصبح الجنود مُلاّكاً للأراضى. والحق أن وضع

([1]) Plutarch, Camillus,3-7.

مثل هذه الثروة فى يد الشعبيين-غير المؤثرين حتى هذه اللحظة- أعطى دفعة لاتقاوم للحزب الديمقراطى داخل روما. وجدير بالذكر أنه خلال العشرين سنة التالية لتوزيع أراضى فييى حصل العامة على حق تولى المناصب العامة فى الدولة الرومانية. وتكمن أهمية هذا الحدث بالنسبة للفكر الرومانى الاستعمارى فى أنه فى المستقبل أصبح الحزب الديمقراطى داخل روما هو الذى يطالب بالتوسع والاستعمار[1].

على أية حال كان صراع روما مع فييى -من وجهة نظرنا- صراعاً من أجل امتلاك أسباب القوة؛ أى مصب نهر التيبر والاتجار فيه، وبالانتصار على فييى عرفت روما طريق التوسع، وأصبح لها ميناء آمن اجتذب تجاراً من صقلية وقرطاجة وأتروريا. وقد تعلمت روما من خلال احتكاكها بالإغريق والقرطاجيين والأتروسكيين العديد من الدروس الدبلوماسية أملتها ضرورة عقد معاهدات تجارية مع رجال على قدر أكبر من الثقافة والحضارة، كذلك فإن هذا الاحتكاك بهؤلاء أدى إلى مقدم أفكار سياسية وعسكرية جديدة، وهذه الأفكار بدورها شكلت ممارسات إيجابية للرومان، إلى جانب ما وفرته لهم أيضاً من تراكم الثروات، وكل هذه مكاسب لم تتح لسكان المدن الداخلية[2].

محنة الغال

لم يهنأ الرومان طويلا بنشوة الانتصار،إذ حتى تعرضوا فى فترة تكوينهم لخطر داهم كاد أن يقضى عليهم، ونعنى به خطر الغال، والغال هم مجموعة من القبائل(تقريبا ثمانى قبائل) استقرت فى شمال إيطاليا حتى عرف هذا الإقليم باسم بلاد الغال على هذه الناحية من جبال الألب وهى ترجمة حرفية للاسم اللاتينى Gallia Cisalpina. وكانت أهم نتيجة ترتبت على استقرارهم هى

([1]) Diod XIV,16,43,102; Frank 1929, pp 20-21.
([2]) Tenney Frank (1929), Roman Imperialism, New York, pp22-23.

فقدان الأتروسكيين لمناطق نفوذهم فى وادى البو، فضلا عن أن هذا الإقليم الشمالى أصبح مكمن خطر وتهديد لبقية إيطاليا[1]. وقد تقدم الغال صوب روما نفسها حتى هزموا جيوش الرومان وحلفاءهم هزيمة نكراء على ضفاف نهر أليا Allia أحد فروع نهر التيبر، وقد حدثت هذه الكارثة على الأرجح عام 287 ق.م (وربما عام 390 ق.م) على بعد حوالى ستة عشر كيلو متراً من روما. لذلك أصبح الطريق مفتوحاً إليها لاسيما أن الناجين قد فروا إما إلى مدينة فييى القريبة ليتحصنوا بها، أو إلى روما ليخبروا السناتو بالهزيمة. وكانت أخبار وحشية الغال قد وصلت إلى روما، لذلك عندما وصل الغال إليها وجدوا بواباتها مهجورة بلا حراس؛ لأن السناتو اتخذ قراراً شجاعاً بنقل الرجال والشباب والأسلحة وعدد كبير من النساء والشيوخ والأطفال إلى أعلى القلعة لمقاومة الغال. وقد تجلت صلابة الرومان وشجاعتهم فى موقف أعضاء السناتو حيث يظهر معدن الرومان الأصيل ووفاؤهم لآلهتهم وقت المحن، لقد أبى عليهم كبرياؤهم أن يهربوا، فجلسوا فى وقار كالآلهة فوق مقاعدهم العاجية بعد أن وضعوا على أكتافهم عباءتهم السناتورية، واتخذوا مجالسهم فى ساحة المدينة، وفى حدائق منازلهم ناذرين أنفسهم لآلهة العالم السفلى من أجل إنقاذ الشعب الرومانى. هكذا ضرب رجال السناتو المثل فى التضحية بالذات، ومواجهة الموت من أجل سلامة الشعب الرومانى[2].

وقد أخذت الدهشة الغاليين لأنهم عندما رأوا هؤلاء الشيوخ بوقارهم وشعرهم الأبيض وهدوئهم الملائكى حسبوهم ملائكة، أوعلى حد تعبير ليفيوس حسبوهم "تماثيل للآلهه"؛ لأنهم كانوا أشبه بتماثيل للآلهة موضوعة فى مكان مقدس، وكانت الشرارة الأولى لاندلاع القتال عندما تحسس أحد الغاليين لحية

---

[1] Boak &Sinnigen (1965), p51.

[2] عبد اللطيف أحمد على (1974) ،صص141-142.

أحد الشيوخ الذى ضربه بعصاته العاجية فصرعه فى الحال، وهنا بـدأ القتـال وحدثت مذبحة لأعضاء السناتو، وقُتل عدد كبير منهم فى حين استبسل الرومان، وصمدوا فى الدفاع عن القلعة، بينما ظل الغال محاصرين لهم ، إلا أن الغـال ضاقوا ذرعا بالحصار لذلك قبلوا فدية من روما، وانسحبوا تـاركين وراءهـم ذكرى لن تُمحى من ذاكرة الرومان، وظل الرومان لقرون يعتبرون هذا اليوم – الذى يوافق فى حساباتهم يوم الثامن عشر من يوليو– يوم نحس dies negra، ويتشاءمون منه[1].

وقد كانت هذه المحنة قاسية على الرومان؛ وهى تعرض روما للحصار والتهديد من جانب شعب أجنبى، لذلك أخذ الرومان على عاتقهم مهمة التوسـع، وبالتالى فان عنصر الهجوم أصبح يرمى أكثر مما تستلزمه ضـرورات الـدفاع خصوصا بعد الكارثة المروعة التى نزلت بالجمهورية الرومانية، والتى كـادت تقضى عليها قضاءً مبرماً[2]، لذلك أدرك الرومان ضرورة أن يكونوا دولة قويـة حتى لا تبتلعهم الدول الأقوى، وإن لم يتوسعوا فسوف يتقلصون. من هنا نعتقـد أن محنة الغال كانت بمثابة النذير للرومان، وبعدها كانت هناك سياسـة غيـر معلنة من جانب الرومان تقضى بالتوسع والتمدد، وقد اقتضت هذه السياسة ثلاث عناصر:– أولهما تحديد حدود آمنة (لاتيوم)، وثانيهما هو حـدود وصـول؛ أى التى يصل إليها النفوذ الرومانى، ويكون فى مأمن (إيطاليا)، وأخيراً وليس بآخر حدود توسع وتمدد (حوض البحر المتوسط). وعلى هذا الأساس أصبحت هناك ثلاثة خطوط لسياسة روما العامة وهى أمن، ونفوذ، وتوسع.

وقد تعود الرومان على الاستفادة من المحن التى تمر بهم، وعلمتهم محنة الغال دروساً كثيرة أهمها:–

(1) سيد الناصرى(1982)، ص ص 86-88.

(2) فاروق القاضى (1965)، ص119.

1. ضرورة إعادة النظر فى تكوين الجيش، لأن جيشاً من البطارقة الأشراف وحدهم غير قادر على الوفاء بكل الأمور العسكرية الدفاعية والهجومية، كذلك ساهمت فى بلورة معنى الجندية حيث تلا ذلك (عام367 ق.م) تطورات دستورية داخل روما فُتحت بمقتضاها الوظائف العليا أمام العامة للمشاركة بإيجابية فى الدفاع عن روما، وحيث إن روما كانت -قبل غزوة الغال- تعتمد على الرجال وليس الأسوار، لذلك تمت إحاطة المدينة بسور دفاعى لحمايتها نُسب بطريق الخطأ إلى الملك سيرفيوس تولليوس فعرف باسم "سور سرفيوس"[1].
2. عودة الروح والوعى للرومان، فقد لحق بالمدينة دمار شامل ومجاعة بين الناجين من الموت الذين برزوا من بين الأنقاض، إلى جانب عودة الكهنة وهم يحملون تماثيل الآلهة التى قالوا إنهم دفنوها حتى لا يصل إليها العدو البربرى. لقد كانت عودة هذه التماثيل بمثابة عودة الروح المعنوية والوعى للرومان، لذلك شمر الجميع عن ساعد الجد لإعادة بناء مدينتهم لكى تعود إلى الحالة التى كانت عليها قبل غزوة الغال البربرية[2]، وكان انتشار تشييد المعابد للآلهة أهم علامات رخاء ونضج المدينة بعد انسحاب الغال، وكأن الرومان يكافئون آلهتهم التى وقفت بجانبهم، وقاتلت معهم فى أصعب اللحظات[3].
3. ضرورة أن تعيد روما صياغة علاقاتها بحلفائها اللاتين، وهو ما نتج عنه اتفاقية أو تسوية 338 ق.م التى تعتبر إحدى العلامات المميزة لتاريخ روما الاستعمارى، والتى كانت بداية لدمج سهل لاتيوم

---

[1] MacKendrick (1976),p 87ff.

([2]) الناصرى (1982) ، ص 89.

[3] MacKendrick 1976), p88.

والمستوطنات اللاتينية سياسياً واجتماعياً، بل بداية لتوحيد وربط إيطاليا بكامل شعوبها وأجناسها تحت قيادة روما اللاتينية، ثم كان على إيطاليا الموحدة اكتساح حوض البحر المتوسط وبناء الإمبراطورية.

روما والسامنيون

السامنيون هم إحدى القبائل الجبلية التي تسكن مرتفعات الأبنين Apenninesالجنوبية، وتسيطر على مساحة شاسعة من الأرض تمتد من ساحل الأدرياتى مارة بشمال روما، وجنوباً حتى خليج تارنتوم، وكان السامنيون عنصراً سكانياً يتميز بالشراسة وحب القتال، وفى لغتهم الوطنية كانوا يطلقون على أنفسهم اسم السابينيين Sabines. و قد كانت القبائل السمنية تعيش حياة القبائل البدائية متعاونة فيما بينها على رعى قطعان الماشية والأغنام، وزراعة المساحات الضيقة من أراضيهم الجبلية. ولما كانت ظروفهم الحياتية صعبة، ولا تحقق الاكتفاء لأعدادهم الغفيرة، فقد اضطروا للتوسع والاستيلاء على السهول مثل سهل كمبانيا فى الغرب – حيث أقام الإغريق معظم مستوطناتهم–، وسهل لوكانيا فى الجنوب، وبذلك راحوا يدفعون الفولوسكيين أمامهم مما كان سبباً فى الحرب بينهم وبين الرومان. هكذا كان السامنيون خطراً دائماً يهدد أمن وسلامة المستوطنات الإغريقية فى جنوب إيطاليا، إلى جانب أن الحدود السامنية الرومانية كانت ملتهبة بسبب الزيادة المستمرة فى عدد السكان، والمعروف لدى المؤرخين أن السامنيين اعتادوا إرسال الفائض من السكان للبحث عن أرض جديدة كل عام، وعرفت هذه العملية باسم [1]Ver Sacrum.

وقد وصف ليفيوس[2] الصراع بين روما والسامنيين بأنه كان صراعاً من أجل السيطرة على إيطاليا، وقد كان التحول فى موقف روما من الدفاع الصرف

(1) Frank (1929), p46.
(2) Livy VIII,23.9.

إلى الهجوم وليد الرغبة فى تأمين كيانها فقد تعلمت أن الهجـوم خيـر وسـيلة للدفاع، لذلك جاء تدخلها فى إقليم كمبانيا عام 343 ق.م عندما هاجم السامنيون مدينة سيديكنى Sidicine الواقعة جنوب كابوا مما أتاح لروما التـدخل وجـر السامنيين للقتال الذى أسفر عن هزيمتهم، ونتيجة لهذه الحرب ضمت روما سهل كمبانيا كله حتى سهل لاتيوم بعد أن طلب السامنيون عقد صلح معها عام 341 ق.م[1]. وما من شك فى أن هذا الانتصارقد أتاح لروما أن تخطو خطوة جديدة نحو بلوغ هدفها فى تأمين كيانها، بيد أن الموقف الذى اتخذه الرومان فى كمبانيا ينبىء عن ظهور عامل جديد فى السياسة الرومانية وهو عامل التوسـع، إذ إن روما لم تستطع مقاومة إغراء الأراضى الكمبانية، فتخلت نهائياً عـن موقـف الدفاع، وضربت صفحاً عن قانون الحرب الفتيالى[2]، بل تمادت فى خرق هـذا القانون حين نقضت المعاهدة التى تربطها بالسامنيين، وتدخل روما بهذا الشكل فى كمبانيا يؤكد بشكل ظاهر على وجود عنصر الهجوم فى السياسة الرومانية[3].

وبعد الحرب السامنية وضم سهل كمبانيا كله كان فى مقدور روما تحقيق مكاسب أكبر لكن كانت هناك مشكلة مُلحة تتطلب أن تلتفت إليها روما؛ ألا وهى ترتيب البيت من الداخل حتى تتمدد أكثر وأكثر، ونعنى بها مشكلة اللاتين.

روما ومدن العصبة اللاتينية

كانت محنة احتلال الغال لروما فرصة طيبة لكشف حقيقة نوايـا حلفـاء روما- اللاتين- الذين اتسم موقفهم بالسلبية، بل جاهرت بعض المدن بخروجها على العصبة، وأعلنت تحديها لروما وتلقت المساعدة مـن الـشعوب المعاديـة لروما. وكانت هذه المدن قد شعرت بوطأة تحكم روما وسيطرتها على كل أمور

([1]) Livy VIII,1-5; Kagan 1986, pp60-62.

([2]) القانون الفتيالى نسبة إلى أحدى جماعات الكهنة المعروفة باسم الفيتاليسس، وسيأتى ذكرها لاحقا.

([3]) فاروق القاضى(1965)، ص120 وما بعدها .

العصبة ق.م، وبالفعل فإن روما قد أمعنت فى إستغلال موارد العصبة لصالحها، بل حرمت مدن العصبة من أية مكاسب حققتها، ولم تجعل لهم أى نصيب منها، وفكرت روما جدياً فى ابتلاع هذه المدن. وقد كان الرومان بارعين فى إحداث التوازنات وتأمين جانبهم، لذلك تحالفت روما مع السامنيين عام 350 ق.م، وفى عام 348 ق.م تحالفت أيضاً مع قرطاجة أكبر قوة بحرية حينذاك، وقد تفاوضت فى هذه المعاهدة باسم العصبة. ووفقاً لبنود هذه الاتفاقية تعهدت قرطاجة بعدم التعرض للمدن اللاتينية طالما بقيت على ولائها لروما، والأغرب من هذا تعهدها بأن تعيد إلى سيطرة روما أية مدينة لاتينية متمردة تسقط فى يدها[1].
ولعل بنود هذه الاتفاقية تبين أن روما كانت تتوقع ثورة المدن اللاتينية داخل إقليم لاتيوم، لذلك أبرمت هذه الاتفاقية بهدف التفرغ لتصفية وابتلاع هذه المدن.

وقد اندلعت شرارة اصطدام اللاتين مع روما عندما استغل اللاتين اشتباك روما مع السامنيين وثاروا عليها، وطالبوا بالمساواة، لأن روما لم تتحالف معهم، بل سيطرت عليهم، وانضم إليهم فى ثورتهم على روما أهالى كمبانيا حلفاء روما الجدد، فاستمرت الحرب مع مدن العصبة ثلاث سنوات، وخرجت روما منها منتصرة، وكان على كل مدينة أن تقبل الشروط التى وضعتها روما – فيما عرف باتفاقية 338 ق.م– التى تعاملت مع كل مدينة على حدة بعد أن أعلنت من جانبها حل العصبة، وجردت مدنها من خصائص الاتحاد الفيدرالى، وأدمجت مدناً لاتينية مثل نومينتوم Nomentum وتوسكولوم Tusculum وأريكيا Aricia ولانوفيوم Lanuvium فى الدولة الرومانية، وصارت البقية بما فيها المستوطنات اللاتينية – التى كانت بمثابة نقاط حدودية ومخافر أمامية- حلفاء يلتزمون بتلبية مطالب روما العسكرية، بل إن روما جردتهم من حقوق

---

(1) عبد اللطيف أحمد على (1974)، ص 145.

التجارة، والزواج المشترك فيما بينهم، واقتصرت ممارسة هذه الحقوق بين كل مدينة وروما فقط، وبذلك نجحت روما فى تفتيت العلاقات بين هذه المدن وبعضها البعض، وفى المقابل ربطتها بها وحدها[1]. ونتيجة لبنود هذه الاتفاقية أصبح كل اللاتين يخدمون فى القوات المساعدة كحلفاء من الناحية النظرية، وإن كانوا فى حقيقة الأمر رعايا. وهكذا تنطق بنود المعاهدة بأنها وضعت وفرضت بالقوة من طرف واحد هو روما. وتعد هذه المعاهدة بلاشك نقطة تحول مهمة فى تاريخ روما الإستعمارى، وكان مرد هذا الخطوة هو التحول فى موقف روما من الشقيقة الحامية لشقيقاتها فى الحلف والمدافعة عنهن إلى صاحبة سياسة الإرغام علي الإندماج بالقوة، بل إنها فرقت فى التعامل مع كل مدينة حسب ولائها لروما فى الامتيازات. ولاشك فى أن هذه التفرقة فى المعاملة كانت تجسيداً عملياً للمبدأ الرومانى الشهير القائل "فرق تسد divide et impera"، والذى التصق بسياسة روما فى تعاملها مع معظم الشعوب التى غزتها، وكان أحد أهم أُسس السياسة الرومانية فى علاقاتها الخارجية. وعلى الجانب الآخر فقد كان أهم نجاح حققته روما فى علاقتها بالمدن اللاتينية هو اتباع سياسة الاستيعاب والاحتواء لهذه المدن، وتجلى هذا فيما استفادت به هذه المدن من الاتفاقية إذ تكفلت بالحماية والدفاع عن هذه المدن ضد أى عدوان خارجي، وضمن مواطنوها حماية القانون المدنى لهم فى تعاملهم مع الرومان، إلى جانب تمتعهم بالسيادة الذاتية فى إدارة شئونهم. وكان هؤلاء المواطنون دون الجنسية الرومانية الكاملة يطمحون فى الحصول عليها كاملة مستقبلاً إذا ما أحسنوا التعامل مع روما، وبذلك نجحت روما فى ربطهم بها عاطفياً، وكسب ولائهم تعلقاً بأمل رضا روما عنهم، ومنحهم حق الجنسية الكاملة. وقد ثبت نجاح سياسة الاستيعاب والاحتواء الرومانية، إذ بقى هؤلاء اللاتين على ولائهم

(1) Livy VIII,11-14; Kagan (1986), pp 65-67; Frank (1929) ,p 34 ff.

لروما حتى فى أحلك أوقات صراعها مع القبائل السامنية، أو مع بيرهـوس، أو أثناء حرب هانيبال[1]. وهكذا نجحت روما فى ترتيب بيتها من الداخل، وأصبحت سيدة لاتيوم، وأكبر قوة فى إيطاليا، وكل هذا أعطاها القدرة علـى أن تتمـدد وتتوسع داخل إيطاليا.

[1] الناصرى، 1982 ص 118.



طور الهجوم

يشتمل هذا الطور على دراسة محـــاولات الفكـــر العـــسكرى الرومانى فى التوسع والتمدد فى إيطاليا كلها حتى تنجح روما فى ابتلاع إيطاليا ككل كما نجحت من قبـــل فـــى ابتلاع لاتيوم، والنتيجة النهائية هى أن تتوحد إيطاليا ككل تحت ســيادة رومـــا اللاتينية، ويصبح حديثنا عن إيطاليا ككل مختزلاً فى الحديث عن روما.

ويُعتقد أن اتفاقية 338 ق.م هى البداية الحقيقية لروما الاستعمارية؛ لأنها كانت بداية لصهر سهل لاتيوم والمستوطنات اللاتينية سياسياً واجتماعياً فى كيان واحد، كما أنها كانت البداية لتوحيد وربط إيطاليا تحت زعامة روما. ومعلوم أن حدود روما وصلت إلى خليج نابولى جنوباً نتيجة لنجاح روما فى إقناع مـــدن كمبانيا بالدخول فى تحالف معها، وأصبحت هذه المـــدن جـــزءاً مـــن الدولـــة الرومانية، وخدم مواطنوها فى الفرق الأساسية، وفى المقابل شعرت مدن كمبانيا بحاجتها إلى حماية روما لصد عدوان السامنيين.

وقد كان إدماج روما لمدن لاتيوم مقدمة طبيعيـــة واســـتعداداً لاســـتئناف حربها مع السامنيين خصوصاً فى مرحلتها الثانية التى اســـتغرقت حـــوالى 42 عاماً(327-303 ق.م)، تلك الحرب الضروس التى صورها ليفيوس على أنهـــا صراع حياة أو موت من أجل السيادة على إيطاليا؛ روما أم الـــسامنيين[1]. وقـــد كانت أسباب استئناف الحرب كامنة لدى الطرفين، وكان اندلاعها متوقفاً علـــى أية ذريعة، وبالفعل كانت الذريعة هى رغبة الطرفين فى السيطرة على مدينـــة نابولى Neapolis ذات الأهمية التجارية الكبيرة للسامنيين، والتى استولى عليها الرومان، وسادت حالة جمود من اللاسلم واللا حرب بين الجـــانبين، وكـــسرها قنصلا روما عام 321 ق.م عندما حاولا المسير بجيشهما -الذى أُعيد تنظيمه- إلى جنوب كمبانيا، ودخلا سامنيوم عند ممـــر الـــشعاب الكوديانيـــة Fauces

---

([1]) Frank (1929), p46.

Caudinae الواقعة بين كابوا Capua وبنفينتيوم Beneventum، وقد رغـب القنصلان فى الوصول إلى المناطق المفتوحة الخلفية التى يستطيعان من خلالها حصار السامنيين، والحصول على مساعدة حلفاء روما فى أبوليا، لكن الجـيش السامنى أجهز عليهما، ونكل بهما تنكيلاً شديداً فيمـا عُـرف بكارثـة شـعاب كاوديوم العسكرية. من هنا أصبح السامنيون فى موقف قوة، وبالتالى أملى قائد الجيش على القنصلين شروطاً مهينة منها الانسحاب من إقليم سامنيوم وكمبانيا، وإخلاء الحاميات والقلاع المحيطة بالإقليم. وهكذا رغب السامنيون – من خلال هذه الشروط – التفاوض مع الرومان كأنداد لهم. وعند عودة الجيش إلى روما اجتمع القنصلان مع السناتو للتصديق على بنود الصلح مـع الـسامنيين، لكـن السناتو رفض بنود هذا الاتفاق، وأعاد القنصلين إلى السامنيين وفاءً للعهد ليفعل قائد السامنيين بهما ما يشاء، وبالفعل انتقم من القنصلين لأن بقية الجيش لم تعد معهما[1].

لقد كان الرومان جادين في الاستفادة من الهزيمة من السامنيين، لاسيما أن السناتو الرومانى مكون من رجال علمتهم الخبرة أن الهزيمة فى معركة واحدة من حرب طويلة هي مجرد حادث مؤسف، هنالك شمر الرومان عن ساعد الجد، وطوروا من تكتيكاتهم العسكرية، وتعلموا حرب الجبال والمرتفعات، ثم أعادوا تقسيم الفرقة الرومانية لتحارب في ثلاثة صفوف بثلاثة طرق وأسلحة مختلفـة. كذلك طور الرومان من أسلوب التدريب بحيث أصـبح يجمـع بـين التـراث الإغريقى العسكرى –الذي كان يقوم على فيلق Phalanx المشاة الثقيلة الـذى

(1) Livy, IX,2-6; Frank (1929), p48ff: Oxf.Class.Dic.s.v. Caudine Forks.
لقد كانت شجاعة هذين القنصلين مثار إعجاب الكثيرين نتجة لوفائهما بالعهد و قبولهما العودة إلى قائد السامنين الذى قتلهما، والغريب انهما- برغم علمهما بذلك- قبلا العودة لذلك أعتبرهما احد الكتاب الكلاسيكيين من الرجال المشاهير والبنائين لمجد روما. LIBER DE VIRIS ILLUSTRIBVS URBIS ROMAE (Electronic Source), 30-31.

اخترعه فيليب الثانى المقدونى -وبين حرب الجبال، ومن جهة ثانية درسوا التكتيك الذى كان يستخدمه السامنيون، وفي ذات الاتجاه أنشأوا الطرق العسكرية المعبدة خصوصا طريق أبيوس الذى يربط بين روما وكابوا، وذلك بهدف تسهيل تحركات الجيش تحت أى ظرف، هذا إلى جانب المحاولة الناجحة من جانب روما لتطويق السامنيين من خلال السيطرة على أبوليا التى كان يسكنها عدد من القبائل الإيطالية دفعتها القبائل السامنية أمامها ليستقر بها المقام فى أبوليا، وقد رحبت هذه القبائل بالرومان. وعلى هذا عندما عادت روما إلى الحرب كانت قد نجحت في تطويق السامنيين من جهة أبوليا[1]، إلا أن السامنيين شكلوا حزباً لحرب روما من الأتروسكيين والأومبريين والغال، وقد لقى هذا الحزب هزيمة نكراء عند سنتينوم Sentinum عام 295 ق.م فى إقليم أومبريا، وبذلك أجبرت روما كل القبائل السامنية على الدخول معها فى حلف والتنازل عن قدر كبير من أرضها لروما، ثم التفتت روما إلى كل من الغال والأتروسكين وهزمتهم أيضا، وباتت الجبهة الشمالية مهددة إلي الوقت الذى قهرت فيه روما القبائل الغالية، وضمت أراضيها إليها، وعرفت باسم الأرض الغالية Ager Gallicus. وقد اقترح نقيب العامة جايوس فلامينيوس Gaius Flaminius توزيع هذه الأرض على المواطنين الرومان ممن يرغبون فى تملك مساحة من الأرض وذلك بعد تقسيمها إلى مزارع صغيرة، لكن السناتو رفض هذا الاقتراح مما دعا فلامينيوس إلى حمل اقتراحه إلى الجمعية القبلية التى وافقت عليه. وقد فُسر هذا التوجه على أنه سوف يحدث خللاً فى البناء الاجتماعى لروما حتى أن بولبيوس أعتبر هذا التوجه أول خطوة فى سبي إفساد

(1) Didorus XIX,10.

الناس[1]. والواقع أن أهمية هذا الإجراء تكمن فى عاملين: أولهما أن عادة توزيع الأراضى التى تستولى عليها الجيوش الرومانية كانت قد توقفت لبعض الوقت. أما ثانيهما- وهو الأخطر بطبيعة الحال - فهو أن توزيع الأراضى على العامة جعل التوجه الاستعمارى ضرورة، وشكل هؤلاء قوة دفـع للفكـر الرومـانى الاستعمارى خلال العقود التالية، لأن روما كانت فى حاجة إلـى المزيـد مـن الأراضى لتمليكها لهؤلاء، كذلك فإن هذه العملية تثبت رعاية الدولة لمواطنيهـا بشكل كبير؛ وتجلت هذه الرعاية فـى أبهـى صـورها خـلال تربيونيـة آل جراكوس[2]. وإجمالاً نؤكد أن الحرب الغالية منحت الرومان الإعـداد النفـسى والبدنى اللازمين لمشروعهم ومغامرتهم فى غزو وسيادة العالم[3].

كذلك نجحت روما في تطوير منطقة البحر الادرياتى التي كانت تـسكنها قبائل الأيكوى Aequi، والمارسيين Marsi، والفستين Vestini ، والماركونى Marrucani، وقد أظهرت هذه القبائل صداقة لرومـا أثنـاء حروبهـا مـع السامنيين، ولم تقم بأية محاولة لسد طريق أبيوس الذى يربط روما بأبوليـا أو السيطرة عليه، لذلك كافأهم السناتو الرومانى بعـد انتهـاء الحـرب الـسامنية بمعاهدات كحلفاء دائمين، مع استثناء عدو روما القديم وهو قبيلة الأيكوى التـى كانت قليلة العدد، وقد هاجمتها روما عام 304 ق.م بتهمة الخيانة -وفقـا لمـا أورده ليفيوس[4] -. وقد تم تفريغ أرض الأيكوى من سكانها حيث أقامت عليها روما مستوطنتين لاتينيتين فيما بين عامى 303 و298 ق.م. وقد كشفت النتيجة

([1]) كان جايوس فلامينوس نقيباً للعامة عام 232 ق.م، وهو أول سياسى قبل آل جراكوس يعلن تحديه السافر للسناتو. وقد اتسمت الصورة التى رسمها له كثير من المؤرخين الرومان بقدر كبير من التحامل عليه، وعدم الموضوعية خصوصاً فابيوس بكتور الذى رسم له صورة عدائية، وكذلك ليفيوس وبوليبيوس وكل المصادر التى استقت معلوماتها من ليفيوس .Oxf.Class.Dic.,sv.Flaminius (1)

([2]) Frank (1929), pp 115-116.

([3]) F.W. Walbank (1963); Polybius and Rome's Eastern policy, JRS LIII, p 6.

([4]) Livy VI,2;IX.45.

النهائية لانتصار روما عن أنها أصبحت تمتلك القوة لإجبار كل مدينة- من نهر الأرنو شمالاً حتى بلاد اليونان العظمى فى جنوب إيطاليا- على تحديد موقفها؛ إما مع روما أو ضدها. وهكذا بسطت روما سيادتها علي معظم أجزاء إيطاليا بإستثناء الجنوب الذى انتشرت فيه المستعمرات الإغريقية - منذ القرن السابع قبل الميلاد- وعُرف بإسم بلاد الإغريق العظمى Magna Graecia.

وعلى هذا كان الجنوب الذى يسكنه الإغريق مشكلة أخرى وتحدٍ جديد كان على الرومان مواجهته نتيجة لسياستهم الاستعمارية الهادفة لابتلاعه، ولكنه تحدٍ من نوع جديد؛ لأن روما كان عليها-هذه المرة- أن تواجه جيوشاً خارجية من بلاد اليونان الأصلية حيث دأبت المستوطنات الإغريقية-خصوصا تارنتوم زعيمة المدن الإغريقية فى جنوب إيطاليا- على الاستنجاد بالقادة الإغريق للوقوف في وجه مناوئيها في جنوب إيطاليا، وكانت مدينة تارنتوم Tarentum أشهر المستوطنات الإغريقية على الإطلاق، وأشدها بأسا بسبب امتلاكها أكبر أسطول فى المياه الإيطالية، لذلك أخذت على عاتقها رد العدوان عن إغريق إيطاليا[1]. وجدير بالذكر أن انتصار روما على السامنيين أفزع تارنتوم خوفا من عواقب ازدياد قوة روما، فتدخلت للتوفيق بين السامنيين وروما فى حوالى عام 314ق.م، لكن روما رفضت تدخلها، وأقامت مستوطنة فنوسيا Venusia بالقرب منها.

وقد اندلعت شرارة الحرب عندما أغرقت تارنتوم بعض سفن الأسطول الروماني المتمركزة في مدينة ثورى Thurii في خليج تارنتوم، بل إنها اعتبرت ظهور هذه السفن فى هذه المنطقة خرقاً لشروط معاهدة 334 ق.م بين الطرفين، والتى نصت على عدم دخول السفن الحربية الرومانية خليج تارنتوم،

([1]) Oxf.Class.Dic.,sv. Tarentum.

ثم هاجم جيشها مدينة ثوري وطرد الحامية الرومانية منها[1]، والتى كانت قد رابطت فى ثورى عندما هاجمها اللوكانى Lucani، فاستنجدت ثورى بروما التى لبت بدورها النداء، وأرسلت جيشاً هزم اللوكانى، وطردهم خارج المدينة، ثم ترك حامية رومانية لحماية المدينة[2]، وعلى أثر ذلك طلبت مدن أُخرى مثل لوكرى Lucri وريجيوم Rhegium أن ترابط بها حاميات رومانية مماثلة مما أثار قلق ومخاوف تارنتوم وغيرها من المدن الإغريقيّة التي عانت كثيراً من هجمات وتعديات هذه المدن، وزاد من مخاوفها أن دعم روما لها سوف ويمنحها القوة لشن حملات متزايدة عليها[3].

وكان رد فعل روما- على إغراق أسطولها- هو طلب ترضية مناسبة أى تعويض عن هذا العمل العدائى، لكن تارنتوم رفضت وبالغت فى عدوانها، فاعتدت على سفراء روما وأهانتهم[4]. والحق أن مبعث هذا الرد المخيب للآمال من جانب تارنتوم يكمن فى شعورها بقوتها على أثر حضور القائد الكفء بيرهوس[5] Pyrrhus ملك إبيروس Epirus – أشهر قواد الإغريق فى عصره- لنجدتها، إلى جانب نجاح تارنتوم في الحصول على تأييد بعض المدن المجاورة لها والتي كانت راغبة في مهاجمة روما لأى سبب، وحيال هذا الرد لم يجد الرومان بدا من إعلان الحرب[6].

وقد كان العالم اليونانى بعد الإسكندر يغص بالقواد الأكفاء ذوى المواهب العظيمة والطموح الأعظم، وكان بيرهوس ملك إبيروس (319-272 ق.م) من بين هؤلاء، حيث كان يتشبه بالإسكندر الأكبر، ولديه جيش مدرب على نظام

([1]) إبراهيم نصحى(1983)، ص ص 132-133.

([2]) Oxf. Class.Dic., sv., Thurii.

([3]) Frank (1929) ,p61 ff; عبد اللطيف أحمد على (1974)،ص152 و مابعدها

([4]) ذكر بوليبيوس(I, 6.5) تفاصيل حادثة إهانة سفراء روما من جانب تارنتم.

([5]) عن هذا القائد و حياته انظر : عزه سليم؛ بيرهوس ملك إبيروس، حوليات كلية الآداب- جامعة عين شمس(30) يناير- مارس 2002، ص ص 213-258.

([6]) أبراهيم نصحى (1983)، ص133.

الفيلق المقدونىPhalanx ، وأحضر معه عدداً من الفيلة المُحاربة التي لم يكن للرومان عهد بها من قبل[1].

وقد وصل بيرهوس إلى إيطاليا عام 280 ق.م، وبالفعل ألحق الهزيمة بالجيش الرومانى عند هراقليا Heraclea، ومن هناك تقدم باتجاه روما حتى وصل إلى حدود لاتيوم، وأرسل سفيره لمفاوضة الرومان وهو في موضع قوة، لكن السناتو الرومانى كان له رد آخر، فقد رد أبيوس كلوديوس -الملقب بالأعمى- السياسي المخضرم على السفير قائلاً " إن روما لا تتفاوض مع العدو طالما تطأ أقدامه أرض إيطاليا "[2]. وهنا نجد دلالة مهمة جداً وهى حديث أبيوس كلوديوس عن أرض إيطاليا، وليس عن أرض روما، وبذلك توحد المفهومان (إيطاليا – روما) في كيان واحد، وهذا المفهوم يدعمه موقف حلفاء روما حيث تماسكوا وظلوا علي ولائهم لها، إذ إن بيرهوس توقع بتقدمه صوب روما أن حلفاءها سوف ينقلبون عليها، وينفضون من حولها، لكنه لم يدرك أن روما استطاعت بناء علاقات دبلوماسية صلبة مع حلفاءها، وهي بذلك تستطيع الاعتماد عليهم، وكان هذا درسا له ولهانيبال من بعده، فقفل راجعا إلى الجنوب، والتقى بجيش رومانى آخر عند أسكولوم Asculum فى أبوليا، وانتصر عليه، لكنه كان انتصاراً بلا جدوى مكلفاً وغير حاسم. وقد عرض بيرهوس الصلح على الرومان مرة ثانية، وكاد الرومان أن يقبلوا الصلح لكن عرضاً قرطاجياً حال دون ذلك، فقد عرضت قرطاجة على روما المساعدة بالمال والسفن مما شجعها على رفض الصلح، ومواصلة القتال مع بيرهوس، وتطورت العلاقات الطيبة بين قرطاجة وروما إلى حد إبرام معاهدة عسكرية من

---

(1) ددلى(1979)، ص41.

(2)Appian,Rom.His III,frag.,10; Naphtali Lewis & Meyer Reinhold(1990); *Roman Civilization*, Selected Readings vol I The Republic and the Augustian Age, New York, pp 86-871

أجل تنسيق المواقف لمواجهة بيرهوس لاسيما أن قرطاجة كانت تخشى تدخلــه فى صقلية[1]، وهذا ماحدث بالفعل إذ إن بيرهوس قرر فجأة ترك إيطاليا، وذهب إلى صقلية (278- 275 ق.م) لنجدة الإغريق هناك من سيطرة قرطاجة، وقد حقق نجاحاً في مهمته فى صقلية، لكن الإغريق انقلبوا عليه فقرر العودة إلــى إيطاليا، ولقيه جيش روماني جيد التنظيم عند بنفنتوم Beneventum عام275 ق.م ولقي بيرهوس هزيمة ساحقة دفعته إلى مغادرة إيطاليا[2].

لقد كان بيرهوس أول قائد يونانى عظيم واجه الرومان وهزمــوه فــى النهاية[3]، فاضطر إلى مغادرة إيطاليا عائداً بخفي حنين تاركاً روما أوطد مركزاً مما كانت عليه في أى وقت مضى، وأكثرسيطرة على كل شبه الجزيرة بعد أن استغلت فرصة غيابه فى صقلية، وأدبت الشعوب التى أيدته، وضمت إغريــق إيطاليا الذين رفضوا تلبية نداء تارنتوم التى ضمتها روما هــى الأخــرى فــى وقت لاحق، وهكذا ضمت روما الميناء البديع والقلعة المنيعة والأسطول الفخــم حتى إنه لم ينته عام 265 ق.م إلا وكانت شبه الجزيــرة الإيطاليــة بأجمعهــا تعترف بسيادة روما.

وتتعلق بحرب روما مع بيرهوس باعتبارها آخر المراحل لإقرارالوحــدة الإيطالية عدد من النتائج فى غاية الأهمية بحيث إنه كان لهما أكبر الأثــر فــى توجهات روما المستقبلية، وهما:-

1. ظلت ذكرى غزوة هذا الملك القادم من الشرق حية فى أذهــان الرومــان بحيث إنها أثارت ريبتهم فى توجهات وسلوك فيليب الخامس ملك مقدونيا لاسيما التقارب الذى حدث بينه وبين هانيبال أثناء الحرب البونية الثانية، وكان إفشال خطط التحالف بين هانيبال وفيليب أحد أهم المحــاور التــى

([1]) Poly. III, 25,1-2.
([2]) Flor.I, 13.
([3]) Tenney Frank (1928); *Pyrrhus*, pp 658-662 in CAH VII, Cambridge, pp 658-662.

نفذها الرومان ببراعة خلال الحرب البونية الثانية، وكانت سببا رئيساً فى حصار هانيبال داخل إيطاليا وإضعاف شوكته، وهو ماكان مقدمة لازمــة لتحقيق النصر خلال هذه الحرب المريرة.

2. ظهرت هناك ضرورة ملحة من جانب روما للاهتمام بالبحر الأدريــاتى وذلك بسبب أن روما لم ترث تارنتوم من حيث الــسيطرة علـــى المــدن الإغريقية فقط، بل ورثت أيضاً العلاقات التجارية التى كانت قائمة بـــين هذه المدن ومدن الشرق، ومن هنا كان دافـــع رومـــا للاهتمـــام بـــالبحر الأدرياتى الذى كان بحراً ضيقاً ذا شاطئين متقاربين بحيث يكون ضرورياً أن تقوم بين شاطئيه علاقات ما، إما سلماً أو حرباً، كما كان بحراً مغلقــاً لأن عرض مضيق أوترنتو Otranto الذى يربطه بالبحر المتوسط لايزيد على ستة وعشرين ميلاً، وبالتالى كانت الملاحة فى هذا البحر تحت رحمة القوة التى تتحكم فى شاطئيه، إلى جانب هذا فإن هذا البحر كـــان يمـــوج بنشاط القراصنة الإلليريين مما كان يهدد سلامة إيطاليا. بعد انتصار روما على بيرهوس وضم تارنتوم، لذا كان يتوجب عليهـــا مواجهـــة هـــؤلاء القراصنة لحماية تجارتها مع المدن الشرقية.

3. كانت أهم نتيجة لحرب بيرهوس أنها لم تكن تتمة لإحكام روما سيطرتها على إيطاليا فحسب، بل كانت بداية الانطلاق لروما إلى خـــارج حـــدود إيطاليا، وحدث أن عقدت روما اتفاقية مع ملك مصر بطليمـــوس الثـــانى فيلادلفوس عام 273 ق.م[1]. وبغض النظر عن هدف وطبيعة هذه الاتفاقية

([1]) Eutropius II, 15; Dionysius Hall., Ant.Rom XX,14.1-2; Dio Cass., X. 41; A.C .Neatby (1950); Romano –Egyptian Relations during the Third Century B.C, *TAPA* 81, pp 92-97; عبد اللطيف أحمد على(1993)؛ مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية، القاهرة،ص3.

إلا أن لها دلالة كبيرة حيث أضحت روما قوة كبيرة لها ثقلهـا وتأثيرهـا داخل إيطاليا وخارجها، كما أصـبحت لهـا صـلات بممالـك الـشرق الهلينستى[1].

4. لقد كانت الحرب مع بيرهوس(280–275 ق.م) عظيمة الفائدة للرومان إذ كانت هذه هي أول مرة يواجه فيها الرومان قائداً يونانيـاً عظيمـاً مثـل بيرهوس، وجيوشا خارجية منظمة تنظيما دقيقا، وأسـلحة لـم يعهـدها الرومان (كالفيلة مثلا)، وهذا مكن الرومان من اكتساب خبرة كبيرة، كما أكدت ولاء حلفاء روما لها، إلى جانب أنها أبرزت الروح القتالية العاليـة للرومان، ومدى مهارتهم فى تطوير أنفسهم، وهاهى شهادة بيرهوس نفسه الذى قال " لو كان هؤلاء جنودى لهزمت العالم "، وذلك بعد أن هالـه أن قتلى الرومان تلقوا الطعن فى صدورهم. وقد صدق حدس بيرهـوس إذ غزا الرومان العالم واستعمروه[2].

لكننا نتساءل: لماذا أقحمت روما نفسها فى صراع بين دول الجنوب الإيطالى؟

يعتقد البعض أن تحالف روما مع ثوري كان السبب في الحرب مع تارنتوم. لكننا نرى أن الرومان كانوا يعلمون علم اليقين أن التحالف مع ثوري كان عبارة عن طريق يقود في نهايته إلى الدخول في حرب مع تارنتوم، وهذا أمر غاية في الجرأة من جانب روما طالما أنها كانت تعلم جيدا أن من عادة تارنتوم الاستنجاد بالقادة الإغريق لمساندتها في نزاعها في جنوب إيطاليا، إذ أن تحالف روما مع ثوري كان ضرورياً بالنسبة لروما، ومع ذلك لم يكن سببا للحرب، بل كان الذريعة التى نشبت بسببها الحرب بين روما وتارنتوم؛ لأن

(1) فاروق القاضى (1965)، ص ص 128-129.
(2) سيد الناصرى (1982)، ص 126.

دوافع الحرب كانت كامنة داخل العقل الرومانى وذلك لضرورة التوسع والتمدد، إذ أن روما كانت ترغب في هذه الحرب حتى تتمكن من بسط نفوذها، ومده حتى آخر موطئ قدم في شبه الجزيرة الإيطالية. والحق أن طبيعة الفكر العسكرى الرومانى بلغت طور التوسع، ولم تكن روما تعبأ أو تهاب أية قوى داخل أو خارج إيطاليا، إذ أن دخولها هذا المعترك لم يكن عفوياً أو من قبيل المصادفة؛ لأنها روما كانت جادة فى تأكيد سيطرتها على شبه الجزيرة الإيطالية ككل، ويؤكد هذا جديتها فى تطوير نفسها وجيشها بعد كل صدام استعداداً للمرحلة التالية.

إذاً على من تقع تبعة التحالف مع ثوري، وبالتالى ما أفضى إليه من الحرب مع بيرهوس، وماأعقبها بعد انتصار روما وسيطرتها على جنوب إيطاليا وتوسعها حتى غدت وجها لوجه مع القرطاجيين في صقلية؟ يقال إن السناتو فكر بتروٍ وثبات في التحالف مع ثوري لأنه خشى الحرب مع الفيالق الإغريقية التي نالت نفس الشهرة المعروفة عنها أيام الإسكندر الأكبر. وقد برﺓ أ تينى فرانك ساحة السناتو ورجاله من تبعة اتخاذ قرار تلبية نداء ثوري والتحالف معها؛ لأن السناتو فى ذلك الوقت كان قد بلغ درجة عالية من الخبرة بحيث إنه كان على دراية كاملة بتوابع مثل هذا القرار، وفى المقابل حمل فرانك الجمعية الشعبية المسئولية، حيث إن الجمعية الشعبية – التى نالت كل حقوقها بـ رن عام 287 ق.م – هى التى صوتت لصالح هذا التحالف في حين عارضه السناتو، والدليل على صحة هذا الافتراض جاء من إشارة لدى بليني[1] الذى أشار إلى أن أهل ثوري أقاموا تمثالا على شرف أحد نقباء العامة المدعو إيليوس ÆLIUS والذى لعب دوراً مهماً في فك حصار اللوكانى لمدينة ثوري. وتأسيسا على ذلك فإن تدخل نقيب العامة، وإقامة نصب له يعنى بلا شك أن الجمعية الشعبية كانت

(1) NH, XXXIV.32.

قد أمسكت بالأمور في يدها، ويدعم هذا ظهور عدد من الترابنة الأقوياء ممن كان لهم نفوذ في مثل تلك المواقف[1]. وبعيداً عن هذا الجدل الميتافيزيقي عن مسئولية السناتو أم الجمعية الشعبية فإن النتيجة النهائية هى الأهم إذ أضحت روما سيدة إيطاليا ككل، وكان وجودها في منطقة ريجبوم فى أقصى طرف في الجنوب الإيطالي سببا في وقوفها على مقربة من الأحداث الجارية في جزيرة صقلية والتى كانت تشهد صراعاً بين القرطاجيين وسراقوصة , ولم يكن هناك ما يمنع من دخولها في حلف أو معاهدات في صقلية، وجاء عليها وقت لم تستطع الوقوف متفرجة إزاء الأحداث الجارية فى الجزيرة، لأنها أصبحت معنية بهذه الأحداث بحكم وجودها فى جنوب إيطاليا، لكن التحرك هنا قد يدخلها في صراع جديد، ولكنه فى هذه المرة كان صراعاً ما بين إمبراطورية كبيرة ودولة مرهوبة الجانب بسطت نفوذها على شمال أفريقيا وجزيرة صقلية ألا وهى قرطاجة.

وقبل الولوج في هذا الصراع المحموم الذى مكن الرومان من بسط سيطرتهم على غرب البحر المتوسط لابد أن نعود إلى أسلوب روما في توحيد الكيان الإيطالي ككل تحت زعامتها حتى أضحى هناك تطابق في مفهومين أساسيين، وهما: روما وإيطاليا اللتان أصبح يربطهما مصير مشترك. ومن الآن فصاعدا إذا قلنا روما؛ فنحن نقصد إيطاليا الموحدة ككل تحت زعامة روما، وإذا قلنا إيطاليا فنحن نعني إيطاليا الرومانية بنفوذها وقوتها، ومرد هذا التوحد يعود إلى قدرة الرومان على توحيد كل إيطاليا على اختلاف شعوبها وقبائلها وأجناسها

([1]) يعتقد تاكيتوس (Ann.XIV,21.) ان روما كانت على علاقة ودية مع مدينة ثوري قبل غزو اللوكاني كما وبالتالي فأمر التحالف مع ثوري كان فى وقت سابق قبل تهديد اللوكانى لها، لكن هذا الرأى لايلقى قبولاً. .
Frank (1929),pp64-65

باعتبارها دولة إيطالية واحدة تحت زعامة روما اللاتينية، وهذا التوحيد -لكل إيطاليا- لم يحدث منذ انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربيـــة(467م) مـــرة أخرى إلا فى مطلع العصر الحديث (عام 1870م)عندما تشكلت الدولة الإيطالية الحديثة.

وقد شمل الاتحاد الإيطالي كل إيطاليا من أرمينيوم وبيـــزا شـــمالا حتـــى ريجيوم وبرنديزى جنوبا، وظل هذا الحلف قائما حوالى 200 عام حتى الحرب الأهلية التى حصل بعدها سكان إيطاليا على حريتهم. لقـــد اتحـــدت إيطاليـــا باعتبارها دولة رومانية فى شكل حلف فيدرالي من الناحية الصورية على الأقل تحت حماية وتوجيه روما، وكان من المفترض أن يكون هناك مجلس فيـــدرالى يصرف شئون هذا الحلف أو الاتحاد، لكن الواقع أنه كان يقوم بهذا الأمر مجلس السناتو الرومانى، والأغرب من ذلك أن كل إمكانيات وموارد الحلف وضـــعت تحت سيطرة روما، ولم يكن لأحد أو لأية مدينة أن تتذمر كما حدث مـــن قبـــل مع ذلك الحلف الذي كونته روما في نشأتها الباكرة مع مدن لاتيوم، لكن موقف المدن الأخرى فى هذا الاتحاد كان موقف المهزوم، لأنه وإن كان بعـــضها قـــد دخله مختارًا إلا أن واقع الأمر كان غير ذلك، وإن شئنا الدقة كان كل هـــؤلاء رعايا أكثر من كونهم شركاء، لذلك فرضت روما سيطرتها على الحلف. وأيـــا كانت العلاقات الداخلية ووضع الحلفاء اللاتين أو الايطـــاليين أوغيـــرهم مـــن المواطنين الرومان وقانونية وضعهم، فإن ما يهمنا هنا هو أن قيام مثـــل هـــذا الحلف أو الاتحاد كان بمثابة الخطوة الأخيرة في توسع روما وتمـــددها داخـــل إيطاليا، وبه أصبحت سيدة إيطاليا بلا منازع مهما كانت نوعية العلاقة أو التبعية بين بقية المدن وروما[1].

([1]) A.H.J.Greenidge (1901); *Roman public life*, London, pp289-310; E. Badian (1958); *Foreign Clientelate 264-70 B.C*, Clarendon,pp 15-24;Kagan (1986), pp69-92.

لقد أعطى هذا الاتحاد نوعاً من الوحدة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لكل إيطاليا، وكان واحداً من أهم معالم التاريخ القديم، وكان خلقا جديدا فريدا في نوعه يختلف عن الكثير من الاتحادات أو الروابط المعروفة فى العالم القديم مثل رابطة إسبرطة، واتحاد الدول الهلينية المعروف باسم رابطة أو عصبة كورنثة، والعصبة الأيتولية والآخية، أومن نوع إمبراطورية أثينا في عصر بركليس، حيث أنه خلط العديد من هذه القواعد في حلف فريد من نوعه[1]. وقد كان هناك ملمحان مهمان لسياسة روما تجاه المدن الإيطالية؛ أولهما: الإدماج بحيث تدمج روما وتصهر هذه الكيانات المتفرقة داخل كيان الجمهورية الرومانية، وثانيهما: نظام التحالف مع هذه المدن بحيث تنعم كل مدينة داخليا بقوانينها ونظمها الخاصة مع التزامها بالتبعية العسكرية وارتباطها مع روما بمعاهدة. وقد أصبح الخاضعون للفئة الأولى مواطنين رومان، في حين أصبحت الفئة الثانية حلفاء Socii. وقد أظهر الرومان مهارة فائقة فى تكوين حلفهم العسكرى الذى لم يكن فى واقع الأمر إلا إمبراطورية رومانية فى إيطاليا، وتتجلى هذه البراعة فى جانبين: أولهما هو أنهم لم يعاملوا الحلفاء جميعاً طبقاً لنسق موحد، وإنما تبعاً لحظ كل حليف من الحضارة، وثانيهما هو أنهم بقدر عنادهم فى متابعة حروبهم كانوا أسخياء متسامحين مع أعدائهم بعد هزيمتهم[2].

وعلى الجانب الآخر كان أهم ما قدمته روما لإيطاليا الموحدة تحت زعامتها هو السلام الرومانى Pax Romana الذى كان بديلاً طبيعياً لحالة الحرب التى كانت سائدة قبل سيادة روما، وأصبحت إيطاليا قوة مرهوبة الجانب مما جعل الغزاة الأجانب بعد بيرهوس-عدا هانيبال- يتوقفون حيث امتدت

---

(1) H.H.Scullard (1961); *A History of Roman World from 753-146 B.C*, 3rd ed.,London, p130ff= Kagan (1986), pp88-89.

(2) إبراهيم نصحى (1983)، ص ص 143-144.

الجيوش الرومانية، وكانت السواحل آمنة بفعل انتشار سلسلة المستوطنات الرومانية. واختفت الحروب الداخلية والنزاعات الحزبية داخل المدن الإيطالية، وقامت روما -التى استطاعت أن تسود بقوتها العسكرية- بدور القاضى والشرطى فى آن واحد، وتعمدت عدم إعطاء هذه المدن الفرصة للتجمع والتحالف ضدها، وعودت الجميع على الوفاء لها والا تحاد والوقوف خلفها، لأنها نجحت فى ربط كل المدن والقبائل بها، وعلى النقيض من ذلك كان وضع المدن والقبائل مع بعضها البعض وهو تطبيقا عمليا للمبدأ الرومانى الشهير فرق تسد.

إن نجاح الفكر العسكرى الرومانى خلال طور الهجوم فى التوسع وابتلاع إيطاليا ككل وتوحيدها فى كيان واحد بزعامة روما يمكن رده إلى عدة عوامل، وكانت هذه العوامل هى الأداة المنفذة لهذا الفكر خلال هذه المرحلة ، إلى جانب كونها- هى نفسها- التى ضمنت لروما النجاح فى توسعها الخارجى أيضاً، وهذا النجاح كان له أيضاً جانبان ؛ أحدهما عسكرى وهو ثمرة من ثمار سلامة التقدير والمثابرة وعدم الاستسلام للهزيمة، وثانيهما سياسى وكان ثمرة من ثمار ضبط النفس المقرونة بإرادة لا تلين وإدراك عميق لمصالح روما الحقيقية الدائمة[1]. أما عن مجموعة العوامل فيمكن استعراضها على النحو التالى :-

1. الاستفادة من الموقع الجغرافى

تعلم القادة الرومان كيف يستفيدون من المعطيات الجغرافية التى مكنتهم من أن يبعثوا بالجيوش شمالاً وجنوباً وشرقا للضرب فى أماكن متفرقة فى آن واحد حيث يسر العامل الجغرافى للقوات المقاتلة أن تعمل فى خطوط داخلية، وأن تفرق بين خصومها، وتهزم كلا منهم على حدة[2].

---

(1) عبد اللطيف احمد على (1974)، ص157.
(2) إبراهيم نصحى (1983)، ص144.

2. السناتو الرومانى كمؤسسة ضامنة وداعمة للتوسع

لقد كان السناتو رأس مال من التجربة، وذا خبرة قومية، وعلى قدر المسئولية فى إدارة شئون الدولة مدنياً وعسكرياً، وأشبه ما يكون ببيت الحكمة الرومانية، ومركز أعصاب الجمهورية، وكان ضامنا لأى توسع إذ كان يتألف من رجال على قدر كبير من الخبرة العسكرية حيث سبق لهم أن تولوا القنصلية، وقادوا الجيوش، وهذا فى رأينا سر نجاح هذا المجلس الذى كان كان مركزاً للخبرة فى الشئون السياسية والعسكرية فى آن واحد من خلال تمسكه بمبدأ التفاوض، وإقامة العلاقات مع العناصر الأرستقراطية فى المدن الإيطالية. ولعب رجال السناتو أدوارا فى غاية الأهمية أثناء المحن التى مرت بها روما، إلى جانب دورهم البارز فى الإنشاءات العسكرية، ونضرب مثلاً بأبيوس كلاوديوس كايكوس[1] Appius Claudius Caecus الذى لعب دوراً مهماً أثناء المحن التى واجهت روما وكادت تعصف بها مثل أزمات السامنيين والغال والحرب مع بيرهوس، كذلك تبنى سياسة إنشاء الطرق العسكرية المعبدة لتسهيل حركة الجيش، وإنشاء طريق مهم جدا عرف باسمه Via Appia يربط ما بين كابوا وروما [2].

3. النزعة الدينية لدى الرومان

تميز الرومان بورعهم؛ أى أنه كانت هناك دوما علاقة صحيحة بينهم وبين آلهتهم، تلك الكائنات العلوية التى تقوم على حماية الدولة الرومانية. وكان

---

[1] تولى الكنسورية عام 312 ثم تدرج فى الوظائف الأعلى فتولى القنصلية عامى 307 و296، و البرايتورية عام 295 . حارب ابيوس كلوديوس فى جبهات متعددة مثل اتروريا وكمبانيا وسامنيوم ثم قاد حملة المعارضة للصلح المهين الذى حاول بيرهوس فرضه على الرومان بعد إنتصارة فى هيراكليا، ايضا كان له دور بارز فى الصمود لتجاوز هذه المحنة و تحقيق لصر نهائى على بيرهوس.Oxf.Class.Dic.,sv., Claudius Caecus

([2]) Boak&Sinnigen(1965), pp83f.

تحقيق السلام الإلهى Pax Deoum مشروطاً بإيمان المواطنين الرومان بالآلهة وعبادتهم لها وإقامة الطقوس والشعائر الدينية على أكمل وجه فالشجاعة والرحمة والعدل والتقى، وإن كانت صفات الحاكم المثالى، فإنها أيضاً ترسم الفضائل التى يجب أن يتحلى بها أى فرد من عامة الناس، وقد كان لهذه الفضائل الرومانية من البسالة والسمو والشجاعة الفضل الأول فى تجاوز الرومان لأزماتهم، وإن كانوا دائمى الشعور بالحاجة إلى رضاء الآلهة التام الذى سيكون أقرب منالاً وأوفر بركة لو أظهر المواطنون عرفانهم بالجميل، واعترفوا بفضل الآلهة، واحتشدوا بمعابدها الرومانية، وبذلك يستدرون عطفها وينالون رضاها[1].

كذلك فإن الصفات الدينية التى أسبغها فرجيل على آينياس، وبالتالى على أُغسطس تنطبق على كل الشعب الرومانى، وأهم هذه الصفات على الإطلاق هى صفة التقوى pietas، وقد ضخم فرجيل فى معناها لتتضمن مفهوماً أوسع، فيصبح الولاء للأسرة، وتقوى الآلهة، والشعور العميق بالواجب نحو الأمة، والإيمان بمصير روما العظيم، فكل الرومان كانوا عميقى الشعور بالواجب ومؤمنين بمصير روما وعظمتها، وأتقياء ولديهم ولاء كامل لآلهتهم[2]. وقد لعب الدين دوراً حاسماً فى تفوق الرومان و نجاحهم،لأنهم أظهروا تمسكهم به فى أحلك الظروف حتى إبان الهزة العنيفة للسناتو بفعل إصلاحات آل جراكوس، وبعد مقتل جايوس أُجرى تطهير دينى للمدينة من الدماء التى سُفكت، ورُمم معبد ربة الوئام. وقد تسلل مجهول فى جنح الظلام ودوّن عبارة تقول " لقد بنت رعونة الخصام معبداً لربة الوئام"[3].

([1]) ورث (1999)، ص ص21،41 &94 .

([2])عبد اللطيف أحمد على (1974)، ص83.

([3]) عبد اللطيف أحمد على(1988)؛ التاريخ الرومانى عصر الثورة القاهرة، ص 36..

إن نصيب العوامل المختلفة مجتمعة فى نجاح روما لايوازى بأى حال من الأحوال ما أسهمت به صفات الرومان وتدينهم فى هذا الشأن إذ اتصفوا بالصبر والجلد والصلابة والقدرة على تحمل المشاق والوحدة، وتقديم المصلحة العامة فوق أى اعتبار حين تهدد الوطن أزمة خارجية[1].

كذلك كانت هناك بعض الهيئات أو الجماعات الدينية التى كانت مهمتها الإشراف على العلاقات الخارجية وإعلان الحرب فى حالة فشل محاولات الحصول على ترضية مناسبة، وقد عرفت باسم الفيتاليس Fetials. وهم حماة العهود والمواثيق مع الشعوب الأجنبية، وكانوا بمثابة كهنة على درجة سفراء. أما عن دورهم فقد كانوا معنيين بطلب الإصلاح، وإعلان الحرب، وإقرار السلام، ويبدو أن نطاق عملهم لم يكن محدداً بالشعوب التى كانت تربطها بروما علاقات من خلال المعاهدات، بل امتد إلى كل من لم يعلن الحرب على روما من خلال أفعال محددة، وكان يعين أربعة منهم لبحث مسألة التعويضات[2].

4. الإنشاءات العسكرية

A) المستعمرات الحصينة (التكتيك الاستعمارى)

تميز الرومان منذ بدايتهم بتفوق ملموس فى وضع أسس التكتيك الاستعمارى وخدمة أهدافهم واستراتيجيتهم العامة. ويتمثل هذا الاتجاه فى نجاح روما فى تأمين المناطق المفتوحة عن طريق إنشاء الطرق العسكرية والمستعمرات الحصينة،إلى جانب إنشاء معسكرات ميادين القتال. وهى سياسة ظلت ملتصقة بالفكرالرومانى العسكرى على مدى تاريخه. وبعد عام 338 ق.م كان نشر المستوطنات الرومانية فى كافة أنحاء إيطاليا أحد المعالم الرئيسة فى سياسة روما، وكان الهدف الأساسى من هذا الاتجاه هو حراسة الأماكن

---

(1) ابراهيم نصحى (1983)، ص145. سنعود لاحقاً للحديث عنهم بشيء من التفصيل

(2) Greenidge (1901) . p290=Kagan (1986) .p70.

الإستراتيجية وحماية روما من العدو الخارجى(الغاليين شمالاً، والسامنين شرقاً)، والمساعدة على الهجرة، وتخفيف وطأة زيادة السكان بضم أراض جديدة. ويبدأ إنشاء المستوطنة حين يتم مصادرة جزء من المنطقة الخصبة الصالحة للزراعة، وذلك بهدف جذب المستوطنين و تشجيعهم على الإقامة والاستقرار[1]. وقد تمركزت سياسة إنشاء هذه المستوطنات حول ثلاثة محاور؛ المحور الأول هو الساحل الغربى لإقليم لاتيوم من أجل حماية شواطئه وموانيه كبديل عن الأسطول الدفاعى. ومن الشرق جاءت فكرة المحور الثانى خصوصاً فى كمبانيا وأبوليا بهدف إقامة حلقة من القلاع الحصينة فى وجه القبائل السامنية التى تسكن الشرق فى منطقة سامنيوم. والمحور الثالث فى الشمال فى منطقة أومبريا؛ وذلك بهدف منع الغال من التسلل[2]. ونسوق هنا ثلاثة أمثلة من أهم هذه المستعمرات وهى:-

أ) مستعمرة نارنيا Narnia التى أسست عام 299 ق.م فى وادى التيبر الأعلى على طريق فلامينوس العسكرى Via Flaminia، وكانت هذه المستعمرة بمثابة نقطة حراسة أمامية تربطها بروما مواصلات سريعة لصد عدوان الأتروسكيين والغال، وتقع هذه المستعمرة جنوب أومبريا، وقد حدد ليفيوس تاريخ إنشائها بعام 299 ق.م، لكن هناك من يعتقد أنها تعود إلى مابعد هذا التاريخ؛ لأن روما كانت تواجه متاعب ومصاعب فى هذا الإقليم حتى بعد معركة سنتينيوم 295 ق.م[3].

ب) مستعمرة فريجلاى Fregellae أُسست عام 328 فى مكان يقع على بعد سبعين ميلاً إلى الجنوب الشرقى من روما على الطريق اللاتينى Via Latina فيما وراء حدود لاتيوم نفسها، وكانت تسيطر على

---

(1) Kagan (1986), p 90.

(2) سيد الناصرى (1982)، ص ص 119-120.

(3) Oxf.Class.Dic.,sv.,*Narnia*; Frank (1929),p58, no 17.

الممرات الواصلة بين لاتيوم وكمبانيا، وتحتل بقعة جميلة على مقربة من التقاء نهرين، ونعمت برخاء عظيم على مر الزمن، لكن هذا الرخاء زال عام 125 ق.م عندما هبت المستعمرة ثائرة فى وجه روما على الرغم من أنها أثبتت ولاءها الكامل لروما أثناء حرب بيرهوس، وكذلك ضد هانيبال[1].

ت) فنوسيا Venusia أنشئت عام 291 ق.م، وهى مستعمرة كبيرة تقع على طريق أبيوس فى

أبوليا على حدود سامنيوم ولوكانيا، ومن الجنوب على بعد حوالى ثلاثين ميلا شمال تارنتوم.

و قد ذكر ديونيسوس الهاليكارناسى أنه كان يسكنها عشرون ألف مستوطن[2].

وقد تركز معظم المستوطنات فى المناطق التى فتحها الرومان وذلك بهدف الحفاظ على المكاسب الإقليمية التى أحرزوها، وكذلك الوثوب منها لإحراز مكاسب أوسع. وقد برهنت حروب الرومان مع السامنيين ومع بيرهوس على مدى أهمية المستعمرات بوصفها قواعد لصد الهجمات المعادية، وكذلك للانقضاض منها على العدو، وإذا كانت المعسكرات العسكرية قد أُنشئت فى مواقع استراتيجية لخدمة أغراض عسكرية كحراسة معابر الأنهار (مثل فريجلاى على نهر ليريس وانترامنا على أحد روافد التبر الشمالية) أو منافذ الممرات الجبلية (مثل البا فوقنتيا Alba Fucentia واريمينوم) أو مفارق الطرق (مثل إيسرنيا وفنوسيا) أو المواقع الصالحة لرسو السفن على الشاطىء (مثل انتيوم وتاراقينا وسنا الغالية) فإنها أسهمت كذلك فى حل مشكلتين توأم كان إقليم

([1]) Oxf.Class.Dic.,s.v., Fregellae.
([2]) Dio. Hal. Ant. Rom. XVII, 5.

لاتيوم يعانى منهما، وهما مشكلة ازدحام السكان، ومشكلة الحاجة إلى أرض زراعية[1].

B) إنشاء الطرق العسكرية

كانت الطرق العسكرية عملاً رومانياً فذاً ينم عن العقلية الرومانية ذات النزعة العملية الخالصة؛ فقد نجحت روما فى ربط أجزاء إيطاليا بها حتى غدت روما هى المركز الذى تتفرع منه كل الطرق بحيث إن كل الطرق كانت تؤدى إلى روما كما يقول المثل الشهير الذى يثبت بما لا يدع مجالاً للشك مهارة الرومان فى إنشاء هذه الطرق، وهو ما تكشف عنه أيضاً خريطة الطرق والمستعمرات الرومانية.

وقد قدر لهذه الطرق أن تصبح يوما ما أخطر أثراً فى هيكل الإمبراطورية الرومانية من الخطوط البحرية، ومن الفرق العسكرية التى عسكرت فى شتى أنحاء الإمبراطورية[2]. وقد كان للتقدم فى العلوم التطبيقية دوره فى إنشاء الطرق، ذلك أن دواعى الحرب اقتضت إنشاء طريقين كانا الحلقة الأولى فى شبكة الطرق التى امتدت على مر الزمن لتغطى إيطاليا كلها. وهذان الطريقان هما طريق أبيوس، وطريق اللاتين اللذان أنشأهما الرومان ليبسرا لهم إرسال قوات إلى كمبانيا وحدود سامنيوم فى أى فصل من فصول السنة، وتجلى أثرهما استراتيجيا فى أنهما جعلا الرومان أقدر من ذى قبل على سرعة نقل جنودهم[3].

وقد بدأ الكنسور أبيوس كلوديوس كايكوس فى إنشاء طريق أبيوس عام 312 ق.م. وهو أول الطرق الرومانية الكبيرة التى لعبت دوراً كبيراً فى نشر النفوذ والحضارة الرومانية. كما أنه الطريق الرئيسى الذى يربط روما

([1]) إبراهيم نصحى (1983) ، ص ص146-147.
([2]) جمال حمدان(1999)،،ص21.
([3]) إبراهيم نصحى (1983) ، ص 146.

بجنوب إيطاليا وما وراءها[1]. ويتكون هذا الطريق من أربع طبقات؛ الأولى من أحجار الفلج، والثانية من الحصى و الزلط، والثالثة من الأسمنت، والطبقة الرابعة مدرجة بعناية. ومن دقة ومهارة الإنشاء أن هذا الطريق يعبر الأنهار بقناطر أو جسور ممهدة ويسير فوق المستنقعات على سدود مبنية على شكل البواكى. وقد مثل هذا الطريق فى جميع الأحوال شريانا حيوياً صالحاً لانتقال الناس والبضائع بين روما وكمبانيا. وبعد حرب بيرهوس تم مد هذا الطريق إلى برنديزى، وبالتالى أصبح طوله 234 ميلاً[2] كذلك تم إنشاء طريق شمالى كبير هو طريق فلامينوس بين روما واريمينيوم بطول 230 ميلاً، وقد لعب هذا الطريق دوراً مهماً فى غزو بلاد الغال فيما وراء جبال الألب، وأنشأه جايوس فلامينوس عام 220 ق.م[3]. وقد إنشئت هذه الطرق الكبرى لهدف استراتيجى فى المقام الأول، إذ كانت روما ترمى إلى تحقيق سلامة وسرعة انتقال الجنود والمؤن بما يواكب الأهداف العسكرية[4].

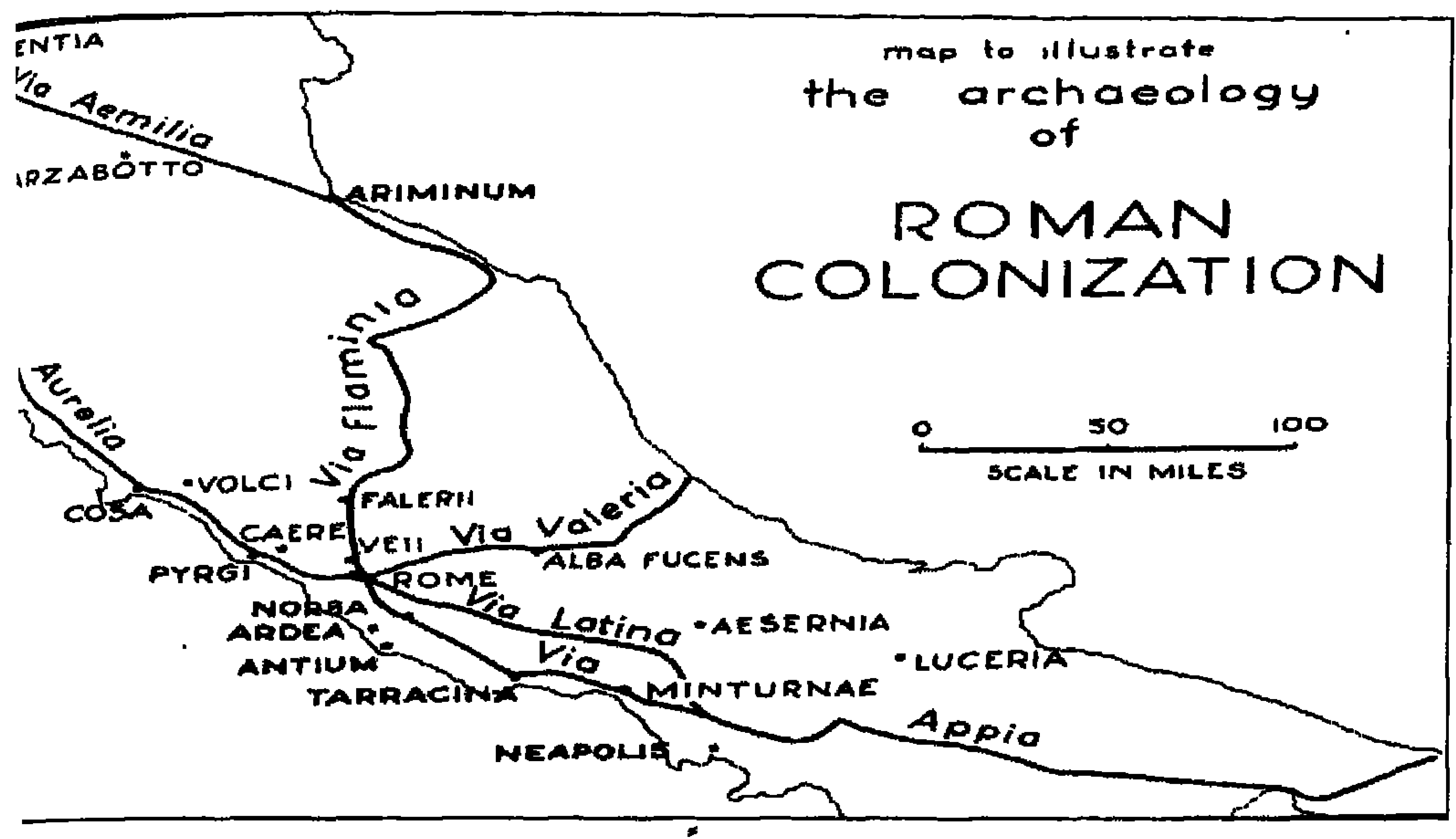
C) معسكرات القتال

لقد أفاد الرومان من إنشاء هذه المعسكرات فى ميادين القتال من حيث إنها جعلتهم أكثر أمناً، وحافظت على سلامتهم، وخير مثال لهذه المعسكرات: المعسكر الرومانى الحصين الذى أُقيم قبل معركة اسكولوم، وقد تجلت أهميته فى إنقاذ فلول الجيش الرومانى بعد الهزيمة فى هذه المعركة من أن يقطعها مطاردوهم من جيش بيرهوس إرْباً إرْباً[5].

---

(1) Strabo. VI. 283
(2) Oxf.Class.Dic.,sv., via Appia
(3) Oxf.Class.Dic.,sv.,Flaminius (1)& Via Flamina.

(4) ددلى (1979)، ص ص51-52.
(5) إبراهيم نصحى (1983)، ص 146.



الطرق والمستعمرات الرومانية(نقلاً عنMacKendrick1976)

5. **الجيش الرومانى**

كان الجيش هو الأداة الطيعة التى نفذت الفكر الاستعمارى الرومانى، إذ مكن روما من بسط سيادتها وإقرار نفوذها، وهذا الجيش الرومانى فى عهد الملوك يتكون من 3000 راجل و300 فارس يؤخذون بالتساوى من القبائل الثلاث القديمة. أى أن كل قبيلة كانت تقدم قوة مؤلفة من 1000 راجل بقيادة ضابطهم الذى كان يحمل لقب tribunus militum ، إلى جانب فصيلة تتألف من 100 فارس تحت إمرة ضابطهم tribunus celerum . ويبدو أن هذا النظام ظل متبعاً خلال النصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد، ثم أدخل عليه تعديل بسيط تم بقتضاه مضاعفة عدد الفرسان بحيث أصبح 600 فارس قسمت إلى ست مئينات centuriae (أى ست وحدات قوة كل منها 100 فارس، وتم تقسيم المشاة أيضاً إلى ثلاثين مئينا. ويعزى هذا التعديل أو الاصلاح إلى الملك سيرفيوس توليوس Servius Tullius - أحد ملوك الأتروسكين القدماء الذين حكموا مدينة روما خلال منتصف القرن السادس قبل الميلاد-، وكان هذا

الإصلاح هو الأساس فى نشوء الجمعية المئوية. ارتكزت فكرة هذا الإصــلاح العسكرى المنسوب إليه على أساس الثروة و الوضع الاجتماعى أى تجنيد كــل المواطنين الرومان للعمل فى الجيش حسب الطبقات الاجتماعية وحسب مقــدرة كل طبقة اقتصاديا. وبناءً على ذلك كان المواطنون الأغنياء فى مقدمة الجــيش لأنهم كانوا يستطيعون تجهيز أنفسهم بالسلاح الجيد والخيول، فى حــين كــان الفقراء والمعدمون فى المؤخرة لعدم قدرتهم على امتلاك الخيــول والأســلحة. وبالتالى كان الجيش يتكون من جنود من المواطنين غيــر محتــرفين أى يــتم استدعاؤهم عند الحاجة، وكان كل مواطن يتمتع باللياقة البدنية يخضع للخدمــة العسكرية كجزء من التزاماته تجاه الدولة. وبالتالى كان يتحمل تبعات و نفقــات الخدمة من جيبه الخاص لأن فلسفة الخدمة حينذاك كانت جزءاً مــن التزاماتــه تجاه الدولة و بالتالى فهى غير مأجورة. وكانت الوحدة الأساسية فى الجــيش الرومانى هى الفرقة legio التى كانت تتألف من 500 من المشاة و300 مــن الفرسان[1].

وقد خوّل القنصلان سلطة الإمبريوم والتى كان يحق لهمــا بمقتــضاها قيادة الجيوش، وكان السناتو الرومانى يتولى أثناء الحرب تحديد أعداد القــوات اللازمة، وكذلك ما يلزمها من نفقات، وكانت القنصلية فى المقام الأول ســلطة عسكرية لأن حاملها يتمتع بالــسلطة العــسكرية Imperium militare؛ تلــك السلطة التى كانت بمثابة الحق الدستورى لتسيير الجيوش، وهــذه الــسلطة لا تصبح نافذة المفعول إلا خارج أسوار رومــا الوهميــة Extra pomerium، وكانت الانتصارات العسكرية التى يحققها القنصل تكسبه شهرة كبيرة وهتــاف الجنود من أجل منحه لقب قائد منتصر Imperator[2].

---

(1) إبراهيم نصحى (1983) ، ص159.
(2) فاروق القاضى(1979)، ص 95؛ سيد الناصرى (1982)، ص107.

وكانت خطط تحريك القوات تتبع الأساليب اليونانية، ولعل اليونانيين أنفسهم قد نقلوها عن الأتروسكيين. أما عن التشكيل أثناء المعركة فقد كانت هناك ثلاثة خطوط للقتال تقوم على أساس فئات السن: أولهما الشبان رماة الرماح hastati ، وثانيهما المشاة الثقيلة التسليح الرئيسية principes، ثم قدامى المحاربين في الاحتياطى triarii. ويتلخص دور سلاح الفرسان في حماية أجنحة تشكيلات المشاة، من هنا كان هذا الجيش صالحاً للقتال في الأراضي السهلة المنبسطة، أما مقدرة هذا الجيش على القتال في الأراضي الوعرة والجبال فلم تكن على نفس الدرجة العالية من الكفاءة، لذلك تطلب القتال في جبل سامنيوم إعادة تشكيل هذا الجيش مع إعطائه قدراً أكبر من المرونة لتحقيق هذا الغرض، كما تم تقسيم الفرقة إلى كتائب manipuli بحيث تصبحر لها القدرة على العمل باعتبارها جماعات مستقلة، بالإضافة إلى القوات المساعدة التى كان الحلفاء يقدمونها[1]، لكن هذا الجيش كان يحمل بين جنباته بعض عوامل الضعف التى كانت تتكشف بسرعة؛ منها على سبيل المثال أن الجنود كان يعوزهم الكثير من التدريب على الرغم من شجاعتهم وبسالتهم التى أشاد بها بيرهوس بعد موقعة هراقيليا 280 ق.م، كما كانوا تواقين إلى إنهاء الحرب والعودة إلى مزارعهم، وأهم من ذلك أن القيادة العليا كانت تعانى من نقائص خطيرة، وقد يتصادف أن يكون أحد القنصلين قائداً قديراً، غير أن هناك الكثير من الأمور التى كانت تحول دون أن تتوافر المقدرة والكفاءة لكل منهما، وقد كان من الممكن بطبيعة الحال أن يُستدعى رجل ذو سجل مشرف فى ميدان القتال فى حالة الطوارئ لينصب قنصلاً أو دكتاتوراً، كما كان الحال مع كاميلوس Camillus أثناء حصار مدينة فييى[2]، أضف إلى هذا أيضاً أن هذا النظام لم يكن

([1]) سيد الناصرى (1982)، ص82.

([2]) ددلى(1979)، ص ص 54-55.

ليفى بالغرض مع طول فترة القتال، وتعدد ميادينه بعيداً عن روما، لذلك كانت هناك عدة مواجهات رئيسية فرضت على الرومان تطوير أنفسهم عسكرياً، وهى:-

- حصار فييى: ذكرنا من قبل أنه لم يكن أى من الجنود يتقاضى راتبا أو أجرا لأن الرومان اعتبروا الخدمة فى الجيش حقا على كل مواطن يتمتع بامتيازات المواطنة، ومن ثم سيطر النبلاء على الجيش. ونتيجة للتطورات العسكرية التى تتطلب القتال لأسابيع طويلة بعيدا عن الحدود مما جعل المعدمين لا يستطيعون الإنفاق على أنفسهم طوال هذه الفترة أُدخل نظام الرواتب Stipendium لتعويض الجنود عن الأسلحة والنفقات خصوصاً أثناء حصار مدينة فييى، وكانت هذه خطوة تلتها خطوات فى تكوين سبيل جيش محترف لروما[1].
- حصار الغال لروما:أثبتت الغزوات الغالية أن جيشاً يتكون من البطارقة الأشراف وحدهم لايستطيع أن يفى بالأعباء العسكرية المتزايدة، لذلك زيد عدد المواطنين الرومان ممن أُلقى على عاتقهم عبء الخدمة العسكرية، وبالتالى زيد عدد المشاة إلى 4000 مقاتل، وأعيد تنظيمهم بحيث أصبحوا ينتظمون فى صفوف متراصة تؤلف كتلة صلبة متلاحمة، وهكذا حفزت هذه النكبة الرومان على إعادة تنظيم الجيش وزيادة قوته[2].
- حرب السامنيين: تعلم الرومان خلال هذه الحرب – وبعد التدريب الشاق – فنون وأساليب الحرب فى الجبال والمرتفعات، إلى جانب الإلمام بالتراث الإغريقى العسكرى الذى كان يقوم على الفيلق الإغريقى، وأعادوا تقسيم الفرقة الرومانية كى تحارب فى ثلاثة صفوف بثلاث طرق وأسلحة

([1]) الناصرى 1982،ص ص80-82 .

([2]) فاروق القاضى (1997)،ص 74.

مختلفة، كذلك كان لابد أن يتطور الفكر العسكرى بوضع إستراتيجية معينة تهدف إلى محاصرة السامنيين فى الجبال وتمزيق قواتهم والسيطرة على الممرات الرئيسة، وذلك بإقامة القلاع، وكان من أقوى إجراءاتهم أثراً حرمان السامنيين من مراعيهم الشتوية بالاستيلاء على السهول[1]. وخلال هذه الحرب أيضا زاد الرومان عدد المشاة فى الجيش، فأصبحوا يؤلفون أربع فرق تعداد كل منها 4200 مقاتل، وفرضوا على المدن الحليفة الإسهام بعدد مماثل من المقاتلين، وبالتالى زادت قوة الجيش[2].

- الحرب مع بيرهوس ومواجهة الفيالق الإغريقية: كان الجيش الرومانى يقاتل فى تشكيل الفرق الثقيلة، كما أن الجنود الرومان لم يحاربوا متلاصقين مثلما فعل جنود الفيالق، بل جاء بيرهوس إلى إيطاليا بجيش من المرتزقة الإغريق يضم 20,000 جندى، وهم أقدر المحترفين على القتال فى زمانهم، وعشرين من الفيلة التى لم يكن للرومان عهد بها من قبل، وكان جيشه منظما على نسق الفيالق الإغريقية ذائعة الصيت[3].

وإذا ما راجعنا قوة هذا الجيش الرومانى فى ضوء الأحوال السائدة فى إيطاليا خلال القرن الرابع ندرك أنه كان أقواها، إلى جانب كونه اكتسب العديد من المهارات والفنون، وليس أدل على هذا من مواجهة حماس وشراسة الغال، وكذلك تكتيكات السامنين القوية المحكمة، ناهيك عما كان يتمتع به بيرهوس من خبرة واحتراف جنوده وفيالقه الإغريقية. وقد نجح الجيش الرومانى فى الانتصار والتفوق عليهم جميعاً ، إذ أن الجيش الرومانى كان دائماً وتحت أى ظرف مشتبك فى قتال فى أى مكان حتى لو كان هذا القتال من نوع المناوشات الحدودية، فهل طبيعته تدل على أنه كان جيش حرب؟

([1]) ددلى(1979)؛ ددلى 1983، ص40.
([2]) إبراهيم نصحى(1983)، ص ص 127-128.
([3]) ددلى(1979)، ص41 ؛ الناصرى 1982، ص126 .

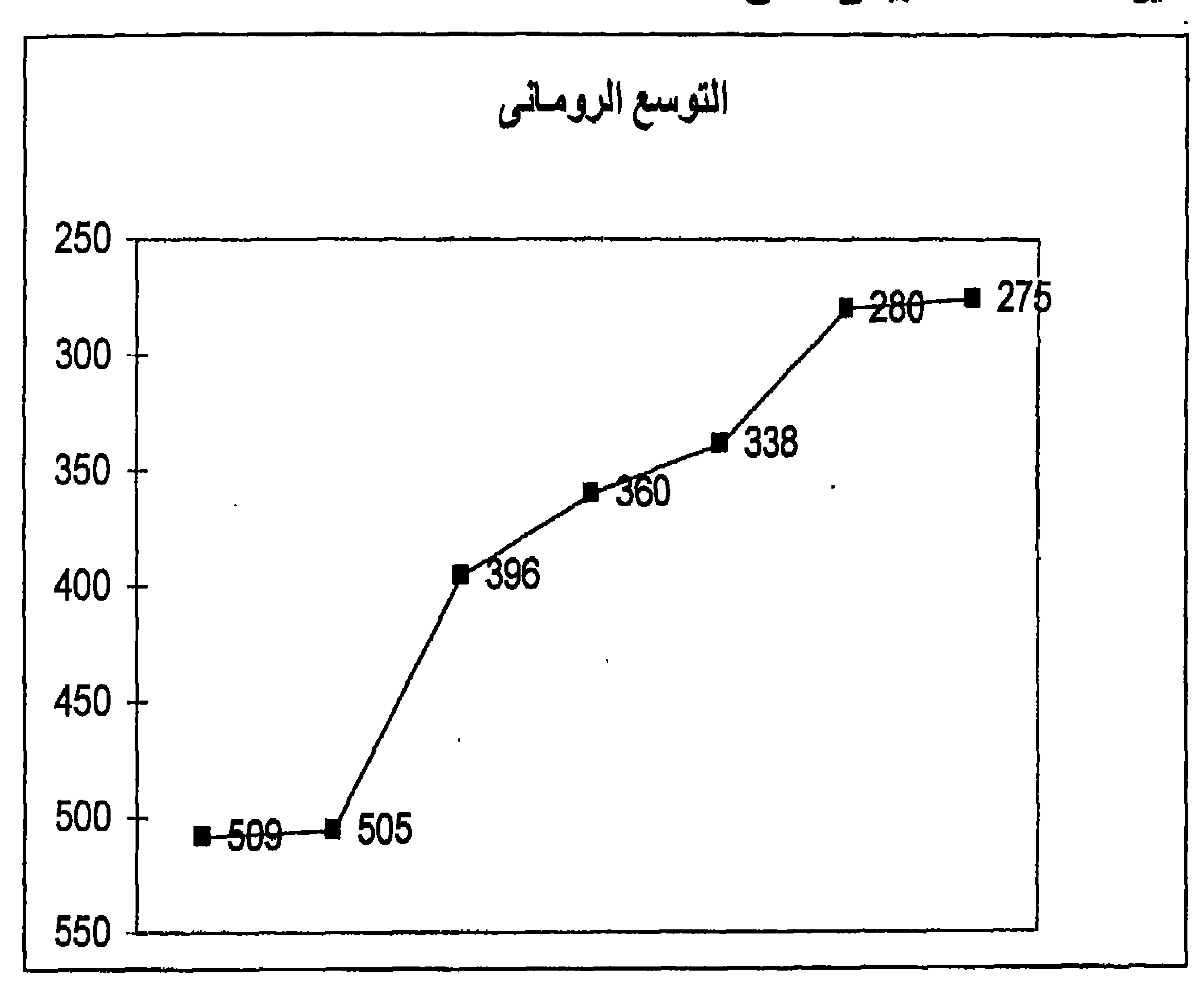
بادىء ذى بدء نقرر أن جيش الحرب عبارة عن قوة متحركة يتم تجنيد أفرادها من أجل رد اعتداءات معينة، وربما يكون أفراد هذه القوة ممن ليست لديهم خبرة أو على قدر ضئيل منها، وجزء منهم –أو غالبيتهم– يتم تسريحه بعد انتهاء هذه الظروف الطارئة.

واستناداً إلى هذا التعريف، وإلى ما سبق أن أوردناه عن الجيش الرومانى نقول إن جيش الجمهورية الرومانية كان جيش حرب، وهنا نجد نوعا من التناقض الظاهرى، إذ أن روما كانت فى حرب مستمرة، ومع ذلك فإن الجيش كان يتكون من مجندين كانوا يسرحون عندما تنتهى الأزمة، لكن بداية من عام 176 ق.م بدأت روما تترك فرقا عسكرية لها فى إسبانيا، ولسنا بحاجة للتأكيد على أن معظم الفرق العسكرية التى تم تكوينها خلال الحروب الأهلية تم تسريحها مع انتهاء هذه الحروب لزوال سبب وجودها، وبالتالى فقدت مبرر استمرارها[1]، إذ أن الدولة الرومانية الناشئة تعرضت لعدد من المحن والاختبارات أوجبت عليها اتخاذ خطوات من أجل زيادة الجيش كماً(عدد المحاربين) وكيفاً (الكفاءة القتالية والمهارات التكتيكية). ونخلص من هذا إلى أن زيادة عدد الجنود باطراد، وإدخال تطويرات مستمرة على الجيش زادت من قدراته الهجومية والدفاعية، وبالتالى فهو جيش حرب.

يوحى توسع الرومان فى شبه الجزيرة بالتدريج حتى أتموا بسط سيادتهم عليها بأن ذلك كان ثمرة سياسة ثابتة مرسومة قام على تنفيذها جيل بعد آخر من ساسة الرومان، لكن استعراض الأحداث ينفى هذا، وهو ما دعا كثيراً من المؤرخين إلى نفى وجود أى فكر استعمارى لدى الرومان، وأن جميع الحروب التى خاضتها روما كانت فى موقف الدفاع الصرف، بعبارة أخرى كان الرومان

([1]) Brian Dobson (1993); The Roman Army: peace time or wartime army? pp 113-128 in Breeze &Dobson; Roman Officiers and the frontiers, Stuttgart, pp 113ff.

فى حالة رد الفعل وليس الفعل، وروجوا لفكرة أن كثيراً من الحروب التى خاض الرومان غمارها كانت حروباً دفاعية فى المقام الأول، وإذا كانت هذه الحروب قد أفضت إلى اتساع رقعة إقليمهم، أو اتساع نطاق نفوذهم فإن ذلك لم يكن هدفاً فى حد ذاته. ولعلنا نتفق معهم فى أن هذه الفكرة تنطبق بوجه خاص على حروبهم السابقة على غزوة الغال فى عام 387 ق.م، لكن بعد هذا التاريخ تنامى نفوذ الرومان وتطور فكرهم العسكرى إلى الدفاع من أجل التوسع[1]، وهو ما يوضحه الشكل البيانى التالى.



(1) إبراهيم نصحى (1983)،ص ص 147 -148.

طور التوسع

التوسع الروماني في المياة القرطاجية

جماعة الفيتاليس

ليس ممكنا أن نتناول الفكر العسكرى الرومانى خلال طور التوسع دون المرور بآلية اتخاذ القرار – ونعنى به قرار الحرب بالطبع – داخل السناتو الرومانى، وهذه الآلية هى جماعة الفيتاليس Fetials[1] ؛ وهى عبارة عن جهاز مكون من 20 كاهناً كانوا يُختارون من الأسر النبيلة، ويخدمون مدى الحياة. وكان شأنهم شأن كل الكهنة أن يقدموا النصيحة فقط، وليس لهم أن يتخذوا قراراً، فهم عبارة عن هيئة كهنوتية شبه سياسية مهمتها الإشراف على المراسم الخاصة بإعلان الحرب رسميا عندما يرفض العدو تعويض الضرر أو لتصديق على المعاهدات بعد عقدها، كما كانت تشكل ما يشبه المحكمة العاجلة للنظر فى المسائل والمنازعات الدولية، وتسليم اللاجئين السياسيين[2]، ويعزى إنشاء هذه الجماعة إلى أحد ملوك روما مثل نوما أو انكوس ماركوس أو توليوس هوستيليوس، ويدعم هذا الرأى أنه عند إتمام بنود اية معاهدة كان يتم ذبح خنزير بسكين من الصوان[3].

ولقد ارتبط أداء هذه الجماعة الكهنوتية بمجموعة من الصيغ والعبارات التى كانت تُتلى فى كل مناسبة، وهذه العبارات صيغت بشكل يربط ما بين الدين والسياسة بما يؤكد على حق ومشروعية أى إجراء تتخذه روما، وتُظهر

([1]) إن كلمة Fetials مشتقة من الفعل fari بمعنى يتحدث او يتفاوض. و كان اوكتافيانوس عضو هذه الجماعة عام 32 وبهذه الصفة اشهر الحرب على كليوباترا عدوة الشعب الرومانى.
Res Gestae 7: Pontifex maximus, augur, XV virum sacris faciundis, VII virum epulonum, frater arvalis, sodalis Titius, fetialis fui; Frank(1929),p12,no 20.
عبد اللطيف أحمد على(1974)،ص 205.. وجرياً على مبادئ هؤلاء الفيتاليس ذكر انه لم يشن حربا ضد اى من الشعوب دون وجه حق Res Gestae 26: nulli genti bello per iniuriam inlato بعبارة أخرى كانت حروبه عادله.

([2]) Cicero,De Legibus II,9,22; Oxf.Class.Dic.,sv. *fetials*; Lewis & Reinhold (1990), p501;Frank 1929, p8.

([3]) Frank (1929), p9.

هذه الصيغ أيضاً أن روما كانت دائماً فى موقع المدافع وليس العكس، وتعليل ذلك هو أن القانون- فى تلك الفترة الباكرة من تاريخ الرومان- كان وثيق الصلة بالدين، وكان التصديق على مبدئيات القانون الدولى ذا شكل دينى تجرى فيه مراسم خاصة القصد منها إقناع الشعب واسترضاء وجدانه وضميره. ومن أمثلة هذه العبارات ما يلى[1]:-

- عند إعلان الحرب

قبل إعلان الحرب كانت هيئة الفيتاليس- وهى جماعة من الخبراء- مطالبة بإجراء التحريات اللازمة لتقرير مدى إمكانية إخضاع النزاع للحل السلمى دون اللجوء للسلاح، وبناءً على ذلك كان الفيتاليس يرفعون تقريرهم إلى السناتو بما وجدوه، وكيما تكون الحرب عادلة كان لابد من وجود سبب عادل، وكان إعلان الحرب يتم وفقاً لطقوس معينة، وكان مبعوث روما يستخدم فى طلبه الصيغة التالية مخاطبا الإله جوبيتر: (إذا طلبت أن يستسلم هؤلاء الرجال لى، وكان مطلبى منافياً للدين وللعدالة إذاً فلا تدعنى أنعم بالعودة إلى وطنى ثانية)[2]. وفى حالة تقاعس المعتدى عن تقديم التعويض الملائم يُمهل ثلاثين(أو ثلاثة وثلاثين) يوماً وبعدها يتولى مبعوث الفيتاليس إعلان الحرب حيث لم يبق إلا استخدام القوة ضده، وكانت الصيغة المستخدمة عندئذ هى: (فلتسمح لى يا جوبيتر وأنت يا يانوس كويرنيوس، وأنتِ يا آلهة السماء جميعاً، وياآلهة العالم السفلى، إنى أشهدك على أن هذا الشعب (وهنا يذكر اسمه) غير عادل، وأنه لا يقدم تعويضاً عادلاً، لكننا نستشير كبار السن منا فى وطننا بشأن

([1]) فاروق القاضى (1965) ص 115؛ لزم علينا التنويه إلى أن كل النصوص المترجمة إلى العربية الخاصة بجماعة الفتيال نقلا عن نفس المرجع، ص ص 115 وما بعدها.

([2]) Livy I,32.7: Si ego iniuste impieque illos homines illasque res dedier mihi exposco, tum patriae compotem me nunquam siris esse.

هذه الأمور لنرى السبيل إلى استخلاص حقنا)[1]. وعلى الجانب الآخر فى حالة شكوى أى من حلفاء روما من ضرر وقع بهم من جانب الرومان كان هـؤلاء الفيتاليس يتحرون الأمر بدقة، وفى حالة تأكدهم من صحة الـشكوى يقبـضون على المتسبب فيها ويرسلونه إلى الطرف الآخر المتضرر[2].

- عند عقد المعاهدات

كانت هذه الجماعة تتولى أيضاً عقد المعاهدات فى أعقاب انتهاء الحرب، وكان أحد أفرادها يتولى تلاوة صيغة القسم التالية: (فإذا خرق الرومـان هـذا الصلح) مع سبق النية للشر عندهم، إذاً فلتنزل ضربتك يـا جـوبيتر بالـشعب الرومانى مثلما أضرب أنا الآن هذا(القربان)، ولتكن ضربتك له أعظـم(مـن ضربتى) مثلما أنت أعظم فى قوتك[3]. وعند إتمام بنود المعاهدة يرسل اثنان من الفيتاليس إلى الطرف الموقعة معه المعاهدة، ويتلوانها بصوت عال، ويعلنان أن اللعنة تقع على روما إذا كانت هى البادئة بعدم تنفيذ بنودها، وتتم الطقوس بذبح خنزير بسكين من الصوان[4]، كان عليهم أيضاً أن يراعوا أن هذه المعاهدات تتم وفقاً للتقاليد الدينية، وإذا ما اكتشفوا أنها تمت خلافاً لما نصت عليـه الطقـوس الدينية فإن عليهم أن يعيدوا الأمور إلى نصابها الصحيح[5].

إن دراسة جماعة الفيتاليس والطقوس التى كان أفرادها يتبعونها تكـشف عن عدد من الملاحظات على قدر كبير من الأهمية:-

(1) Livy I.32.7: Audi, Iuppiter, et tu, Iane Quirine, dique omnes caelestes, vosque terrestres vosque inferni, audite; ego vos testor populum illum"—quicumque est, nominat—"iniustum esse neque ius persoluere; sed de istis rebus in patria maiores natu consulemus, quo pacto ius nostrum adipiscamur.

(2) Dion Hall. Roman Antiq II,LXXII,4. Lewis& Reinhold (1990), p144.

(3) Livy I.24.8-9: si prior defexit publico consilio dolo malo, tum tu ille Diespiter populum Romanum sic ferito ut ego hunc porcum hic hodie feriam; tantoque magis ferito quanto magis potes pollesque.

(4) Frank (1929), p9.

(5) Dion Hall.Roman Anti II,LXXII,5. Lewis & Reinhold (1990), p144 f.

1. تكشف لنا هذه الجماعة عن روح قانون الحرب Ius belli لروما فى نشأتها الباكرة. وتوحى الطقوس التى كان يؤديها أفرادها بتكريس حالة من السلم فى العلاقات الدولية بين روما وجيرانها حيث إن الرومان لم يكونوا أبداً فى حالة هجوم ، وإنما كانوا فى حالة دفاع؛ فروما لم تكن أبداً هى البادئة بالعدوان؛ لأنه لم يكن هناك مبرر لاشتباك الرومان فى حرب إلا أن تكون هذه الحرب رداً على عمل جائر كخرق معاهدة أو غزو مباشر أو مساعدة عدو. لقد كانت روما فى موقف دفاعى صرف، وخاضت حروبها دفاعاً عن نفسها أو عن حلفائها، وهذا ما ورد بشكل أو بآخر عند بعض المفكرين الرومان مثل شيشرون حين قال:-

- إن الدولة العظيمة لا تخوض حرباً أبداً إلا من أجل الدفاع عن شرفها وسلامتها)[1].
- وفى موضع ثانٍ يقول: (إن الحروب التى تُخاض دون استثارة هى حروب جائرة لأن حربا تخاض من أجل الانتقام أو الدفاع هى وحدها الحرب العادلة)[2].
- إن الشعب الرومانى بحمايته حلفاءه قد أحرز سيادة على العالم كله[3].
- وفى موضع آخر يرى أن أى نزاع قابل للحل بإحدى طريقتين؛ أولاهما الحوار -وهذه طريقة الرجال- وثانيتهما اللجوء للقوة، وهذه وسيلة غير آدمية، لكننا نلجأ إليها فى حالة عدم جدوى الحوار، ويكون العذر الوحيد هنا عدم استطاعتنا العيش فى سلام[4].

---

(1) De Rep. III, 23, 35: Nullum bellum suscipi a civitate optima nisi aut pro salute.
(2) De Rep. III, 23,35: illa iniusta bella sunt,quae sunt sine causa suscepto, nam extra ulcescendi aut propulsandorum hostium causam bellum geri iustum nullum potest.
(3) Cicero III, 23, 35: Noster autem populus sociis defendendis terram iam omnium potitus est.
(4) Cicero, Duties I ,9.35. Liwis&Reinhold (1990), p 499

• ويفرق ليفيوس[1] ما بين الحرب العادلة Iusta ac pia bella المشروعة وبين ما عداها من حروب. وقد انتقلت نفس الفكرة إلى كثير من المؤرخين الذين ساقوا التبريرات على أن روما كانت دائما في موقف الدفاع وليس الهجوم، وروجوا لفكرة مؤداها أن " التوسع الروماني في إيطاليا قد فرض على روما فرضاً، لأن روما سيقت إلى فتح إيطاليا حماية لنفسها ولحلفائها، أو بعبارة أخرى كان الغرض الدفاعي وراء كل أعمال الفتح الروماني في شبه الجزيرة[2].

2. ليست هناك فقرة أو بند في صيغ الفيتاليس توحي بإضمار الرومان للشر أو العدوان أو شيء من قبيل المجد القومي – وهي الفكرة التي نادى بها المشرع الآثيني سولون(توفي 558 ق.م) – أو فكرة التفوق العنصري التي تشبع بها الفلاسفة الإغريق وعلى رأسهم أرسطو.

3. إن وجود هذه الجماعة يؤكد على سنة السلف mos maiorum التي كانت تعتبر أن العدوان أو الرغبة في اكتساب الأراضي مسوغ غير كافٍ لشن الحرب، وبالتالي كانت دعامة قانون الحرب الروماني الذي ارتكزت عليه جماعة الفيتاليس هي أن حروب روما دائماً كانت حروباً عادلة bellum iustum.

4. رعاية جوبتر للقسم المقدس لهذه الجماعة، لأنه كان أيضاً هو الإله الحامي للقبائل المجاورة للاتيوم، وهذا يعكس بلا شك المراعاة الكاملة من الطرفين للشروط الواردة بعد القسم[3].

تؤكد كل الشواهد والملاحظات الخاصة بجماعة الفيتاليس وقانون الحرب الروماني أن الرومان كانوا دائماً في موقف الدفاع، وأن كل هذا التوسع كان

(1) Livy XLII,47

(2) القاضي (1965) ص ص 115-117.

(3) Frank (1929). p9

رد فعل وليس فعلا، وقد أكد على هذا أيضاً الكثير مـــن الفلاســـفة والمفكـــرين الرومان، وحتى المؤرخين المحدثين. ولاشك في أن هذا أمرٌ منطقى للغايـــة، ولاغرابة فى ذلك لأننا ببساطة شديدة نفتقد وجهة النظر المضادة، فلم نسمع عن أخبار هذا التوسع إلا من خلال الكتاب والمؤرخين الرومان، أو ممـــن تـــشبعوا بالثقافة والحضارة الرومانية، وليس من أحد سواهم، فليس هناك أى كاتب آخر أو مؤرخ -من غير الرومان- من الشعوب أو القبائل التى غزتها روما وهزمتها حدثنا عن هذه المعارك والفتوحات الرومانية.

كانت هزيمة بيرهوس نقطة تحول فى التاريخ الرومانى بعد أن نجحت روما فى هزيمة عدو خارجى، الأمر الذى اقتضى تجهيز جيوش روما بما يتناسب مع حجم وقوة هذا العدو. ويذكر بلوطرخوس أن بيرهوس حال عودته من صقلية إلى إبيروس علق قائلاً : "يالها -يقصد صقلية- من ميدان قتال مدهش نتركه للقرطاجيين والرومان."، وقد صدق حدس بيرهوس للمرة الثانية حيث كانت صقلية هى بؤرة الصراع والنزاع بين قرطاجة وروما، إذ كانت صقلية مقسمة بين كلٍ من قرطاجة وهيرون الثانى طاغية سيراكوزة، حيث سيطرت قرطاجة على نصف الجزيرة، وكانت ترغب فى عدم ازدياد نفوذ هيرون الثانى. ومن جهة ثانية كانت لدى هيرون رغبة قوية فى التخلص من المامرتينى Mamertini؛ وهم جماعة من المرتزقة الإيطاليين الذين أطلقوا على أنفسهم أبناء الإله مارس. أما روما فقد كان وجودها فى منطقة ريجيوم على الساحل الجنوبى لإيطاليا المواجه لصقلية -أى على بعد أقل من ميلين من مدينة ميسانا Messana الصقلبية- سبباً مباشراً فى تورطها فى المنطقة مثل قرطاجة وسيراكوزة، ولم يكن هناك ما يمنعها من إقامة أية معاهدات أو أحلاف فى صقلية[1].

من جهة ثانية كانت روما (بعد الاتحاد الإيطالى) مطالبة بتأمين دولتها بحرياً، وتأمين مجالها الحيوى بشكل جيد من خلال السيطرة على البحار لاسيما أن الأوضاع فى البحر التيرانى وقتئذ لم تكن فى صالح روما بعد أن استولت

([1]) ومصداقاً لهذا فقد ذكر كاسيوس ديون ان روما عقدت إتفاقية صداقة مع هيرون و ذلك رداً على مساعدة قرطاجة لتارنتوم.. Dio Cass., XI. 43,1، Frank (1929), p88-89.

قرطاجة على جزيرتى كورسيكا وسردينيا، وبالتالى أصبحت هناك شبه سلسلة قرطاجية مضروبة على سواحل إيطاليا الجنوبية والغربية، لذلك كانت روما ملزمة بكسر هذه السلسلة إذا كانت تبغى الملاحة بحرية فى عرض البحار. وكان هذا الهدف هو أول تحد فرضه قيام الدولة الايطالية المتحدة على روما، وبالتالى أصبح من أولويات العمل فى الفكر العسكرى الرومانى مواجهة هذا التحدى بنفس الروح المعروفة عنه، وقد ساهمت أيضاً فى تكريس هذا الواجب ظروف وتكوين إيطاليا الجغرافية من حيث توجهها نحو الغرب[1].

من هنا كان الصراع المحتوم لابد أن ينشب، لأن المعركة الآن أصبحت على السيادة على الحوض الغربى للبحر المتوسط بين أمتين؛ إحداهما أمة عجوز، صعبة المراس، مكنتها أساطيلها من أن تتحكم فى منطقة أعطتها السيطرة على غرب البحر المتوسط، ومن ثم فإنها استحقت لقب ملكة البحار Regina marium، فى حين أن القوة الأخرى أمة جديدة متدفقة بالحياة والحركة ذات تصميم على النصر وليس دونه، ومتفائلة بما حققته من انتصارات داخل إيطاليا. ولديها تصميم أكيد على أن تبنى إمبراطورية بلا حدود، وتتوسع بلا حدود لأن هذا قدرها، كذلك كان لديها إيمان لا يتزعزع بآلهتها التى تحميها وترعاها[2].

لكن ماهو سبب الحرب؟ لقد كان سبب الحرب تافه للغاية، ولم يكن ليؤدى إلى الحرب لولا أن ظروف الصراع كانت كامنة بين القوتين الكبريين، وكانت بحاجة إلى حادث عارض يفجر النزاع حتى لو لم تكن إحداهما طرف فى هذا الحادث، وذلك على الرغم من وجود عدد من الاتفاقيات والمعاهدات بين الجانبين[3]. وتلخص هذا الحادث العارض- الذى كان مسرحه صقلية- فى قيام

([1]) فاروق القاضى (1997)، ص 125.

([2]) Boak &Sinnigen (1965), p104.
([3]) Poly III,21-4.

جماعة من المغامرين الإيطاليين- المامرتينى- بالاستيلاء على مدينة ميسانا الإغريقية الواقعة شمال شرق الجزيرة، ولا يفصلها عن إيطاليا سوى ميلين كما ذكرنا. عندئذ هاجمهم هيرون طاغية سيراكوزة وحاصر ميسانا، هنالك استنجد المامرتينى بكلٍ من روما وقرطاجة فى آن واحد، وقد سارعت قرطاجة لنجدتهم، وأرسلت جيشاً لمواجهة هيرون.

أما عن موقف روما، فقد كان هذا الأمر مثار جدل كبير داخلها لأن تلبية نداء المامرتينى سيقود روما بلا شك إلى الصدام مع قوة كبيرة فى حجم قرطاجة،ومع تسليمنا بهذه الحقيقة نعتقد أن تدخل روما كان له هدف استراتيجى على قدر كبير من الأهمية، لأن الحفاظ على سلامة وأمن جنوب إيطاليا كان هدفاً من الأهمية بمكان، لأن تدخل قرطاجة فى ميسانا سوف يمنحها فرصة التواجد العسكرى فيها بعد طرد قوات هيرون، وبالتالى تكون على بعد مسافة يسيرة من إيطاليا، وهذا بلا شك سيعرض جنوب إيطاليا للخطر. من هنا نرى أن روما كانت أبعد نظراً فهاهى الفرصة تواتيها لكى تتدخل وتفرض نفوذها ووجودها، إلا أن الأعضاء المحافظين فى السناتو أدركوا أن مثل هذه الحرب قد تكون فرصة طيبة للقادة الجدد من الشعبين لاكتساب المزيد من الامتيازات على حسابهم، ونتيجة لهذا سيفقدون السيطرة على الأمور داخل روما بعدما ظهر عدد من هؤلاء القادة الطموحين الذين تولوا القنصلية، والذين نجحوا فى إلهاب حماس الشعبين عن طريق خطبهم الحماسية، والتى من خلالها يمكن أن يدفعوا السناتو ويورطوا الدولة فى الحرب. وبناءً على ذلك كان رفض السناتو تلبية طلب المامرتينى مسوغاً لنقل الطلب إلى الجمعية الشعبية التى اتخذت القرار بالموافقة على تلبية نداء المامرتينى.

وقد تم إسناد القيادة إلى القنصل أبيوس كلاوديوس كاودكس Appius Claudius Caudex الذى أعلن من جانبه الحرب على قرطاجة كما قال كلُ

من إنيوس وليفيوس[1]. والواضح أن عبارتى كلٍ من إنيوس وليفيوس لا تخلوان من الغمز كون إبيوس كلوديوس هذا هو صاحب تلك الخطب الحماسية التى ألهبت الحماس، وحملت السناتو على الدخول فى الحرب.

وبالفعل وصل الجيش الرومانى إلى ميسانا، وطرد القوات القرطاجية منها، وكان هذا الحدث بمثابة بداية لصراع مرير استمر حتى عام 146 قبل الميلاد، واستغرق ثلاثة أشواط.

وقد جرى الشوط الأول فيما بين 264 إلى 241 ق.م- وعرف بالحرب البونية الأولى- وكانت صقلية الميدان الرئيسى له، وقد انتهى عام 242 ق.م بهزيمة القائد القرطاجى هاميلكار باركا (والد هانيبال) عند جزيرة إيجاتيس Aegates فى الطرف الغربى لجزيرة صقلية، وعلى أثر هذه الهزيمة استسلم هذا القائد، وطلب الصلح مع الرومان. وبالطبع ويل للمهزوم من شروط المنتصر، فقد حرمت قرطاجة من ممتلكاتها فى صقلية التى خضعت لسيطرة الرومان، وردت كل أسرى الحرب الرومان، كما تعهدت بدفع غرامة مالية كبيرة للرومان قدرها 3200 تالنت (أى حوالى 4 ملايين دولار) على أقساط سنوية لمدة عشرين سنة[2]. وتكمن أهمية هذا الانتصار فى أنه مكن الرومان من بسط سيطرتهم الفعلية على صقلية[3]، وقد كان هذا إيذاناً بوضع قدم روما على طريق الاستعمار، لكن أهم ما فى هذه الحرب-وغيرها من الحروب التى خاضتها روما- هو مقدرة الرومان على التعلم من المحْن واستيعاب الدروس جيدا، فقد أدركوا أهمية امتلاك أسطول قوى يضارع أسطول قرطاجة، ونجحوا

---

[1] Ennius,Ed.Vah.223:*Appius indixit Karthaginiensibus bellum*.;Livy,XXXI,1: *App.Claudium consulem qui primum bellum Carthaginiensibus intulit* ;Oxf.Class.Dic., **Claudius Caudex, Appius;** Boak&Sinnigen 1965,p105; Frank; p 91ff.

([2]) Poly., Histories I.LXII.3-4; Flor. I,18.

([3]) و قد فرضت روما نفوذها على مدن صقلية و ادارتها بنفس نظامها السابق، بل إنها حافظت على نفس و ضعها القانونى السابق ايضاً Cicero, ad Varro,III.12-14

فى الاستفادة من البحارة الإغريق أبناء المستعمرات الإغريقية فى جنوب إيطاليا لبناء هذا الأسطول، وبالفعل بنوا أسطولاً قوياً نجح فى إلحاق هزيمة نكراء بالأسطول القرطاجى عند جزيرة إيجاتيس[1].

<u>نظريتا المجال الحيوى والبحر المغلق</u>

على الرغم من عدم وجود أية إشارات لاستياء كلٍ من روما أو قرطاجة من توسُّع كليهما قبل نشوب هذه الحرب، إلا أن طريقة وأسلوب قرطاجة كان مجال اعتراض من قِبل جيرانها، واتسم احتلالها بنزعة استغلالية وابتزازية لخدمة أهدافها التجارية فى المقام الأول، وذلك لحماية مناطق نفوذها، وقد تجلى هذا فى حرصها الشديد على أمرين؛ أولهما: إغلاق موانئ إمبراطوريتها فى وجه جميع التجار الأجانب، وثانيهما: مرور التجارة الخارجية بها حتى لو كانت المدن الفينيقية مصدرها[2].

وقد كان عدم ظهور أى بوادر للاستياء من جانب أى طرف له ما يبرره خلال مرحلة ما، وتحديداً قبل وصول النفوذ الرومانى إلى جنوب إيطاليا، إلا أنه بعد أن أصبحت روما على مرمى البصر من صقلية التى تعتبر من الناحية الجغرافية جزءاً مكملاً لإيطاليا، ويفصلها عنها خليج ميسانا الذى يبلغ عرضه ميلين فقط، فقد أصبحت روما بشكل أو بآخر معنية بأمر صقلية. ومن جهة أخرى فقد توسعت قرطاجة حتى احتلت شمال أفريقيا، وجنوب إسبانيا، والشطر الغربى لجزيرة صقلية، وجزيرتى كورسيكا وسردينيا، وبالتالى ضربت شبه شبكة حول إيطاليا فى الوقت التى كانت فيه روما معنية بشكل كبير بأمن وسلامة جنوب إيطاليا الذى كان عرضة لتعديات القرطاجيين[3]. من هنا نعتقد أن

([1]) سيد الناصرى.(1982)، ص 141.

([2]) إبراهيم نصحى(1983)، ص 246.

([3]) Frank (1929), pp90ff

الحرب البونية أبرزت نموذجين للفكر العسكرى فى مواجهة بعضهما البعض تمثلا فى نظرية المجال الحيوى - روما- فى مواجهة نظرية البحر المغلق- قرطاجة-.

وقد كان نجاح روما فى تكوين الدولة الإيطالية المتحدة فى الداخل إيذاناً بانطلاق نظرية جديدة ومفهوم جديد للعسكرية الرومانية، ونعنى به نظرية المجال الحيوى، وتفسير ذلك هو أنَّ الموقع الجغرافى جعل هناك تأثيراً وتأثراً ما بين إيطاليا وصقلية، فكانت كل واحدة منهما تتأثر بما يجرى فى الأخرى، وإن وصول روما إلى هذه النقطة وضع القوتين وجها لوجه، وبالتالى كان الصراع حتمياً لتضارب المصالح واختلاف التوجهات والنظريات.

على الجانب الآخر كانت أية نقطة تصلها الأساطيل القرطاجية تُعتبر بحراً مغلقاً لقرطاجة، وذلك بفضل قوة أسطولها ومهارة بحاريها، وطالما كانت روما داخل إيطاليا، أو بعيدة عن سواحل إيطاليا الجنوبية فلم يكن هناك ما يمنع إقامة معاهدات وتحالفات بين الجانبين[1]، أما وقد زالت كل الحواجز، وأخضعت روما كل إيطاليا، ووصلت بنفوذها حتى السواحل الجنوبية، وأشرفت على سواحل صقلية فى الوقت الذى ضربت فيه قرطاجة سلسلة على هذه السواحل، وشارفت الأساطيل القرطاجية على السواحل الجنوبية والغربية لإيطاليا، وكانت تجوب البحار بحرية دون أن يعكر صفوها أى أسطول بحرى آخر، وبالتالى كانت هناك مخاوف من جانب الرومان؛ لأن قرطاجة إذا ما استولت على ميسانا ففى هذه الحالة يستطيع أسطولها القوى سد المضيق الضيق الذى لا يتجاوز الميلين، والذى يصل روما بمستعمراتها فى البحر الأدرياتى، بل إن قرطاجة من الممكن أن تستخدم مدينة ريجيوم[2] بنفس الطريقة. وبناء على هذا أصبحت القوتان وجهاً

---

(1) Poly., III,22-26; Beaumont JRS 1939,pp74-86

(2) لعل هذا هو سبب طلب ريجيوم لحامية رومانية عام 282 ق.م، راجع: Poly. I,7.

لوجه، وكان الصدام حتمياً ولا مفر منه، لأن القوتين ذاتا قوة ونفوذ وتريدان أن تفرضا سيادتهما، فروما تعتبر أن الجزر المواجهه لإيطاليا - صقلية وسردينيا وكورسيكا- مكملة جغرافياً لها، وكذلك فإن أمن وسلامة إيطاليا مرهون بالسيطرة وبسط النفوذ الرومانى على هذه الجزر، لذلك كان تدخل الرومان فى صقلية أمراً لا مناص منه لوقف نظرية البحر المغلق التى كان يطبقها القرطاجيون أينما ذهبوا، وهى ضرورة استراتيجية أملتها طبيعة الموقع الجغرافى لإيطاليا بالنسبة لحوض البحر المتوسط الغربى التى اعتبرته مجالاً حيوياً لها، فى الوقت الذى اعتبرته قرطاجة بحراً مغلقاً بالنسبة لها، ولا يحق لأى سفن أجنبية أن تبحر فيه دون إذنها، لذلك كانت تغرق أى سفن تنتهك هذا الحظر[1].

وللتدليل على نظرية المجال الحيوى هذه أنه عندما حدث فراغ سياسى فى سردينيا - نتيجة ترك القوات القرطاجية للجزيرة- دلفت إليها القوات الرومانية واحتلتها. وقد بُرر احتلال روما لجزيرة سردينيا بأنها كانت تخشى عودة القوات القرطاجية إليها مرة أُخرى بعد أن تركتها فى وقت سابق، وكان هذا الانسحاب بمثابة إنهاء للدعاوى القرطاجية لاحتلال الجزيرة[2]. لكن سردينيا غرقت فى النزاعات المحلية، وكان حدوث هذه الاضطرابات تحت الحكم المحلى مدعاة لتفكير قرطاجة فىالعودة مرة أُخرى لغزو الجزيرة، لذلك احتلت روما الجزيرة وخلصتها من الحرب الأهلية. ويكشف احتلال سردينيا من قبل الرومان كيف اتسعت دائرة اهتمام روما بما حولها من أراضى الجيران وممتلكاتهم وذلك بفرضية أنها تقع ضمن مجالها الحيوى. وقد اعتبر بولبيوس احتلال روما

(1) و قد كانت قرطاجة تغرق اى سفن أجنبية تبحر فى مياها المغلقة mare clausum أنظر:
Frank (1929),pp 90-91.
(2) Poly I, 79,1-3.

للجزيرة عملاً غير مُبرر وغير مقبول لأنه عمل طغيانى لا يخضع للمبادىء[1].

وكانت شروط الصلح التى فرضها الرومان على القرطاجيين قاسية ومجحفة لدرجة أن القائد هاميلكار باركا اصطحب ابنه ذا التسعة أعوام إلى إحدى المذابح المقدسة(محراب الرب بعل مولوخ) وأقسم على كراهية الرومان، وأخذ عهداً عليه بأن يمقت الرومان حتى الموت، وأن يقاتلهم حتى آخر رمق[2]. وقد حاول الرومان تكريس هذا المعنى حيث حاول فرجيل -من خلال الإنيادة- تأصيل هذا الكره والمقت القرطاجى غير المبرر من خلال قصة ديدو -الملكة القرطاجية- وآينياس الذى هجرها وهجر مملكتها ولم يركن إليها، لأنه كان يدرك المصير الذى ينتظره بعد أن أرسل إليه الإله جوبيتر مبعوثا ليذكره بواجبه الذى كان عليه أن يؤديه، ورسالته التى كان يجب أن يتمها وهى بلوغ إيطاليا حيث كُتب له فى لوح القدر أن يؤسس دولة جديدة[3]. وعلى هذا الأساس أورثت ديدو حنقها وكرهها للرومان للأجيال التالية من القرطاجيين. وما من شك فى أن الرومان -من خلال هذا الطرح - يحاولون نفى اتهام تدخلهم فى صقلية، وهو الذى أدى إلى حربهم مع قرطاجة، ويصورون القرطاجيين على أنهم البادئون بالعدوان بسبب هذا الكُره غير المبرر لآينياس وسلالته للرومان.

أيّا ما كان الأمر؛ فإنه بعد الحرب الأولى لم يكن فى وسع قرطاجة إلا أن تسلم بالشروط التى فرضتها عليها روما عام 238 ق.م فيما عرف بصلح كاتولس بعد أن هُزمت، فتركت ممتلكاتها طواعية لروما، وهى متعطشة للثأر، وكان وجود القائد هاميلكار باركا فى إسبانيا ليرسم خطة الثأر هذه. وقد بلغت شدة حنق هذا القائد العظيم على روما أنه أجبر ابنه ذا التسعة أعوام- كما ذكرنا- على أن يقسم على كراهية الرومان، وبالتالى غرس فى صدر هذا

---

(1) Poly I, 79,1-3 & III.28;Frank 113,ff.
(2) Livy XXI..5-7; also see Dio Cassius VIII,21-22.
(3) Aeneid IV,249-298.

الصبى كره وعداوة الرومان منذ نعومة أظافره. ولهذا السبب حمّل بعض المؤرخين سبب اندلاع الحرب الثانية لهانيبال متجاهلين استفزاز الرومان له وجره إلى هذه الحرب عن طريق مخلب القط الرومانى أعنى مدينة ساجنتوم الإسبانية. والحق أن بولبيوس يعتبر ظهور القائد هاميلكار باركا سبب الحرب الثانية مع أنه مات قبل أن تبدأ، ذلك لأنه نقل ميدان المعركة إلى إسبانيا ليتخذها كقاعدة لشن الحرب ضد إيطاليا[1]، ويرسم فيها خطة الثأر من روما، وقد تمكن خليفتاه هاسدروبال ثم هانيبال من بسط النفوذ القرطاجى على ثلثى الجزيرة الأيبيرية، لذلك سعت روما لوقف هذا التوسع، وأبرمت اتفاقية مع قرطاجة فى عام 226 ق.م حددت نهر الأيبر Ebro حدا نهائيا للنفوذ القرطاجى، ويذكر أن هذه المعاهدة أطلقت يد قرطاجة فى جنوب هذا النهر، وقد نجحت قرطاجة – بمقتضى هذه الاتفاقية –فى تحويل جنوب إسبانيا إلى جزء من الإمبراطورية القرطاجية خصوصاً بعد تأسيس إسبانيا الجديدة[2]. ويعتقد البعض أن الرومان كانت لديهم النية لجر القرطاجيين للحرب، وذلك لأنهم أغفلوا ذكر ساجنتوم فى هذه الاتفاقية حتى تكون الذريعة التى يتدخلون بها فى إسبانيا[3].

من جهة ثانية واجهت روما متاعب من خطر القراصنة فى البحر الأدرياتى، لذلك اتخذت بعض الإجراءات لمواجهة هذا الخطر بعدما وجدت مساعدة صادقة ومخلصة من الإغريق، فأنشأت قاعدة خاصة بها فى إبيروس، وجعلتها على اتصال دبلوماسى وثيق بمقدونيا وبلاد اليونان لمواجهة خطر القراصنة الأليريين، ومن هنا بدأت علاقات حميمة بين الرومان والإغريق

(1) سيد الناصرى (1982)،ص 142.

(2) يعتقد بولبيوس (Poly II,13.7) أن هذه المعاهدة لم تحدد الوضع فى أسبانيا، وعلى النقيض يذكر ليفيوس (Livy XXI,2.7) انها امنت صراحة إستقلال ساجنتوم.

(3) إبراهيم نصحى(1983)، ص 270.

خصوصاً عصبتى أيتوليا وآخايا ومدينتى كورنثة وأثينا. وقد ترتب على قيام هذه العلاقات إثارة سخط مقدونيا التى كانت تعتبر نفسها صاحبة حقوق ليس فقط على إغريق البلقان، بل على شبه جزيرة البلقان بوجه عام. و قد نجحت روما فى حماية مضيق أوترانتو الذى كان يعتبر الطريق الرئيسى للمواصلات بين إيطاليا وبلاد الإغريق[1].

وعلى الجبهة الشمالية عاد الغال يدقون نواقيس الخطر مرة أخرى بعدما يقرب من المائة عام من ترويع الرومان واحتلال روما ذاتها، وقد شجعهم هانيبال حين أقام معهم علاقات دبلوماسية عبر البرانس ، لذلك وجدت روما نفسها مضطرة لتجريد جيش جرار للقيام بعدة حملات ناجحة انتهت إلى اختزال أرض الغال إلى ولاية رومانية، إلى جانب زرع بعض المستعمرات مثل بلاكنتيا وكريمونا وموديناء والتى نشأت عنها مدن لمبارديا الحديثة، وقد كان توسع الرومان شمالاً لاعتبارات استرتيجية وضرورات ملحة تمثلت فى ضرورة أن يصل الرومان بحدودهم إلى حد طبيعى أعنى جبال الألب، وهو حد آمن بدرجة كبيرة[2].

لقد كانت مدينة ساجنتوم إحدى المدن الإسبانية القليلة التى تمتعت باستقلال ذاتى، وعندما هاجمها هانيبال استنجدت بروما، وكان هذا كفيلاً بإشعال نيران الحرب بين روما وقرطاجة مرة أُخرى. لقد كان الصراع كامناً وبحاجة ماسة إلى حدث، ولو لم يكن على قدر من الأهمية، وكان الصراع هذه المرة مروعاً للغاية وعلى قدر كبير من الأهمية للجانبين، تُرى ماهو مبعث هذه الأهمية ؟

بالنسبة لقرطاجة كانت متعطشة للثأر من الرومان، واسترداد ما سلبوه

---

(1) Flor.I,21.

(2) Flor.I,20; 265-263 ص ص (1983)، إبراهيم نصحى؛ 68-66 دبلى (1979)، ص ص.

منها من أراضٍ، وللتأكيد على أن ما حدث خلال الشوط الأول من الحرب ماهو إلا كبوة، وتستطيع قرطاجة بأساطيلها القوية التى تجوب البحار أن تؤكد على نظرية البحر المغلق على أساطيلها بالطبع، ولكى تثبت أن إمبراطوريتها لم تزل قوية فتية لم يتسرب إليها الضعف والوهن.

أما بالنسة لروما فقد كانت إمبراطورية ناشئة منطلقة استطاعت ابتلاع إيطاليا كلها، ثم ألحقت هزيمة قاسية بالقرطاجيين، وتريد أن تؤكد أن هزيمتهم وإملاء شروطها عليهم لم يكن حادثاً عارضاً، ولا يثبت ضعف ووهن قرطاجة بقدر ما يثبت قوة روما، كذلك ترغب فى تأكيد سيادتها على حوض البحر المتوسط الغربى الذى تعد قرطاجة أكبر قوة فيه.

وكان حصار هانيبال لمدينة ساجنتوم التى استنجدت بالرومان هو الحدث الذى حرك المياه الراكدة[1]، وكان هذا ما ينتظره الجانبان للعودة للقتال من جديد، فقد أرسل السناتو الرومانى سفيرا للاحتجاج على اجتياح هانيبال للمدينة، وطلب معاقبته.

وقد ركز ابيان على السلوك المتغطرس المستفز الذى اتبعه سفير روما حين فتح عباءته قائلا لهم إننى أحمل فى هذا الشق السلام وفى ذاك الحرب، فاختاروا ما تشاءون، فأجاب القرطاجيون أعطنا ماشئت فلن نعبأ، فقال سأعطيكم الحرب، فصاح الجميع فى تحدٍ وكبرياء ونحن قبلنا. وهكذا من خلال هذا المشهد الاستفزازى أعلنت روما الحرب على قرطاجة، وقبلت قرطاجة فى تحد وكبرياء[2].

وهكذا بدأت المرحلة الثانية من الحرب البونية والتى استمرت سبعة عشر

(1) حاول ليفيوس و أبيان Livy XXI,2,7& Appian.,the Spanish wars VI,7. تحميل هانيبال مسئولية الحرب بدعوى أنه نقض إتفاقية 226 بعبورة نهر الايبر و إحتلاله ساجنتوم، و هم لا يعلمون أن المدينة تقع على بعد مئات الأميال جنوب هذا النهر Frank (1929),p123

(2) Appian, The Spanish Wars, VI. 6-13; Kagan (1986), pp112-114.

عاماً(218-202 ق.م) وشهدت أشرس وأعنف قتال بين خصمين عنيدين يعلم كل منهما أن من ينتصر فى هذه الحرب ستكون له السيادة على الحوض الغربى للبحر المتوسط.

وكانت شخصية هانيبال هى الشخصية المحورية خلال هذه الحرب، فقد كان قائداً فذاً وأستاذاً فى فن الخطط الحربية، إذ استطاع أن يضع خطة ليس فقط ليطوق ممتلكات روما فى الجزر التى استولت عليها من قرطاجة، ولكن أيضاً لكى يقهر روما فى عقر دارها عن طريق دق أبواب روما من شمال إيطاليا. ومما لاشك فيه أن هذا الفكر كان على جانب كبير من المخاطرة والمجازفة المحسوبة من جانب قائد فى حجم هانيبال، حيث تلخصت خطته فى الزحف براً عبر جبال البرانس والألب، والانقضاض على شمال إيطاليا، وهناك سيجد المعاونة الصادقة من الغال الذين كانوا يكرهون الرومان، ويتحينون الفرصة للانتقام منهم، ثم يستمر فى زحفه حتى أبوليا فى الجنوب ليقطع خطوط المواصلات الرومانية، ويضم حلفاء روما الناقمين عليها والذين سوف يشجعهم انتصاره فى الشمال على الانتفاض لاسترداد استقلالهم، ومن أحد الموانئ الإغريقية(مثل ريجيوم أو لوكرى) سيتمكن من الاتصال بقرطاجة. وقد كانت هذه الخطة رائعة من الناحية النظرية، لأنها لو سارت بنفس الترتيب، ولو صحت توقعاته لقضى على روما قضاءً مبرماً، ولكن كانت هناك بعض الاعتبارات التى سقطت من حسابات هانيبال أولم يقدرها حق التقدير، ومنها:

- الخسائر التى قد يتكبدها من جراء عبور جبال البرانس ونهر الرون وجبال الألب من المال والعتاد والجنود والفيلة المدربة، ولن يستطيع تعويض كل هذا من الغال.
- اعتقاده أن الإيطاليين سوف ينضمون إليه لسحق روما لشدة كراهيتهم لها، لكنه فوجئ أن الإيطاليين لم يفتر ولاؤهم نحو روما التى رأوا فيها

الزعيمة الطبيعية لهم، وذلك بسبب نجاح روما فـــى صـــهر الإيطـــاليين وربطهم بها. من هذا المنطلق كان بقاء حلفاء روما على ولائهم لها العامل الحاسم فى إفشال خطة هانيبال.

- الخطة البارعة التى وُضعت لمواجهته ومحاصرته داخل إيطاليـــا والتـــى تسببت فى قطع الإمدادات عنه سواء من إسبانيا أو من قرطاجة، لذلك لم تصل إليه إلا إمدادات يسيرة بلغته بعد فوات الأوان، كما نجح الأســـطول الرومانى فى قطع الاتصال بينه وبين قرطاجة[1].
- قوة وصلابة الرومان فى الدفاع عن مدينتهم المحصنة إذ أن القضاء عليهم لا يتحقق إلا بالاستيلاء على روما ذاتها، وهنا مكمن خطورة المغامرة التى أقدم عليها هانيبال، لأن احتلال روما كان يتطلب معدات عسكرية معينة لم تكن متوفرة معه[2].

وعلى هذا بدأت المرحلة الثانية من الحرب البونية حين قاد هانيبال جيشه عبر البرانس، ثم جبال الألب فى جهد ومشقة إلى إيطاليا، ومـــع ذلـــك ألحـــق بالرومان هزيمة عند نهر تربيا Trebia عام 218 ق.م، وبذلك نجح فى إفقـــاد روما لسيطرتها على سهل البو، ثم عبر جبال الأبنين من ناحية الغـــرب حيـــث إقليم اتروريا، وهناك أباد جيشاً رومانياً عند بحيرة تراسيمينى Trasimene عام 217 ق.م. ولم تكن هذه مجرد معركة انتصر فيها هانيبال على الرومان، بـــل كانت مذبحة ترتب عليها أن أصبح الطريق مفتوحا إلى روما، وبـــدلا مـــن أن يواصل زحفه إلى روما نفسها سار موازيا للساحل الشرقى لإيطاليا حتى وصل إلى إقليم أبوليا الذى اتخذه كقاعدة له حتى نهاية الحرب. وقد أعمـــل هانيبـــال التخريب فى الحقول والمزروعات، وقتل القطعان، ونهب القرى، وكان هدفـــه

([1]) عبد اللطيف أحمد على (1988)، ص 200.

([2]) إبراهيم نصحى (1983)، ص ص 273-275 .

الأساسى هو فرض صلح مُهين على الرومان. وقد أزعجت هذه الأنباء السناتو الذى عُرف عنه رباطة الجأش والتماسك فى وقت المحنة، لأنه كان يتكون من رجال ذوى خبرة عركتهم الحياة، وعلمتهم عدم الاستسلام للهزيمة ولو للحظة واحدة، ولديهم من الخبرة ما يمكنهم من تجاوز هذه المحنة، وطرد هانيبال خارج إيطاليا. ومما لا شك فيه أن موقف الحلفاء من روما وعدم انحيازهم لهانيبال كان عاملاً مؤثراً خلال هذه المحنة. وقد كان على السناتو اتخاذ إجراءٍ سريعاً، وقد تمثل هذا الإجراء فى تعيين دكتاتور- حسبما يقضى القانون الرومانى وقت الأزمات-، ووقع الاختيار على أحد القواد العسكريين وهو كوينتوس فابيوس ماكسيموس Quintus Fabius Maximus الذى وضع خطة عسكرية فى غاية البراعة سارت فى اتجاهين؛ أولهما إنهاك قوى هانيبال واستنزافه قبل ملاقاته فى معركة مباشرة؛ أى استنزاف وتبديد مقدرات العدو وإرهاق جنوده ومعداته، وثانيهما عزل هانيبال داخل إيطاليا وذلك بقطع أية إمدادات محتملة قد تصل إليه من إسبانيا.

لقد قدم هذا الرجل خططا مفيدة للغاية للعسكرية الحديثة على الرغم من الفارق الزمنى، إذ كانت خطته التى رسمها لمواجهة هانيبال من أهم الأسباب التى عجلت بهزيمته، ولا تزال مجدية حتى مع هذا التقدم الهائل فى الوسائل والمعدات العسكرية، بل إن اللغة الإنجليزية لا تزال تحتفظ بتعبير Fabian tactics ومعناه التكتيكات الفبيوسية، وتطلق على الخطة العسكرية التى تتجنب الدخول فى معركة سريعة فاصلة، وترك العدو حتى يستنفذ الجانب الأكبر من طاقاته[1]. وقد هاجم الرومان هذه الخطة فى وقتها ووصفوا فابيوس بالمتباطىء Cunctator، ولم يدر فى مخيلتهم أن فابيوس هذا كان من أعظم العبقريات العسكرية الرومانية، وأن فلسفة التباطؤ العسكرى وبناء القوة العسكرية ليست

([1]) فاروق القاضى (1997)، ص 137.

فى الحقيقة إلا هجوماً مؤجلاً، ولا تقل أهمية عن فلسفة الهجوم والاكتساح. لقد أنقذت خطة فابيوس الجمهورية، أو كما قال الشاعر إنيوس Ennius إن فابيوس أنقذ الجمهورية بتباطئه[1].

والحق أن الرومان لم يدركوا قيمة هذا التكتيك العسكرى الباهر فى حينه لذلك تمت تنحية فابيوس، واختير بدلاً منه قنصلان لإكمال الحرب ضد هانيبال وهما إيميليوس باولوس Aemilius Paulus وجايوس تيرنتيوس فارو Caius Terentius Varro ، وقد نجح القنصلان فى تكوين جيش كبير قوامه ثمانون ألف رجل، وقد تحرك هذا الجيش لملاقاة جيش هانيبال فى إقليم أبوليا، وتحديداً قرب مدينة كناى Cannae عام 216 ق.م[2]، وقد كان هذا العدد الضخم للجيش الرومانى مدعاة لتملك الغرور من المشاة الرومان الذين ارتكبوا خطأً فادحاً عندما اندفعوا إلى قلب التشكيل القرطاجى بهدف إلحاق ضربة قاضية بالجيش القرطاجى، وإجبار القوات القرطاجية على الفرار تجاه نهر أوفيدوس Aufidus المحيط بمدينة كناى، وبالتالى يُحاصر الجيش القرطاجى ما بين البحر والقوات الرومانية. وقد كانت هذه الفكرة فى جوهرها فكرة تكتيكية جيدة إلا أن استجابة قائد الجيش المحاصر أفشلت هذه الفكرة برغم جودتها. لقد حول فكر هانيبال الخصب هذا الحصار إلى شرك للرومان حيث إنه طبق نفس التكتيك الذى استخدمه عند بحيرة تراسيمينى إذ راوغ الجيش الرومانى ودار حوله، عندئذ وجد الجيش الرومانى نفسه فى مصيدة، وهذا مؤشر خطير على عدم إفادة الرومان من حربهم السابقة مع هانيبال مما يعنى تشتت الفكر العسكرى الرومانى وإفلاسه وعجزه عن مواجهة هانيبال، وبالتالى لم يبلغ هذا الفكر مرحلة النضوج التكتيكي، ونتيجة لهذا دارت عند كناى واحدة من أعنف

([1]) Ennius IX, 307: Unus homo nobis cunctando restituit rem.
([2]) Eutrop., III,10.

المعارك التى عرفها التاريخ، وكانت مذبحة هائلة للرومان هلك فيها عدد كبيــر من رجال السناتو ونبلاء الرومان، فى حين لم تبلغ خسائر هانيبال خمسة آلاف رجل[1]، وكعادة الرومان مع كل محنة توهموا أن سلام الآلهة Pax deorum لم يعد قائماً، وأن الآلهة قد تخلت عنهم لذلك انتابهم هلع شديد، والحق أن هانيبال -بهزيمة كناى- ضاعف من أحزان الرومان، وأصبح الطريق مفتوحاً إلى روما، وقد أستأذنه أحد مساعديه فى التوجه إليها واعداً إياه بأن يجعلها تجثــو علــى ركبتيها، وأن يجعل هانيبال يشرب نخب النصر فيها بعد خمسة أيام فقط، لكــن هانيبال كقائد عسكرى كبير واسع الأفق رفض هذا، فصرخ هذا المــساعد فــى وجهه معبراً عن سخطه قائلاً (إنك تعرف ياهانيبال كيف تحرز نصراً، ولكنك لا تعرف كيف تستثمر مثل هذا النصر)[2]، فهل حقاً كان الفكر العسكرى لهانيبــال عاجزاً عن استثمار النصر الذى يحققه؟ يبدو للوهلة الأولى أن الأمر كذلك حيث إن هانيبال بعد معركة تراسيمينى لم يتجه مباشرة إلى روما، ولكنه اتجه شــرقاً باتجاه أبوليا، وهاهو الأمر يتكرر بعد كناى. إن تــصرف هانيبــال فــى كلتــا الحالتين يدعونا -للوهلة الأولى- إلى التسليم بكون هانيبــال محاربــاً ومقــاتلاً قديراً، إلا أنه يعجز فى كل مرة عن استثمار ما حقق مــن انتــصار. وعلــى النقيض يبدو أن هانيبال كان أكثر إدراكاً لجدوى انتصاراته حين رفض الــسير باتجاه روما فى الحالتين؛ لأنه كان يدرك عواقب مثل تلك المخاطرة وذلك بسبب وعورة الطريق إلى روما إلى جانب سيطرة حلفاء روما، -الذين ظلــوا علــى ولائهم لها فى ظل هذه المحنة القاسية- على جانبيه، وهذا يجعل رجاله صــيداً ثميناً للكمائن، كذلك كان هانيبال خبيراً بنفسية وعقليــة الرومــان لأنهــم لــن يستسلموا، ولن تتوقف مقاومتهم. وعلى هذا الأساس كان هانيبال محقاً فى عدم

---

(1) Livy XXV,12.5&22.44.& Poly,III,113.

(2) سيد الناصرى (1982)، ص 150 ومابعدها.

الزحف نحو روما، ولم يكن عاجزاً عن استثمار نصره كما وصفه أحد مساعديه قصير النظر.

وقد صدق حدس هانيبال فالرومان لا تلين لهم قناة، ولا يركنون إلى الهزيمة، وأعدوا جيوشاً لم تعرف روما مثلها عدداً ولا عِدة، وكان هناك جو من الثقة والتفاؤل، وكان مبعث هذا التفاؤل عاملين؛ أولهما: إعلان المدن الإيطالية ولاءها التام للوقوف فى وجه هانيبال ومساندة روما حتى النهاية، فى حين أن ثانيهما تمثل فى ظهور شخصية فذة وعبقرية عسكرية رومانية تمثلت فى القائد الرومانى الشهير بوبليوس كورنيليوس سكيبيو Puplius Cornilius Scipio الذى انتقل الفكر العسكرى الرومانى على يديه نقلة كبيرة، إذ فكر هذا القائد فى نقل ميدان المعركة من إيطاليا إلى شمال إفريقيا بحيث يفرض القتال على القرطاجيين فى عقر دارهم – كما فعل هانيبال– وهذه الخطة كانت بلا شك تنطوى على قدر كبير من الخطورة بسبب وجود هانيبال على أرض إيطاليا – أى فى عقر دار الرومان– علاوة على أنه ألحق بالرومان عدة هزائم، فكيف ينتقل الجيش الرومانى من أرضه ووسط حلفائه إلى أرض العدو، وهذا العدو ألحق به الهزائم وهو بعيد عن أرضه، فما بالنا وهو يقاتل على أرضه. من ناحية أخرى كانت لهذه الخطة أيضا جوانب إيجابية؛ أهمها انسحاب هانيبال من إيطاليا والعودة إلى شمال أفريقيا، وهذا بلا شك ينطوى على قدر كبير من العناء والصعوبة الكبيرة وسيؤثر بلا شك على قدرة جنوده القتالية إلى جانب عددهم، هذا فضلا عن إلهاب حماس الجنود الرومان وهم يقاتلون العدو فى عقر داره؛ لأن هذا العدو روعهم وعمق جراحهم بتكبيدهم عدداً من الهزائم، فضلا عما ألحقه بهم من أضرار وخسائر اقتصادية، وأيضا تحولهم من موقف الدفاع إلى الهجوم بعكس هانيبال الذى سيضطر إلى سحب قواته ويتحول من الهجوم إلى الدفاع. على أية حال اتسمت خطوة سكيبيو بالجرأة والمغامرة. وقد لاقت هذه

الخطة معارضة شديدة من جانب الرومان إلا أن سكيبيو نجح فى انتزاع الموافقة من السناتو، وبالفعل أبحر بحملته العظيمة إلى الأراضى الأفريقية، ولـم يجـد القرطاجيون بداً من استدعاء هانيبال إلى قرطاجة ليقود الحرب ضد سكيبيو على التراب الأفريقى. هكذا قُدر لهانيبال العودة إلى أفريقيا بعد خمسة عشر عاماً قضاها فى إيطاليا ليواجه آخر دور له فى هذا الصراع المحموم، وعندما وصل وجد جيشاً رومانياً بقيادة سكيبيو فى انتظاره. وفى خريف 202 ق.م وفى زاما Zama -على مشارف قرطاجة- التقى قائدان من أعظم قواد عصرهما وجها لوجه، وبعد معركة طاحنة لقى القائد المحنك هانيبال هزيمة ألغت كـل روائـع انتصاراته السابقة على يد منافسه الشاب سكيبيو الذى حمل لقـب أفريكـانوس Africanus؛ أى قاهر الأفارقة دلالة على تحقيقه النصر الحاسم والنهائى على قرطاجة والتخلص من أسطورة هانيبال الرهيب[1].

لقد كانت هذه الحرب -كما ذكرنا- صراعاً حتى الرمق الأخير من أجـل البقاء، والبقاء هنا للأصلح من كل الوجوه حسبما تقضى بذلك القوانين الطبيعية، الأصلح بدنياً واستراتيجياً وتكتيكياً، وهو ما انطبق على الرومان الذين لقوا فى البداية عدداً من الهزائم التى كانت كفيلة بالقضاء على روما، لكن الرومان بمـا عُرف عنهم من صفات صمدوا رغم كل النكبات التى ألمت بهم حتى النهايـة، واستطاعوا تحقيق النصر على عدوهم فى عقـر داره بعـد أن هـاجمهم فـى أراضيهم وروعهم، وكانت شروط الصلح -أو إن شئنا الدقة- شـروط إذعـان قرطاجة لقوة روما هى دفع غرامة باهظة لروما، وبالطبع تنازلها طواعية عن كل قوتها البحرية لصالح روما، وكان أخطر شروط الصلح هو تخلي قرطاجـة عن كل ممتلكاتها خارج أفريقيا، بل قبلت أن يزرع الرومان على حدودها فـى أفريقيا مملكة عميلة- مملكة نوميديا تحت حكم ماسينسيا- تكون بمثابة المراقب

([1]) ددلى (1979)، ص 76 .

لها لحساب الرومان بالطبع، وكانت هذه المملكة العميلة مخلب القط الذى مكن الرومان فى النهاية-عام 146ق.م- من تحطيم قرطاجة نهائياً ومحوها تحقيقاً لدعوى السياسى المخضرم أبيوس كلوديوس الذى لم يمل من تكرار عبارته الشهيرة " لابد من تحطيم قرطاجة delenda est Carthago"، وأصبحت أثراً بعد عين، وتم تحويلها إلى ولاية رومانية، ثم قامت روما بإنزال أشد العقاب بمملكة سيراكوزة لأنها ثارت على الرومان أثناء حرب هانيبال مما كان ينذر بضعف واضح فى صفوف الرومان، لذلك تم قمع هذه الثورة، وصادرت روما الذهب والفضة الموجودين فيها، وقد برر بوليبيوس هذا العمل بأنه كان من المستحيل على الرومان وهم يرغبون فى سيادة العالم ألا يضعفوا مصادر قوة وثروة أعدائهم فى الوقت الذى يدعمون فيه أنفسهم أكثر وأكثر[1]. وكانت قرطاجة-كما ذكرنا- قد تنازلت عن غرب صقلية ضمن شروط اتفاق الصلح بين الطرفين عام 238 ق.م، وحولته روما إلى أول ولاية رومانية، ولم تلبث روما أن أدمجت مملكة سيراكوزة، وبالتالى ضمت صقلية كاملة، وكذلك استولت على سردينيا وكورسيكا وأدمجتهما فى ولاية واحدة عام 227 ق.م. لقد فتح انتصار روما على هانيبال الطريق على مصراعيه أمام روما كى تغزو العالم. وقد صدق بوليبيوس حينما أدرك أن إرسال الرومان قواتهم إلى أفريقيا بقيادة سكيبيو لن تمكنهم من بسط سيادتهم على أفريقيا فقط، بل على بقية العالم[2].

ومما لا شك فيه أن الخطة الذكية التى وضعها الرومان لمواجهة هانيبال كانت أهم العوامل فى تحقيق النصر عليه، وقد كان لهذه الخطة ثلاثة أهداف هى:-

- الهدف الرئيسى منها هو حصار هانيبال داخل إيطاليا عن طريقين؛

([1]) Poly IX,10.9;Walbank (1963) ,p6.
([2]) Poly XV, 10.2; Walbank (1963), p9.

أولهما تمثل فى قطع خط الرجعة عليه إلى أفريقيا، وجاء تحقيق هذا الهدف من خلال استيلاء روما على جزيرة صقلية التى كانت بمثابة جسر بالغ الأهمية بين إيطاليا وأفريقيا، أى بين هانيبال وقرطاجة. ثم تبع ذلك استيلاء الرومان علي عدد من المدن الصغرى فى سامنيوم وأبوليا، وكللت روما انتصاراتها باسترداد المدينة الكبرى تارنتوم. وهكذا كان استيلاء الرومان على عدد من المواقع الإستراتيجية إلى جانب قطع اتصال هانيبال بالغال، وتضييق الخناق على القوات القرطاجية فى أبوليا وعلى حلفاء هانيبال اللوكانى والبروتيى- الأثر الكبير فى تأزم موقف هانيبال فى إيطاليا، ولم يعد أمامه إلا وصول الإمدادات القادمة من إسبانيا، وهذا ما تنبه إليه الرومان، وبالتالى فإن هذا يقودنا إلى الطريق الثاني الذى تمثل فى قطع الإمدادات القادمة إليه من إسبانيا لاسيما أن هانيبال علم أن أخاه هاسدروبال نجح فى الوصول إلى شمال إيطاليا بجيش كبير، وكما نجح أيضاً فى ضم قوات كبيرة إليه من الغال،. لذا ركز الرومان جهودهم فى عدم وصول هاسدروبال بجيشه إلى هانيبال؛ لأن هذا يمثل دعماً معنوياً وعسكرياً لا حدود له لهانيبال، وفى الاتجاه المعاكس يقلل من فرص محاصرة هانيبال داخل إيطاليا، لذلك أرسل الرومان جيشين بقيادة القنصلين من أجل هذا الغرض، وبالفعل نجح الجيشان فى هزيمة جيش هاسدروبال على ضفاف نهر متاروس، ولقى هاسدروبال نفسه مصرعه عام 207 ق.م. وهذا النصر كان له أثره الكبير على الرومان الذين اعتقدوا أنه أول خطوة على طريق تحقيق روما لنصر نهائى على عدوها اللدود هانيبال الذى علم بمصرع أخيه بطريقة مفجعة عندما ألقى رسول روما رأس

هاسدوربال داخل معسكره[1].

- تفويت فرصة التحالف بين هانيبال وفيليب الخامس ملك مقدونيا، لــذلك تحالفت روما مع الأيتولين عام 212 ق.م، وما لبثت أن عقدت صــلحا مع فيليب المقدونى نفسه بعد انتهاء الحرب المقدونية الأولـــى فـــى 205 ق.م. وهكذا فوت الرومان فرصة اتفاق هانيبال وفيليب ضدهم.
- تنفيذ خطة مهاجمة قرطاجة فى عقر دارها وذلك بنقل ميدان المعركة إلى أفريقيا والتى اقترحها القنصل الجرىء كورنيليوس سكيبيو, وعلى مشارف زاما دارت رحى واحدة من أعنف المعارك التى شهدها التاريخ بين قائدين من أعظم قواد عصرهما، إلا أن القائد المحنك هانيبال تجرع مرارة الهزيمة على يد منافسه الشاب سكيبيو.

وعلى الرغم من ميول روما الاستعمارية، ورغبتها الواضحة فى تكوين الإمبراطورية إلا أنها امتلكت جهاز دعاية جبار حول حربها ضد هانيبال على أنها حرب عادلة Bellum Iustum. وقد حمل المؤرخون الرومان (مثل ليفيوس وابيان وبوليبيوس) مسئولية هذه الحرب على عاتق هانيبال الذى عبر الألب وهاجم روما فى عقر دارها، حيث كان يحمل فى صدره حقداً دفيناً على الرومان زرعه أبوه فى قلبه -وهو ابن التسعة أعوام- بعد أن هزمه الرومان خلال المرحلة الأولى من الحرب، بل إن روما تدخلت لوقف اعتداءات هانيبال على مدينة حليفة- ساجنتوم- لروما، ومع ذلك لم يرتدع هانيبال واحتلها عام 219 ق.م، وبالتالى كان على روما التدخل وفقاً لبنود التحالف بينها وبين هذه المدينة التى طلبت تدخل روما لحمايتها من هانيبال. وهكذا كانت روما

---

(1) إبراهيم نصحى (1983) ،ص 282 ومايليها.

فى موقف المدافع ولم تبدأ بالهجوم، بل إن هانيبال هو الذى خرق الاتفاق الموقع مع روما عام 226 ق.م، وعبر نهر الأيبرو Ebero - الذى كان حدا فاصلاً- واحتل ساجنتوم. و يعتقد بوليبيوس أن هانيبال كان يرغب فى ترتيب حكومته، وإعداد جيشه للطريق الطويل الذى كان يبدأ بغلق الميناء فى وجه السفن الرومانية، وحصار حلفائها، لذلك حاصر ساجنتوم[1].

على الجانب الآخر لا يمكن إعفاء الرومان من تحمل المسئولية عن هذه الحرب حيث إنهم-حسبما يعتقد - Hallward[2]- أنتهجوا أسلوب التوسع والاستعمار، وتجلى هذا فى أمرين كانا فى غاية الحساسية؛ أولهما: الاستيلاء على سردينيا، وثانيهما: تدخلهم فى إسبانيا بطريقة استفزت الوجود القرطاجى هناك، وأفقدت القرطاجيين هدوءهم، كما أن روما نجحت فى تحريض مستوطنة ماسيليا

Massilia - مستوطنة إغريقية أنشأتها مدينة فوكايا عند مصب الرون- فراحت تتوسع تجاريا وتنافس التجار القرطاجيين الذين كانوا يحتكرون التجارة فى شبه الجزيرة الأيبيرية[3].

ويعتقد البعض أن الإمبراطوريتين كان من الممكن أن يعيشا جنباً إلى جنب لو أن كلا منهما احترمت مناطق نفوذ الأخرى، ومع احترامنا لوجهة النظر هذه إلا أن هذا الأمر كان غير قابل للتطبيق؛ لأن الصدام كان لا مناص منه، وذلك بحكم القوانين الطبيعية، فالصدام من شيم القوى الكبرى؛ لأن كلا من القوتين لديه الطموح للتوسع وبسط النفوذ.

([1]) Kagan (1986), pp 116-117

([2])CAH V.III 1930, pp25-32= Kagan (1986), pp119-123.

([3]) سيد الناصرى (1982)، ص 159ومابعدها.

وقد كانت لحرب هانيبال نتائج بعيدة المدى؛ فقد كانت هذه الحرب بداية الطريق نحو الإمبراطورية الرومانية فى الخارج، والثورة الاجتماعية فى الداخل إذ أصبحت صقلية وسردينيا وإسبانيا ولايات رومانية، وذاقت روما لذة تكوين ولايات خارج إيطاليا، وتفتحت شهية الرومان للمزيد والمزيد من الممتلكات بعد أن تحولت روما إلى سيدة حوض البحر المتوسط الغربى بلا منازع، وكان عليها أن تولى وجهها شطر الحوض الشرقى للبحر المتوسط حيث الممالك الهللينستية التى تمخضت عن تقسيم تركة الإسكندر الأكبر بعد وفاته بين قواده، هذا إلى جانب بعض الممالك الصغيرة الموجودة فى الشرق. وقد أفلحت روما فى ابتلاع الواحدة بعد الأخرى، وكان مسك الختام هو احتلال الرومان لمصر عام 30 ق.م، وقد عُدّ اليوم الذى سقطت فيه مصر عيداً فى روما حيث اكتملت فيه منظومة الفتوحات الرومانية، وأصبح الرومان القطب الأوحد فى العالم المسكون حينذاك، وتحول البحر المتوسط إلى بحيرة داخلية بالنسبة للرومان.

لقد جسدت كل هذه الحروب -التى خاضتها روما من أجل السيادة على العالم- سياسة روما الاستعمارية، وتمخضت عنها نتيجة غاية فى الأهمية وهى أن هذه الحروب دشنت عهداً جديداً فى أوروبا، فقد أضحى هناك توحد فى التاريخ القديم، وأصبحت روما منه بمثابة المركز، ولم ينته هذا العهد إلا حينما انشطرت الإمبراطورية إلى شطرين، وهذا الرأى عبر عنه بوضوح شديد بوليبيوس الذى عاش حتى رأى روما سيدة غرب البحر المتوسط بلا منازع[1].

لقد نجحت روما بفضل فكرها العسكرى المتجدد والمتطور أن تصبح الحصن الأصيل للتقاليد العسكرية التى أثبتت فاعليتها، وأخذت بها كل النظم العسكرية فى العالم بدءاً من تقسيم الجنود إلى مجموعات تبدأ من عشرة وتنتهى بألف،

([1]) B.L.Hallward (1930). Hanniball's Invasion of Italy; pp 25-32 in CAH VIII.,p 25 Kagan (1986), p 119.

ولكل وحدة قائد يطيعه أعضاء المجموعة، ويطيع هو رئيس المجموعة الأعلى، ثم تسليحهم بالسيف القصير، والدروع والخوذات والرماح، وتخصيص رتب وألقاب لرئيس كل مجموعة، ثم وضع خطط الزحف التى تحرك هذه المجموعات كلها، وطرق القتال... إلخ... كما يدخل فيها زى الجندى، وما يكلف به من مهام خلال الحرب والسلم، وقد كانت هذه هى أدوات الفكر العسكرى الرومانى فى رحلته لغزو العالم، وتنفيذ السياسة الثابتة المرسومة غير المعلنة والتى قام على تنفيذها جيل بعد آخر من ساسة الرومان حتى تم لهم احتلال مصر؛ وكان هذا مسك الختام.

الممالك العميلة

كانت الممالك العميلة واحدة من وسائل أو آليات الفكر العسكرى الرومانى التى استخدمها من أجل احتلال الممالك الهللينستية فى شرق البحر المتوسط. ويشير مصطلح " الممالك العميلة " إلى دول أو ممالك غير رومانية تمتعت بعلاقات متوافقة مع روما غير أنها كانت غير متكافئة. وتمتع حكام هذه الممالك بالحماية الرومانية، وكان الرومان يسمون ملوكها هذه الممالك ملكا حليفا أو صديقا، وهذا تقدير شخصى من السناتو لهؤلاء الحكام.

وبداية من القرن الثالث قبل الميلاد على الأقل بدأت روما فى توثيق عرى مثل هذه العلاقات بهدف تدعيم أو توسيع إمبراطوريتها فى إيطاليا وما ورائها. وكان هيرون طاغية سيراكوزة (حوالى 263 ق.م) يعتبر أول ملك عميل للرومان، لكن مما لا شك فيه أنه كان هناك سابقون عليه فى هذا المجال. وقد استمرت روما فى إقامة وتوطيد علاقاتها مع الملوك التابعين طوال تاريخها، وهناك العديد من هذه الممالك تحول إلى ولايات إمبراطورية وذلك فى عدد من الحالات، مثل شعور روما بالحاجة إلى السيطرة على حالة عدم التوازن أو القلق داخل المملكة العميلة، وذلك فى حالات مثل فشل الملوك فى ضبط أو اختيار ولى العهد، أو وجود مشكلات تخص ولاية العهد، أو عند نهاية الأسرة، أو تغير الظروف الداخلية، أوعندما يفقد العميل دوره وينتهى الهدف الذى كان يخدم روما من أجله. وقد كان هناك استثناء لهذه القاعدة تمثل فى الوصايا العرضية التى كان يضعها الملوك العملاء بأن تؤول ممالكهم لروما فى حالة عدم وجود وريث مرضى عنه من الجانبين(أتالوس الثالث ملك برجامون).

وكانت الممالك العميلة عادة ما تقع على حدود السيطرة الرومانية، أوفى منطقة يجد فيها الرومان صعوبات أو معوقات لإدارتها بشكل مباشر. وقد كانت هذه الممالك العميلة عبارة عن احتياطى مهم للغاية من الرجال، والموارد،

والمعلومات عن تحركات الممالك المجاورة المضادة للرومان، أو ممن تتوجس منهم روما الخوف، أى أنها كانت بمثابة عيون للرومان تنقل كل شئ لروما، وتلبى كل طلباتها وقتما شاءت.

وفى المقابل فقد وفرت روما لهذه الممالك الدعم والحماية، وضمنت لها مكانتها المحلية، كما أنها لم تكن مطالبة بدفع ضرائب منتظمة. وكانت أقرب قوات أو فرق رومانية لهذه الممالك كفيلة بإبطال أى تهديد لوجود هذه الممالك من جانب أعدائها الداخليين أو الخارجيين بفضل وجودها. وفى حالة الضرورة كانت القوات الرومانية تأتى لتقديم المساعدة العسكرية لها. ومن أشهر الممالك العميلة التى كانت أداة طيعة فى يد الرومان ووسيلة فعالة لجر خصوم روما إلى حلبة القتال والقضاء عليهم نوميديا وبرجامون ورودس، أى أن هذه الممالك كانت واحدة من آليات الفكر العسكرى الرومانى فى السيطرة على ممالك الشرق الهيللينستى على وجه التحديد.

مـــملـــكة نـــومـــيديـــا

نوميديا (202– 46 ق.م) هى مملكة بربرية قديمة عاصمتها سيرتا (تسمى حاليا قسنطينة بالجزائر الحالية)، وكانت تنقسم خلال النصف الثانى من القرن الثالث قبل الميلاد إلى قسم شرقى يحكمه أمير يدعى ماسينيسا Masinissa ، وقسم غربى على رأسه أمير يدعى سيفاكس Syphax، وقد حدث أن طرد الأمير الثانى الأمير الأول من إمارته فى أواخر الحرب البونية الثانية، فانضم إلى قرطاجة فى محاربة الرومان عندما نقلوا مسرح الحرب إلى أفريقيا، من هنا انحاز ماسينيسا إلى الرومان، وقدم لهم مساعدات كبيرة خلال معركة زاما 202 ق.م، وكافأ الرومان ماسينيسا على خدماته بإقامته ملكا على نوميديا كاملة، وبمساعدته على نشر نفوذه على حساب قرطاجة، فامتد سلطانه قبل وفاته فى عام 149 ق.م من حدود ماوريتانيا فى الغرب إلى قورينى فى الشرق، وبالتالى أصبحت مملكته على قدر كبير من الثراء والغنى والنفوذ[1]. وبطبيعة الحال لم تكن نوميديا مملكة مستقلة تمام الاستقلال عن روما، بل هى إحدى توابعها التى تدور فى فلكها[2].

- <u>دور نوميديا في القضاء على قرطاجة</u>

وكانت شروط الصلح التى تمت عقب الحرب البونية الثانية قاسية حيث إن قرطاجة لم تحتفظ إلا بأراضيها الواقعة فى أفريقيا، وتخلت عن ممتلكاتها فيما وراء البحار، كما فرضت روما تعويضا هائلا عليها، لكن الأهم هو أن روما وضعت ماسينسيا ملك نوميديا على حدود قرطاجة ليكون حليفا للرومان، وهكذا

---

(1) Livy XXXVII, 25.

(2) جدير بالذكر ان هذا القائد نال استحساناً وامتداحاً كبيرين من ليفيوس الذى خصص له عدداً من الصفحات ليتحدث عن مناقبه وصراعه مع سيفاكس من أجل توحيد نوميديا، كما اعتبره أعظم ملك فى عصره. Livy XXIX,29، وانظر أيضا:

Poly XXXVI,16; P.G.Walsh (1965); Massinissa; JRS 55, pp149-160.

قطعت قرطاجة الأمل فى أن تصبح دولة قوية فى حوض البحر المتوسط، كما آلت ممتلكاتها فى الغرب وفى إسبانيا إلى روما[1]. كذلك ألزمت شروط الصلح قرطاجة بعدم القيام بأى حرب داخل أفريقيا أو خارجها بدون إذن من روما، وكان هذا بالطبع مدعاة لتدخل روما وقتما تشاء؛ لأن الحدود بين هذه المملكة العميلة لروما وقرطاجة كانت ملتهبة بحكم تبعية هذه المملكة لروما.

أما داخل قرطاجة نفسها فقد تولى الأمر الحزب المهادن لروما، فاستغل هذا الأمر فى إنعاش اقتصاد قرطاجة ثانية. وبفضل هذه السياسة نعمت قرطاجة بحالة من الرخاء، تلك الحالة كانت مدعاة لتوجس الرومان خيفة من أن يدفع هذا الرخاء القرطاجيين إلى التفكير فى معاداة الرومان، والتطلع لإحياء مجدهم القديم.

بدأ دور المملكة العميلة نوميديا، حيث طلب ماسينيسا ضم بعض أراضى قرطاجة، وكانت النتيجة المنطقية هى رفض قرطاجة لهذه المطالب، وطلبت تدخل روما لحمايتها من هذا الأمير، فأرسلت روما لجنة مهمتها الظاهرية رأب الصدع بين الجارتين، وإقرار السلام بينهما، غير أن المهمة الأصلية لهذه اللجنة كانت استطلاع حالة الرخاء التى حققتها قرطاجة، والتى أثارت بعض أعضاء اللجنة خصوصا كاتو الأكبر الذى لعب دورا كبيرا فى إشعال الحرب، وبالتالى القضاء على قرطاجة لدرجة أنه كان يكررعبارة شهيرة بعد عودته إلى روما فى كل جلسة للسناتو الرومانى وهى: "لا بد من تدمير قرطاجة(Delende est Carthago)"[2].

وكانت الخطة التى وضعها الرومان تقتضى أن تساند اللجنة الرومانية مطالب ماسينيسا فى ضم بعض أراضى قرطاجة من أجل جر القرطاجيين

(1) ددلى(1979)،ص76.
(2) عن دور كاتو فى إشعال الحرب راجع:.Plutarch, Cato the elder, 25-26

للحرب معه، ومن هنا تتدخل روما بحجة نقض قرطاجة لشروط الصلح التى تنص على عدم اشتباك قرطاجة فى حرب إلا بإذن روما. وسار السيناريو الذى وضع على نفس الخطوات إذ أن قرطاجة رفضت بالطبع ضم بعض أراضيها للأمير النوميدى ماسينيسا من هنا نشبت الحرب بين قرطاجة وماسينيسا الذي نجح فى أن يلحق بقرطاجة هزيمة قاسية، وبالتالى انتهى دوره عند هذا الحد، وعليه أن ينتظر المكافأة من الرومان[1]، لكن الأهم هو أن القرطاجيين كان عليهم انتظار عقاب الرومان؛ لأنهم خرقوا أو نقضوا اتفاق عام 202 ق.م. لذا أرسل القرطاجيون وفدا إلى روما حيث كان عليهم اختيار أحد أمرين إما التسليم أو الدفاع باستماتة. وعند وصول هذا الوفد إلى روما وجد أعضاؤه أن قرار الحرب قد اتخذ بالفعل من جانب الرومان، لكنهم كانوا يبحثون عن تكأة أو ذريعة لإعلان هذا القرار[2]، وقد أكد على هذا القرار أيضا أبيان[3] عندما قال إن الرومان اتخذوا قرار الحرب ضد قرطاجة عقب عودة كاتو ورفاقه من سفارتهم اليها، غير أن السناتو كان يبحث عن ذريعة مقبولة من أجل إعلان الحرب، لذلك عرض سفراء قرطاجة التسليم للرومان، وكان التسليم أو الاستسلام فى مثل هذه الحالات هو ما أسماه بوليبيوس (dedere se in fidem) يعنى تسليم كل الأراضى والمدن ، ثم بعد ذلك السكان جميعهم الذكور والإناث، وكذلك الأنهار والموانئ والمعابد، أى أن الجميع يصبحون ممتلكات رومانية خالصة[4]. وبعد إعلان سفراء قرطاجة الاستسلام وفقا لهذا المبدأ خرج عليهم البرايتور ليبلغهم بقرار السناتو بمنحهم الحرية والإبقاء على قوانينهم وكل أراضيهم وكل ممتلكاتهم الخاصة والعامة، وكان رد فعل القرطاجيين هو الفرحة؛ لأنهم ظنوا

([1]) Appian, The Punic Wars, 70-73.
([2]) Poly XXXVI, 2; Diodorus XXXII,5; Baronowski(CP1995); p17ff.
([3]) Appian, The Punic Wars, 69 a.
([4]) Poly XXXVI,4.1-3

أن المعاملة السيئة التى عاملهم بها السناتو من أول وهلة قد تبددت إلى الأحسن، وأن كل شئ قد أعيد إليهم، غير أن البرايتور أخبرهم أن هذا فى مقابل قيامهم بإرسال عدد ثلاث مائة من أبناء رجال السناتو القرطاجى إلى مدينة ليليبايوم Lilybaeum بصقلية كرهائن فى خلال ثلاثين يوما، كما أن عليهم تنفيذ أوامر القنصلين، فوقع السفراء القرطاجيون فى حيرة كبيرة، وقرروا العودة إلى قرطاجة من أجل إخبار مواطنيهم بما توصلوا إليه مع السناتو الرومانى، واتخاذ القرار الملائم، غير أن النتيجة هى أن شعورا كبيرا بالغضب والترقب ساد بين كل مواطنى قرطاجة[1]، لمبالغة الرومان فى مطالبهم، وفرضهم شروطا يصعب قبولها؛ لأن الهدف هو تدمير قرطاجة، ومع ذلك فقد استجاب لهم القرطاجيون، وقاموا بإرسال الرهائن إلى مدينة ليليبايوم[2]، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل طالبوا القرطاجيين بتسليم أسلحتهم، وبالفعل امتثل القرطاجيون لهذا المطلب أيضا[3]، غير أن القنصلين بالغا إلى حد بعيد فى إذلال القرطاجيين حينما طالبوهم بضرورة الرحيل عن المدينة، والسكن بعيدا عن البحر بمسافة عشرة أميال، هنا جن جنون القرطاجيين لأن هذا كان يعنى الموت لتلك المدينة التجارية العظيمة، فرفضوا تنفيذ هذا الأمر واستبسلوا فى قتال الرومان، والدفاع عن مدينتهم، وصمدوا لمدة عامين فى وجه القنصلين حتى أسند السناتو الرومانى الحرب إلى القائد سكيبيو إيميليانوس عام 147 ق.م. فنجح فى إعادة النظام والانضباط إلى الجيش الرومانى، وكان هذا سبب نصره على القرطاجيين، والقضاء على صمودهم، فاقتحم المدينة عام 146ق.م، واستولى عليها بعد قتال مرير فى الشوارع، ومن بقى على قيد الحياة بعد هذا القتال بيع فى أسواق العبيد، وسويت المدينة بالأرض، واعتبرت مكانا ملعونا. لقد كان وقع هذا

---

(1) Poly XXXVI,4.4-9.
(2) Poly XXXVI,5.
(3) Poly XXXVI,6.

الانتصار على الرومان فى روما داخل مدينتهم عظيما حيث ظلوا طوال الليل يهنئون بعضهم البعض، ويتعانقون كما لو كانوا قد تخلصوا من خوف عظيم أو شر مميت، فهذا الانتصار حقق لهم السيادة على العالم؛ لأنهم ضمنوا الآن بقاء مدينتهم. كما أن مبرر هذه الفرحة الطاغية هو ما عانوه طويلا ومنذ أمد بعيد من القرطاجيين أنفسهم على أرض إيطاليا عندما حاصرهم هانيبال لمدة 16 عاما، ودمر 400 مدينة، وقتل 300 ألف من رجالها فى معاركه وحده، إلى جانب تعريض مدينتهم لخطر عظيم. ولعل هذا يبرر مبالغة الرومان فى الانتقام من قرطاجة، وتحول الرومان لأراضيها إلى ولاية أفريقيا البروقنصلية، ثم أرسلت روما عدداً من رجال السناتو لتنظيم وضع قرطاجة والاستفادة منها[1].

وكان السبب الرئيس فى تحقيق الرومان للنصر بعد فشلهم لمدة عامين فى اقتحام المدينة هو تغيير التفكير العسكرى الذى اتبعه القائد سكيبيو إيمليانوس بالتعبئة النفسية الجيدة للجنود، وذلك بعد أن أصاب الجيش الرومانى تحت قيادة سلفه شئ من التراخى، وحالة من الكسل، فتراخت قدرة الجنود -إلى حد ما- وانتشر بينهم الباعة الجائلون الذين كانوا مدعاة للمزيد من الكسل والتخاذل، إلى جانب ضعف الروح المعنوية بين القواد مما استلزم تحرك الفكر العسكرى خطوات من أجل إعادة الجيش الرومانى إلى حالته. ولم يكن العلاج يخص نظام التسليح أو التحركات أو الخطط بقدر ما كان الأمر علاجا نفسيا ومعنويا للجنود والقواد على حد سواء، وهذا ما فطن إليه القائد سكيبيو، لذا نراه يوجه خطابا نفسيا إلى الجنود يقوم على سياسة الترغيب والترهيب من أجل حثهم على القتال. والواقع أن هذا الخطاب نجح فى إعادة الجنود إلى حالة من الانضباط

---

(1) Appian, The Punic Wars, 74- 132, here esp., 80; عبد اللطيف أحمد على(1974)،ص ص 230-232.

والقوة فنجحوا فى تحقيق النصر على القرطاجيين[1].

وبعد أن نجح سكيبيو فى دخول المدينة والاستحواذ عليها أخذته لحظة تعجب ودهشة على مصير هذه المدينة التى ازدهرت لمدة تربو على السبعمائة سنة منذ تأسيسها حتى آلت إليه، ودار بخلده نفس المصير الذى آلت إليه إمبراطوريات كبيرة فى حجم الآشوريين والميديين والفرس، وإمبراطورية المقدونيين الرائعة، وتعجب من مصير البشر فى هذه الأيام، وخشى على مصير روما لأنها ستلقى حتما نفس المصير، وراح يردد فى أسى بعضاً من أبيات إلياذة هوميروس الرائعة التى تقول إن كل شئ إلى زوال[2].

وكان سكيبيو قد منح جنوده عدداً من الأيام لنهب المدينة، غير أنه حجز الذهب والفضة وهدايا المعبد، كما قام بمنح بعض الجوائز لبعض الجنود الذين أظهروا ضروبا من الشجاعة، وحجبها عن أولئك الذين دنسوا معبد أبوللو، كما أرسل إلى صقلية واعدا إياهم باسترداد كل ما سلبه القرطاجيون من معابدهم فى الحروب السابقة، كما أرسل رسلاً إلى روما تعلن الانتصار. من هنا أراد أن يقدم نفسه إلى الناس على أنه يجمع بين الرحمة والقوة[3].

- نهاية مملكة النوميديين على يد الرومان

لقد كان الخوف من انتعاش قرطاجة مرة ثانية عاملا مهما من عوامل دعم صلات الود بين روما ونوميديا، ولذلك فإنه عندما دمر الرومان قرطاجة تدميرا شاملا عام 146 ق.م تبددت المخاوف التى كانت تدفع نوميديا إلى طلب مناشدة الرومان المساعدة، وعلى الجانب الآخر إطاعة أوامر الرومان باستمرار منذ نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، لكن أمر نوميديا ظل يعنى الرومان وبخاصة

---

(1) Appian, The Punic Wars, 115-117.
(2) Illiad, VI.448-449.
(3) Appian, The Punic Wars, 132-133.

لكونها جارة ولاية أفريقيا الرومانية[1]، ولهذا بدأت العلاقة بين الطرفين تأخذ منحى جديداً لأن العدو الذى كانت روما تدعم نوميديا من أجله قد أصبح أثرا بعد عين، ومن ناحية نوميديا فالطاعة العمياء لروما، والتصرف بنوع من أنواع السيادة المنقوصة لابد من إعادة النظر فيه لنفس السبب السابق.

لقد كان ماسينيسا رجلاً على درجة كبيرة من الإخلاص والوفاء للرومان، وقد تجلى هذا فى موقف سكيبيو بعد وفاته، حيث ذكر أنه كان ذا روح نبيلة، ولديه كفاءة عالية تفوق أى قائد[2]، وورث مملكة ماسينيسا ابنه ميكيبسا Micipsa (148-118ق.م) الذى ظل حليفا وفيا طيعا للرومان كما كان أبوه، وعند وفاته عام 118 ق.م أوصى بأن تؤول مملكته إلى ابنيه ويوجورتا Iugurthaابن أخيه، غير أن هذا الأخير كان رجلا قديرا نشيطا ذا أطماع واسعة، وخدم فى إسبانيا تحت قيادة سكيبيو إيمليانوس، وأثبت أنه محارب قدير وشجاع لدرجة أن سكيبيو أرسل خطابا إلى مكيبسا هنأه فيه على شجاعة ابن أخيه، وقال إنه نال احترامه واحترام الشعب والسناتو على حد سواء، وقال إنه يمتلك الكثير من شجاعتك وشجاعة جده ماسينسيا[3]. ولما توفى مكيبسا ارتقى الثلاثة العرش غير أن طموح يوجورتا دفعه إلى التخلص من هيمبسال(Hiempsal) بالقتل، كما هزم أدهربال (Adherbal) الذى لجأ إلى روما طلبا للمساعدة، وبالفعل تدخلت روما لأن نوميديا كانت تحت حمايتها، وعلى الرغم من هذا فقد نجح يوجورتا فى استغلال فساد الذمم الذى كان عليه الرومان، وقدم الرشوة لبعض أعضاء السناتو الذين قضوا بتقسيم المملكة بينه وبين أدهربال، وحصل يوجورتا على المنطقة الفقيرة، ولكن طموحه لم يقف

---

(1) إبراهيم نصحى(1983)، جـ1 168.

(2) Livy XXIX,31.

(3) Sallust, *Bellum Iugurthinum*, IX.1-2.

عند هذا الحد، لذا قام بجر أدهربال للحرب، وهزمه فى عاصمته سيرته عام 113 ق.م، ثم مالبث أن استولى عليها، وقتل أفراد الجالية الإيطالية التى كانت تقيم بها. وقد أثار هذا التصرف السناتو الرومانى، واضطر تحت ضغط الفرسان والعامة إلى إعلان الحرب على يوجورتا، غير أن يوجورتا كان يعلم كيف يحصل على معاهدة بوقف القتال عام 111ق.م، وطلب للتحقيق فى روما، وبنفس الكيفية نجح فى تحويل الاتهام، بل إنه اغتال أحد منافسيه على عرش نوميديا فى روما نفسها، ولما أكتشف السناتو هذا ألغى الاتفاقية التى كانت مبرمة معه، كما طالبه أنصاره بمغادرة روما، فقال عبارته اللاذعة الشهيرة والتى سارت مثلا ((مدينة للبيع توشك أن تزول بسرعة إذا وجدت من يشتريها[1])). وتجدد القتال بين الطرفين، ونجح يوجورتا فى تحقيق النصر على الرومان فيه، بل طالبهم بالاعتراف بمركزه فى نوميديا، لكنهم رفضوا، وقرروا استئناف الحرب ضد يوجورتا، وكانت حرب يوجورتا (111–105 ق.م) فرصة طيبة جدا لميلاد جنديين عظيمين هما ماريوس Marius وكورنيليوس سلا Cornelius Sulla اللذان أنهيا هذه الحرب لصالح روما، ولكن لسوء حظ روما أن يصبحا ألد عدوين. ولقد تحولت القيادة إلى ماريوس ورافقه الكوايستور سلا عام 107 ق.م، وتم لماريوس النصر الكامل على يورجورتا، وأسره عام 105 ق.م بعد أن أقنع باخوس Bacchus حاكم ماوريتانيا Mauretania بالغدر به وتسليمه له ليسوق هذا الأمير الأفريقى فى موكبه عند عودته لروما، حيث أودع فى السجن، ثم قتل شر قتلة. وقد كافأت روما حليفها بوخوس حاكم ماوريتانيا بمنحه القسم الغربى من نوميديا، فى حين منحت أخا غير شقيق

---

(1) Sallust, *Bellum Iugurthinum*, XXXV,10: "Urbem venalem et mature perituram, si emptorem invenerit!".

ليوجورتا الجزء الشرقى[1].

وفى عام 46 ق.م أنشأت روما ولاية أفريقيا الجديدة بعد انتصار قيصر على أتباع بومبى وحليفهم يوبا الأول ملك نوميديا عند مدينة ثابسوس فيما عرف باسم الحرب الأفريقية Bellum Africum التى كانت آخر حرب أو صراع بين الجمهوريين وبين يوليوس قيصر[2]. أما غرب نوميديا بما فيها مدينة سيرته فقد ضمت إلى روما بعد وفاة ملكها عرابيو فى عام 40 ق.م. لقد ضم أغسطس الولايتين إضافة إلى المدن الساحلية الثلاث فى ولاية جديدة سميت "ولاية أفريقيا البروقنصلية Provincia Africa Proconsularis"، وزودت بفرقة عسكرية رومانية هى الفرقة الثالثة الأوغسطية[3] (legio III Augusta) التى عسكرت فى نوميديا تحت قيادة قائد عسكرى، مع أنها كانت تابعة للبروقنصل الموجود فى تونس الحالية. وقد استمر هذا الوضع الشاذ حتى عهد سبتيميوس سيفيروس حين قام بفصل نوميديا مقر الفرقة وجعلها ولاية مستقلة عن ولاية أفريقيا البروقنصلية[4].

([1]) يعد كتاب ساللوست Sallust (86-34 BC) الذى يحمل اسم حرب يوجورتا (Bellum Jugurthinum:) هو المصدر الأول عن سيرة حياة يوجورتا وحروبه ضد الرومان، وأنظر أيضا:عبد اللطيف أحمد على(1974)، ص ص 49-51.

([2]) يعد كتاب الحرب الأفريقية(Bellum Africum) المنسوب لقيصر هو المصدر الأول عن هذه الحرب، وهذا الكتاب يتضمن أحداث الحرب التى خاضها قيصر عام 46/47 ق.م فى أفريقيا ضد يوبا نصير بومبى. ومن المصادر الأخرى عن هذه الحرب نجد: Appian, Civil Wars II,95-100; Plut., Caes.LII-LIV; Dio Cass,XLII, 13;56-58:XLIII,2-14,2.

([3]) عن هذه الفرقة و نظامها وأماكن تمركزها راجع: Yann Le Bohec (1989); *La Troisiéme LégionAugusta*, Paris.

[4] Daniels(1987); The Frontiers: Africa, pp 223-265 In J.S. Wacher (ed); *The Roman World*, vol I, London & NewYork, pp 236-38; R.C.Law (1978); *Tripolitania and North West Africa under Roman rule*; pp199-209 in; J. D. Fage(ed); The Cambridge History of Africa II, c.500B.C-A D1050 London and New York, p199; Duncan Fishwick & Brent Shaw(1977); The formation of Africa Proconsularis, *Hermes* 105, 1977, pp 369-380, esp., p 370 ; Ragab Salama Omran (2003): *The Limes Numidiae et Tripolitanus under Septimius Severus*, Unpublished Ph.D Vienna University, Austria, p 85 ff..

مملكة برجامون

تقع المدينة المحصنة لبرجامون فى إقليم ميسيا في شمال غرب آسيا الصغرى على مسافة حوالى خمسة وعشرين كيلومترا من الساحل الغربى لآسيا الصغرى، وتحرسها ثلاث جوانب منحدرة بشدة، ويحرسها في المقدمة طريق متعرج متوج بقلعة بحوائط قوية.

ويرجع تاريخ المدينة إلي بواكير القرن الخامس عندما منح الملك الفارسي دارا الأول وابنه اكسركسيس بعض المنفيين والمهاجرين من بلاد الإغريق أرضا في وادي نهر كايكوس كانت هى الموضع الذى قامت عليه المدينة، وقد مر بها إكسنيفون وجنوده خلال عودتهم من رحلتهم حيث لقوا كل ترحيب وود من أهلها[1]، غير أن المدينة لم تكتسب أهمية ما إلا عقب معركة أبسوس Ipsus في عام 301 ق.م حين خضعت في نفس العام لأنتيجونوس فيما خضع له من أقاليم آسيا الصغرى، وعندما هزم أنتيجونوس في ذلك العام آلت المدينة إلى ليسيماخوس الذي أصبح حينئذ يهيمن على وسط وغرب آسيا الصغرى. وقد اكتسبت المدينة قدرا أكبر من الشهرة والأهمية نتيجة حادث عارض، وذلك عندما اختارها ليسيماخوس لتكون مقرا لخزائنه التي اشتملت على تسعة آلاف تالنت, وقد عهد ليسيماخوس للقيام علي حراسة هذه الثروة إلى فيلتايروس Philetaerus بن أتالوس؛ وهو رجل مغامر كان على قدر كبير من الذكاء من تيوس. ويذكر استرابون أن هذه المدينة ليس لها ما يذكر سوى أنها المكان الذى ولد فيه فيلياتريوس مؤسس أسرة آل أتالوس أو الأتاليين فى برجامون[2]. وقد اكتشف هذا القائد أن الثروة التى بين يديه يمكن أن ترفع من

---

(1) Xenophon; Anabasis VII,8.

(2) Strabo XII.3.8 , للمزيد عن هذه المملكة وحكامها الاتاليين راجع:
Hansen, Esther V. (1971). *The Attalids of Pergamon. Ithaca*, New York: Cornell University Press; London: Cornell University Press Ltd.

قدره وتكسبه أهمية سياسية كبيرة. وعلى الرغم من هذا فقد استمر مواليا لسيده لوسيماخوس لمدة عشرين سنة قادمة حتى ارتكب ليسيماخوس حماقته الكبرى واستجاب لنزوات زوجته الثالثة أرسينوى الثانية وقتل ابنه المحبوب أجاثوكليس في عام 282 ق.م. من هنا انقلب فيليتاريوس على مليكه ليسيماخوس، ونقل ولاءه إلى الملك السليوقى سليوقوس الأول، وعرض عليه المساعدة العسكرية إضافة إلى ثمانية آلاف تالنت في حوزته[1], وقد تم الترحيب بالعرض، وبعد هزيمة وموت ليسيماخوس في موقعة كوربيدون عام 281 ق.م عين سليوقوس الأول فيليتاريوس حاكما على برجامون وأبقى الخزينة تحت رعايته[2].

وبعد مقتل سليوقوس الأول على يد بطليموس الصاعقة افتدى فيليتاريوس جسده من بطليموس الصاعقة بمبلغ كبير من المال، وأرسله إلى العاصمة السليوكية ليدفن بما يليق بمكانته كملك، وقد أكسبه هذا العمل تعاطف وتقدير الملك السليوقى الجديد أنطيوخوس الأول (281–261 ق.م)[3].

وقد جنى فيليتاريوس ثمرة صنيعه، ودعمت أواصر الصداقة بزواج أتاللوس ابن شقيقه من أميرة من البيت السليوقى. وبفضل العلاقات الودية التى ربطته بالملك السليوكي تمكن فيليتاريوس من أن يمد نفوذه إلى الأراضى المحيطة ببرجامون، وأن يصبح حاكما لإمارة على قدر من الاتساع. ويظهر أن فيلتايروس لقاء هذه الثقة التي أولاها إياه أنطيوخوس لم يقم بحركة صريحة تستهدف الاستقلال، لكنه استخدم ما فى عهدته من أموال في إظهار كرمه نحو المدن الإغريقية، وسك نقوداً باسم برجامون، وكون جيشا من المرتزقة خاصا به, وعلى الرغم من أن النقود كانت تحمل صورة سليوقوس، وأن الجيش لم يستخدم إلا فى حالات الدفاع الشرعي عن برجامون ضد الجلاتيين، لكن لاشك

([1]) Strabo XIII,4.1; Pausanias, Description of Greece I,10.3-4.
([2]) Justinus XVII, 1-2.
([3]) App.The Syrian Wars,62- 63; Justin XVII, 1-2.

في أن فيلتايروس كان عند وفاته فى عام 263 ق.م حاكما تتوافر لديه كل مقومات الاستقلال[1].

وقد عانت برجامون منذ نشأتها من خطر البرابرة الغال(الجلاتيين) الذين هددوا استقرار آسيا الصغرى منذ بداية القرن الثالث، لذلك كان الملك السليوقى أنطيوخوس الأول - بوصفه حاكما لآسيا الصغرى- لا يستطيع أن يغض الطرف عنهم، لذلك لاقاهم في معركة كبرى عند سارديس، وألحق بهم هزيمة كبيرة مما اكسبه لقب سوتير " Soter " أى المنقذ[2]. وعلى الرغم من هذا فإنه لم يستطع أن يستأصل شأفتهم كليةً، لذا لجأ إلى حل وسط وهو أنه أسكنهم هم وأسرهم منطقة فريجيا الوسطى التي أصبحت تسمى منذ ذلك الوقت جلاتيا Glatia نسبة إليهم. ولم يكف الجلاتيون عن الإغارة على الأراضى المجاورة، وظل وجودهم في المنطقة خطرا يتهدد المدن الإغريقية كما يتهدد حاكم برجامون, ويبدو أن فيليتاريوس تحمل هو الآخر -مثل أنطيوخوس- عبء التصدى لخطر الجلاتيين في شجاعة. وعلى الرغم من أن يومنيس الأول (263-241 ق.م) -خليفة فيليتاريوس - أظهر عزمه على التحرر من سلطان السلوقيين حين سك عملة جديدة- بعد عام واحد من توليه العرش- نقشت عليها صورة رأس فيليتاريوس بدلا من صورة رأس سلوقوس- فإنه وجد نفسه مضطرا إلى دفع إتاوة سنوية للجلاتيين ثمنا للتوقف عن الإغارة على برجامون[3]. وقد تغير الموقف تماما عندما تولى أتالوس الأول عرش برجامون حيث رفض الاستمرار فى دفع الإتاوة لهم، ولاقاهم عند أحد الأنهار فى آسيا الصغرى عام 230 ق.م، وهزمهم شر هزيمة، واتخذ لقب ملك، ثم أعقبه بلقب المنقذ، وبدا كما لو كان حامى حمى الحضارة الهللينية ضد القبائل البربرية كما يدل على هذا عدد من الرسوم

---

(1) فاروق القاضى(1965)، ص 97.

(2) Appain The Syrian Wars, 65.

(3) Livy XXXVIII,16

والنقوش التى تعود إليه. ويعد هذا الدور الذى قامت به برجامون من أعظم آثارها الحضارية حيث حجمت خطر هؤلاء، وحمت مدن آسيا من خطرهم[1].

ولعل وقوع برجامون بين مملكة السليوقيين وبين مقدونيا جعلها تشعر دوما بالخطر منهما لأنها تقع بين شقى الرحى، من هنا أخذت برجامون تتلمس العون من الخارج، وتحديدا من روما، لأنها أدركت أن بقاءها مرهون بارتكانها الى قوة كبرى فى حجم روما، مع أن هذا لاينفى أن برجامون اعتمدت فى البداية على مساعدة مصر التى استفادت فى المقابل من برجامون فى الحصول على القطران اللازم لصناعة السفن.

وكانت البداية عندما شرع يومنيس الأول فى توسيع حدود مملكته على حساب السليوقيين مما جره إلى الصدام مع الملك السليوقى أنطيوخوس الأول، ونشوب الحرب بين الطرفين. وخلال هذه الحرب وجه الملك البطلمى بطليموس فيلادلفوس جهوده لمساعدة برجامون ضد الملك السليوقى أنطيوخوس الأول. وكان ملوك برجامون فى سبيل تحقيق سيادتهم الفعلية يعتمدون على التحالف مع البطالمة ومناوأة السليوقيين. وقد عقد ملك مصر بطليموس فيلادلفوس تحالفا مع برجامون ساندها بمقتضاه فى حربها ضد أنطيوخوس الأول، وكانت ثمرة هذا التحالف هى نجاح برجامون فى هزيمة السليوقيين فى معركة سارديس عام 262 ق.م، وكانت هذه الموقعة وحدها كافية لدعم يومنيس استقلاله، فضلا عن توسيع حدود مملكته[2].

وقد كانت النزاعات الأسرية فى المملكة السليوقية من أهم عوامل نجاح

---

(1) عن حرب تفاصيل أتاللوس ضد الجلاتيين راجع: Livy XXXVIII,16.14;Poly 18.41-47, here esp., 41.7-8.

(2) إبراهيم نصحى(1984)،جـ1 ص 123-124.

ملك برجامون أتالوس الأول-خليفة يومنيس- فى توسيع حدود مملكته، فقد استثمر تمرد آخايوس الذى بدأ عام 220 ق.م[1] فى استرداد معظم المدن التى فقدها، وفى توسيع حدوده على حساب السليوقيين. وعلى الرغم من هذا فإن أنطيوخوس الثالث اضطر إلى مهادنة أتالوس من أجل القضاء على آخايوس[2].

وقد كانت هزيمة أنطيوخوس الثالث فى معركة رفح 217 ق.م خلال الحرب السورية الرابعة من البطالمة سببا مباشرا فى دفع برجامون للتحالف مع الرومان. وتفصيل ذلك هو أن أنطيوخوس الثالث بعد معركة رفح شرع في إعادة بناء إمبراطوريته، وأخذ يستعيد ممتلكات السلوقيين في آسيا الصغرى، ورأى أتالوس الأول ملك برجامون أنه لا يستطيع الوقوف وحيدا فى وجه أطماع أنطيوخوس الثالث، لذلك رأى أنه لا سبيل إلي مواصلة تحديه له إلا بالاعتماد علي قوى خارجية, ومن ثم كان انتهاجه سياسة غريبة قوامها مصادقة روما، والحصول على عونها, ولم تكن صداقة روما تعنى- فى ظل الظروف التي كانت قائمة فى تلك الفترة- إلا انحدار ملك برجامون إلى وضع العميل الرومانى فى الشرق، وكانت بداية هذه السياسة الغريبة نقطة التحول في تاريخ برجامون بحيث أصبح تاريخ عهود كل من يومينيس الثاني وأتالوس الثالث

([1]) كان آخايوس بن عم أنطيوخوس الثالث قد تولى العرش لبعض الوقت أثناء غياب أنطيوخوس الثالث فى حملته ضد المتمرد مولون وأخيه الإسكندر فى بابل، وقد نجح فى استرداد بعض الأقاليم التى استولى عليها أتالوس ملك برجامون، غير أن هذه الانتصارات التى حققها عام 222-221 ق.م قد خيلت له انه بمقدوره الثورة على أنطيوخوس فقرر غزو سوريا قبل عودة أنطيوخوس من حملته ، لكن جنود آخايوس رفضوا المشاركة فى حملته لأنهم كانوا حريصين علي ولائهم للملك أنطيوخوس. للمزيد عن آخايوس وحركته ومدى استفادة أتالوس من تمرده ،راجع:

Poly IV. 2,6, 48; V.40,42,57;VII.15-18;VIII.15-21.

([2]) جدير بالذكر ان نهاية آخايوس كانت أليمة بعد أن اشتبك معه أنطيوخوس فى حرب غامضة و لم ترد تفاصيلها عند أى من المؤرخين القدماء، لكن ما ورد هو نهاية آخايوس الأليمة بعد أن ضيق عليه أنطيوخوس الخناق، فأمر احد جنوده بتدبير أمر هروبه. وقام هذا الضابط نفسه بتسليمه لأنطيوخوس الذى نفذ فيه الإعدام على الطريقة المحلية الخاصة بمعاقبة الخارجين عن القانون، والتى تقضى بتقطيع أطرافه ورأسه التى خيطت إلى جلد حمار ثم صلب جسده فى مكان عام. مفيد رائف العابد(1993)؛ سورية فى عصر السلوقيين من الإسكندر إلى بومبيوس 333-64 ق.م، دمشق- سوريه، ص 104؛ وراجع أيضا .Poly V,107.4

عبارة عن فصول متتابعة لتوسع روما الاستعماري في الشرق كما سنرى.

وكان من نتيجة هذا أن العلاقات بين السليوقيين وبين برجامون أخذت منحى جديدا وهو المنحى العدائى بين الجارتين. وقد غذت هذه العداوة الدخيلة على الطرفين أطماع روما، إذ كانت برجامون صديق وفيا وعميلا طيعا لروما، وقدمت لها الدعم فى أكثر من مناسبة فى حربها ضد الملك السليوقى أنطيوخوس الثالث، وضد الملك فيليب المقدونى -كما سنرى فى الصفحات التالية-. وكان المقابل هو أن برجامون تمتعت بحماية ووصاية رومانية خالصة، إضافة إلى حصولها على كثير من المكاسب المادية والمزايا من هذه الحروب التى خاضتها روما بمعاونة صادقة من برجامون، وكذلك رودس. وقد قرر الرومان مكافأة برجامون ومنحها مساحات كبيرة من الأراضى التى انتزعتها من فيليب وأنطيوخوس، مما كان له الأثر الكبير فى تحول برجامون من مجرد مدينة – دولة – إلى مملكة كبيرة وقوية، بل الأقوى فى آسيا الصغرى.

ولا يعود تضخم وتوسع برجامون على هذا النحو إلى كرم أو سخاء رومانى لمكافأة حليفها يومنيس الثانى الذى لعب دورا حيويا للغاية فى إشعال الحرب بين روما وأنطيوخوس الثالث، وهو نفس الدور الذى لعبه بين روما وبرسيوس المقدونى، بقدر ما يعود إلى عزوف السناتو الرومانى عن تحمل عبء آسيا الصغرى، لذلك اتجه تفكير الرومان إلى حكم آسيا الصغرى من خلال حلفاء يدينون بالولاء والطاعة لروما، أى حكم آسيا الصغرى لصالح روما دون أن يتحمل الرومان مسئولية حكمها[1].

وقد كان الدور الذى لعبه يومنيس لصالح الرومان مثار استهجان من جانب ذوى النزعة القومية، لذا نددوا به أيما تنديد، وكان يومنيس فى نظرهم هو

([1]) فاروق القاضى(1965)، ص191.

"يهوذا" الذى خان الهللينية، وحرض روما على تحطيم الأسرة السليوقية التى جعلتها الظروف قيمة على رعاية الحركة الهلينية فى الشرق. وقد انتشر شعور دفين بالكره والغضب من هذا الدور الذى لعبه الأتاليين، ويعكس هذا الشعور ذلك الوصف البغيض المرير الذى جاء على لسان العالم اللغوى دافيتاس Daphitas، وكلفه حياته[1] حين قال: " إن الأرجوان الذى تسيد به ملوك برجامون حديثو النعمة على المدن الإغريقية هو أشبه بالآثار الأرجوانية اللون المتخلفة من ضربات السياط على ظهر عبد مسيط"[2].

وبعد تخلص روما من مقدونيا وكذلك من سوريا لم يعد لعملائهـا دور يعلبونه، وبالتالى حانت ساعة خلاص روما من حلفائهـا، ونعنـى برجـامون ورودس. وكانت الحرب المقدونية الثالثة هى البداية كى تتخلص روما منهما معا بعد أن باتت مقدونيا أثرا بعد عين. وقد كان عام 168 ق.م نقطة تحـول فـى علاقة روما بعميلتها برجامون، ففى هذا العام نجحت روما فى الانتصار علـى برسيوس، كما قامت بحمل أنطيوخوس الثالث على الخروج مـن مـصر بعـد وصوله فى غزوه لها إلى مشارف الإسكندرية من خلال سفارة عضو الـسناتو الرومانى بوبليوس لايناس. وبداية من هذا العام تـشكلت سياسـة رومـا إزاء عملائها وحلفائها (مملكة برجامون وجمهورية رودس وعصبة آخايا وأيتوليا في بلاد الإغريق) فى شرقي البحر المتوسط على نحو جديد من التحكم والتسلط.

ولكن ماهو سبب هذا التغيير فى سياسة روما إزاء حلفائها وخـصوصا يومنيس ملك برجامون؟

([1]) جدير بالذكر ان سخرية دافيتاس على هذا النحو كانت سببا فى إصدار أتالوس ملك برجامون امراً بـالقبض علية وقتله من خلال رميه من أعلى قمة احد الجبال.

Val Max I,8; Cicero De Fato 3; Strabo XIV,39; Willam Smith; *A Dictionary of Greek and Roman Biography and Mythology*, vol I, p 938.

([2]) سيد الناصرى (1992)؛ *تاريخ و حضارة مصر والشرق الأدنى فى العصر الهللينستى*، القاهرة، ص 250.

يذكر اثنان من كبار المؤرخين الكلاسيكيين وهما بوليبيوس وليفيوس أن السبب هو موقف يومنيس أثناء الحرب المقدونية الثالثة، حيث إنه أراد التوسط بين الرومان وبين برسيوس لإنهاء هذه الحرب من أجل تحقيق فائدة مزدوجة، لذا أرسل يومنيس أحد رجاله المدعو كيداس Cydas الكريتي إلى برسيوس للتفاوض معه لمعرفة الثمن الذى كان على استعداد لدفعه له لقاء توسطه لدى الرومان وإنهاء الحرب. وقد شكك البعض في وجود مثل هذه المفاوضات أصلا؛ لأنه من غير المعقول أن يضحى يومنيس بما كان منتظرا أن يناله من غنائم بعد انتصار روما المرتقب على مقدونيا لقاء مبلغ من المال، أو أن يتعاون مع برسيوس الذى حاول قتله من قبل، لذلك فإن هذه المفاوضات عبارة عن اتهام مختلق من المؤرخين الرومان ضد يومنيس هدفه الأول تبرير سياسة روما العدوانية تجاه برجامون بعد انتهاء دورها. أما إذا ما سلمنا جدلا بوجود مثل هذه المفاوضات فلعل دافعها الأول كان الخوف الذى انتاب يومنيس من ضغط روما عليه بعد فراغها من تحطيم قوة مقدونيا نهائيا؛ لأنه أحس أن انتصار روما في هذه الحرب- التى لعب هو دورا مهما فى إشعالها- سوف يؤدى إلى زيادة ضغط روما عليه، وما قد يستتبع هذا الضغط من خطر لا طاقة له به لأنه لم يعد لديه قوة يرتكن إليها فى مواجهة الرومان[1].ولهذا فما كادت الحرب تنتهى حتى تخلت روما عن مساعدة يومنيس، بل إنها حاولت جاهدة بذر بذور الشقاق داخل العرش البرجامي، وذلك من خلال استقطاب وتأليب شقيق يومنيس المدعو أتالوس الذى كان محبوبا لدى الأوساط الرومانية، وكانت روما ترغب فى اقتسام مملكة برجامون بينه وبين أخيه بمنحه جزءا من مملكة أخيه، حيث

([1]) فاروق القاضى(1965)، ص 217، وعن تفاصيل المفاوضات وتحليل موقف يومنيس وسفيره كيداس الكريتى إلى برسيوس، انظر: Livy XLIV,24. Poly XXIX,6-8;

إن روما لم تتورع عن اصطناع وسائل الدس وبذر بذور الشقاق بين أفراد الأسرة الملكية الحاكمة تنفيذا لسياستها في إضعاف الممالك. وكانت زيارة أتالوس إلى روما عام 167 ق.م فرصة مناسبة لكى يمارس بعض أعضاء السناتو الرومانى عليه هذه السياسة لعله يستجيب، وبذلك تكون قد أفلحت فى بلوغ مأربها فى شطر برجامون بين الشقيقين، وبالتالى إضعافها وتحجيم نفوذ وقوة يومنيس الثانى عميلها السابق.

أما عن سبب زيارة أتالوس إلى روما فهو تقديم التهنئة للرومان بمناسبة تحقيق النصر على برسيوس فى بيدنا، وفى الوقت نفسه تقديم شكوى إلى السناتو ضد الجلاتيين الذين كانوا دائمى الإغارة على ممتلكات برجامون الشرقية، وأضاف إلى هذا اقتراحا بأن يمنح حكم مدينتي أينوس ومارونيا في تراقيا.

وقد وافق رجال السناتو على مطالب أتالوس على أمل أن يوافق هو على مطلبهم باقتسام مملكة برجامون بينه وبين أخيه. ويذكر بوليبيوس أن أتالوس فكر فى الأمر، وكاد أن يوافق على ماعرض عليه، غير أن وصول طبيب أخيه الخاص إلى روما أنقذه من السقوط فى بئر خيانة أخيه بأمر من الرومان. وسرعان ماهم أتالوس بمغادرة روما على عجل، فأثار هذا رجال السناتو الذين لم يجدوا رد فعل إلا إلغاء ما سبق أن وافق عليه السناتو من منحه حكم أينوس ومارونيا, وبتقرير إرسال بعثة للتحقيق في إغارات الجلاتيين على برجامون. ولم تعط هذه البعثة عند وصولها إلى آسيا أى حق لبرجامون، بل رفضت حتى حضور الطرف البرجامى اجتماعها بممثلي الجلاتيين فى إحدى مدن فريجيا, وفى نهاية الاجتماع أبلغت البعثة برجامون أن شكاواها لم تزد الجلاتيين إلا ضراوة, وأنه لا يمكن التوصل إلى حل معهم، وكان هذا يعنى ضمنا تخلى روما عن برجامون، وتركها وحيدة لمواجهة الجلاتيين[1].

(1)Poly XXX, 1-3; Livy XLV,19-20.

ومن ناحية ثانية بدأت روما تسئ معاملة يومنيس ملك برجامون الذى وصل إلى ميناء برنديزى الإيطالى بعد حوالى عشرين عاما من انتصار ماجنيسيا لتقديم شكوى ضد الجلاتيين، وطلب مساعدة الرومان، وقد توقع ان يستقبله الرومان بحفاوة كما تعود، غير أنه فوجئ بشئ آخر مخالف حيث خاب أمله، فلم يجد فى استقباله إلا موظفاً برتبة كوايستور، استقبله بفتور كبير، وسأله عن الغرض من الزيارة، ثم أخطره بكل صلف وجفاء" إن كان لديه شئ يريد إبلاغه للسناتو فليقله، أما إذا لم يكن لديه شئ فعليه أن يغادر إيطاليا فى أسرع وقت ممكن. ووقف الملك البرجامي مندهشا وفارغاً فاه لا يدرى ماذا يفعل بعد أن رد بأنه ليس لديه شئ يقوله أو يطلبه بعد أن تيقن من أن روما لن تصدق فى معاونته على صد هجمات الجلاتيين، وإنما بدت وكأنها تتمنى لو أنه لقى الهزيمة على أيديهم، فانقلب يومنيس راجعا إلى مملكته ذليلا مهانا ليتدبر أمره وحده مع الجلاتيين[1].

ويرجع السبب الحقيقى لمعاملة الرومان لحليفهم الوفى بهذا الجفاء والقسوة إلى أن روما لم تعد بحاجة إلى خدمات برجامون بعد أن فقدت مبررات وجودها، حيث أدت دورها على خير ما يرام، وكانت مخلب القط الذى جر القوى الكبرى- مقدونيا وسوريا - التى كانت تخيف روما للحرب، وقدمت المساعدة لروما فى هذه الحروب، وبعد أن عُقد لواء النصر للرومان، وبسطوا سيطرتهم الفعلية على ممتلكاتهم بعد تحطيمهم، لم يعد هناك ما يخيفهم، لذلك فقد حقق العميل الغرض المطلوب، ولم يعد ثمة ما يدعو إلي الإبقاء عليه وهو على هذا القدر من القوة والاتساع.

وجدير بالذكر أن غضب الرومان على يومنيس الثانى قد أدى إلى زيادة

([1]) Poly XXX,19. 7-10.

شعبيته بين الإغريق[1]، ويؤكد هذا الشعور ذلك المرسوم الذى صدر عن عصبة المدن الأيونية، وتلقاه فى ديلوس، وفيه أعربت العصبة عن شعورها بالفخر والامتنان لدوره فى صد البرابرة الجلاتيين، والحفاظ على أمن وسلامة المدن الإغريقية، كما أنه عرضت عليه إقامة مهرجان له من أجل وضع تاج ذهبى على رأسه، فضلا عن إقامة تمثال ذهبى له، وقد رد يومنيس عليهم بخطاب أعرب فيه عن شكره وشعوره بالامتنان والعرفان لهم على هذا التكريم، وذكر أنه ينتهج سياسة والده فى الحفاظ على أمن وسلامة المدن الإغريقية، وأنه سوف يستمر على هذه السياسة من أجل توفير الحماية للمدن الإغريقية[2] .

وقد توفى يومنيس الثاني في عام 160 ق.م وخلفه أخوه أتالوس الثانى الذى استمر فى الحكم حوالى واحد وعشرين عاما(160-139 ق.م)، وخلال هذه الفترة أصبحت برجامون مجرد تابع لروما حيث كان أتالوس حريصا على تلبية كل ما تطلبه روما مذعنا كل الإذعان لمشيئتها، كما كان يحجم عن أى عمل -حتى لو كان يمس استقلاله- تجنبا لغضب الرومان. وهناك نقش[3] يتعلق بأحد الأسرار العسكرية الخاصة ببرجامون حيث كان ملكها أتالوس الثانى ينوى القيام بغزو عسكرى للجلاتيين، ثم عدل .عن ذلك خوفا من غضب الرومان. والنقش هو عبارة عن خطاب موجه من الملك أتالوس الثانى إلى أحد الكهنة فى فريجيا يدعى أتيوس Attis ، ويكشف هذا الخطاب عن خوف أتالوس الشديد من الرومان، وحرصه على رضائهم. لقد كان أتالوس يعمل ألف حساب للرومان، لذلك نراه يقلع عن القيام بحمله عسكرية على الجلاتيين تجنبا لغضب

(1) Poly XXXI,6.6.
(2) OGIS 763; M. Austin (1981); *The Hellenistic world from Alexander to the Roman conquest*, Cambridge, 203.
(3) OGIS 315,VI;Austin(1981), 208; Graham Shipley (2000); *The Greek world after Alexander 323-30 B.C*, London & New York, pp 317-318.

الرومان، إذ يقول لصديقه إنه قرر أن يرسل إلى الرومان كى يستشيرهم فى كل أموره؛ لأنه لا يريد أن يتعرض لغضبهم مثلما غضبوا على أخيه من قبل.

وبعد وفاة أتـــالوس الثانى تولى العرش ابن أخيه أتالوس الثالث بن يومنيس الثانى، وأمه هى ستراتونيكا Stratonica، ومن فرط حبه لأمه حمل لقب فيلوميتورPhilometor ، أى المحب لأمه، ولم يرث أية مهارات عسكرية، أو مؤهلات سياسية من أبيه أو عمه، وكان رجلا مضطرب النفس، غريب الأطوار. وبعد حكم قصير لم يتعد خمس سنوات مات أتالوس الثالث في عام 133 فجأة تاركا وصية أورث فيها مملكته للرومان، وقد أعلن السناتو الرومانى قبول التركة بلا تردد , ولم تحدث أية معارضة لضم برجامون إلى الدولة الرومانية[1]. وجدير بالذكر أن نص الوصية لم يصل إلينا، وإنما المصدر الأول عن محتوياتها مستمد من نقش[2]، وهو عبارة عن قرار أصدره مجلس مدينة برجامون عقب نشر الوصية يؤكد ما جاء فى الوصية من أن تؤول مملكة برجامون إلى الرومان عدا مدينة برجامون ذاتها التي تبقى حرة، وتُلحق بها منطقة زراعية Chora بسيطة. وقد بدد هذا النقش كل الشكوك التى ساورت الكثيرين حول مصداقية الوصية التى اعتبرها البعض مدسوسة على أتالوس الثالث من الرومان، وهذا ما ذكره صراحة ميثراداتيس ملك بنطوس فى رسالته إلى أحد الملوك المعاصرين له[3]. إلى جانب ذلك فقد كان لهذه الوصية أثر كبير فى الصراع داخل روما بين الأخوين جراكوس والسناتو الرومانى الذى وقف بالمرصاد لمحاولات تيبريوس جراكوس الإصلاحية الخاصة بمشروع الإصلاح الزراعى[4]Lex Sempronia Agraria ، إذ حاول السناتو

(1) OGIS 435.
(2) OGIS 338; Austin(1981), 211.
(,17.*Epistula Mithridatis*[3]) Sallust,
(4) عن هذا المشروع راجع: عبد اللطيف احمد على (1988) صص 2-12.

عرقلة المشروع بدعوى نقص التمويل المادى اللازم له، إلا أن تيبريوس استصدر قرارا شعبيا بتخصيص جزء من تركة أتالوس الثالث لتمويل المشروع، ومن هنا كانت وصية أتالوس بمثابة طوق النجاة لتيبريوس جراكوس من أجل المضى قدما فى مشروع الإصلاح الزراعى[1].

لكن ماهى دوافع أتالوس الثالث لترك مثل هذه الوصية؟ الواقع أنه مهما قيل من تفسيرات فى هذا الشأن فإن الحقيقة الوحيدة هى أن هذا تصرف غريب وغير مسبوق من جانب أتالوس يبرهن على أن برجامون فضلت أن تكون من رعايا روما لا من حلفائها. أما عن دوافع هذا التصرف فلعله أدرك حقيقة الوضع الجديد حيث أصبحت روما القطب الأوحد، ولابد أن يسلم الجميع بطاعة وسيادة الرومان عليهم. لقد كان الملك واقعيا فى تفكيره إذ أدرك حقيقة الوضع الذى انتهت إليه مملكته من تبعية مطلقة لروما, وأن الرومان يستطيعون الاستيلاء على برجامون في أى وقت شاءوا، لذلك أراد أن ينهى حياتها " بيده لا بيد روما"، كما أنه قد حملعلى عاتقه عبئا ثقيلا فى آسيا الصغرى دون أن يتمتع بشئ من تلك الامتيازات التى تغرى حاكما عميلا بالمثابرة, فأراد أن يسقط هذا العبء عن كاهل خلفائه الذين قدر أن مركزهم سيكون أسوأ من مركزه، لذا رأى أن تتحمل روما هذا العبء مباشرة[2].

وبعد وفاة أتالوس، وقبول روما التركة لم تهدأ الأمور فى برجامون إذ واجهت روما خطر التمرد والثورة التى تزعمها شخص يسمى أريستونيكوس Aristonicus، والذى طالب بحقه فى تولى العرش على اعتبار أنه ابن غير شرعى للملك يومنيس الثانى من إحدى خليلاته في إفيسوس، وبعد طرده من إفيسوس ذهب أريستونيكوس إلى المناطق الداخلية فى آسيا الصغرى حيث تسنى

([1])Livy, Periochae, LVIII: Plut.Ti Graccus,14; Appian,Mithradates ,IX,62.

([2]) فاروق القاضى (1965)،ص 219

له تكوين قوة عسكرية كبيرة قوامها من المعدمين والعبيد الذين أغراهم بالحرية من أسر العبودية لمحاربة الرومان والاستيلاء على برجامون، وأطلق على أتباعه اسم أبناء مدينة الشمس Heliopolitai. وقد نجح فى أول الأمر فى تحقيق عدة انتصارات عسكرية على حلفاء روما في آسيا الصغرى وهم ملوك بنطس وكابادوكيا وبافلاجونيا وبيثينيا, إضافة إلى جيش رومانى يقوده القنصل بوبليوس كراسوس Publius Crassus عام 131 ق.م، وكان قد سبقة خمسة سفراء للتفاوض مع أريستونيكوس. وقد دعمت هذه الانتصارات موقف أريستونيكوس، فحاول اجتياح إقليم كاريا، ومحاصرة مدينة كيزيكوس، غير أن الرومان أرسلوا جيشا بقيادة القنصل ماركوس بربرنا Marcus Perperna الذى نجح فى هزيمة أريستونيكوس فى إقليم ليديا بآسيا الصغرى، وألقى القبض عليه حيا، وأرسله إلى روما كى يعدم هناك عام 130 ق.م، غير أنه انتحر فى السجن، ولم يتمكن الرومان من إعدامه[1]. وقد منح السنانو الرومانى حلفاء روما خصوصا حكام بونطوس وبافلاجويا الأجزاء الداخلية من ممتلكات برجامون؛ لأن السناتو كان غير راغب فى تحمل أعباء حكم هذه المناطق الداخلية، فيما أرسل السناتو القنصل مانيوس أكويليوس Manius Aquilius يرافقه عشرة سفراء عام 129 ق.م لتنظيم بقية الأجزاء – وخصوصا ما كان حكمه يسيرا ودخله وفيرا– في شكل ولاية رومانية حملت اسم ولاية آسيا Provincia Asia ليمتد نظام الولايات الرومانية إلى القارة الثالثة، وكان هذا إضافة رائعة لسلطات روما[2].

---

(1) Strabo XIV,1.38; Austin(1981), 212.

(2) ددلى(1979)، ص 90؛ عبد اللطيف أحمد على(1974)، ص ص 233-234.

جمهورية رودس Rhodus

رودس هى تلك الجزيرة التى لا تزيد مساحتها عن 420 ميلا مربعـا، وتتاخم إقليم كاريا بآسيا الصغرى، وقد استعمرها إغريق دوريون منذ القـدم[1]. وكان الحكم فى رودس جمهوريا ديمقراطيا، وكان رخاؤها يعتمد- إلـى حـد بعيد- على التجارة. وعقب وفاة الإسكندر زادت تجارتها وانتعـشت، وفتحـت أمامها أبواب الاتصال المستمر بكل من مصر وقبرص وفينيقيا. ولم يأت القرن الثالث قبل الميلاد حتى كانت رودس أغنى المدن اليونانيـة، ومكنهـا تقـسيم إمبراطورية الإسكندر من أن تدعم أركان استقلالها، وتنتهج سياسـة خارجيـة تتفق ومصالحها. وقد أثارت سياستها ديمتريوس بن أنتيجونوس فحاصر الجزيرة التى استبسل رجالها فى الدفاع عنهـا، وقـاوموا بـشجاعة فائقـة، فـضرب ديميتريوس عليها حصاره الشهير 205-304 ق.م لذلك اكتسب لقب ((محاصر المدن))، وفى النهاية فشل فى دخولها، وخرجت من هذه المحنة أكثر قوة وثباتا. وكان مرد صمود رودس هو إمداد بطليموس الأول ملك مصر لها بعـدد مـن الجنود المرتزقة، وكميات كبيرة من المؤن والغذاء. وقد حفظ سكان الجزيرة هذا الجميل لبطليموس، فأقاموا له هيكلا أطلقوا عليه اسم بطولمايون Ptolemaeon، بينما رفعوا بطليموس نفسه لمصاف الآلهة، وأطلقوا عليه لقب سوتير Soter أى الإله المنقذ كما ذكر باوسانياس[2].

وخلال القرن الثالث قبل الميلاد استطاعت أن تحـافظ علـى كيانهـا واستقلالها بعيدا عن الممالك الهللينستية، كما أنها ورثت عن البطالمـة مهمـة حراسة بحر إيجة، وكبح جماح القراصنة فى مياهه باستخدامها أقوى أسـطول بحرى فى ذلك العصر، كما أنها مارست نوعا من الحماية والوصاية على مدن

([1]) عن وصف الجزيرة و طبيعتها الطبوغرافية و مواردها، راجع: Diod XIX,45

([2]) Diod XX, 81-88; 91-99;100.3-4; Plut., Demetr,21-22; Paus I,8.6. .

بحر إيجة، ولعل هذا يفسر اصطدام مصالحها مع كل من فيليب الخامس المقدونى و أنطيوخوس الثالث ملك السليوقيين، لذلك شاركت برجامون فى مخاوفها من المقدونيين والسليوقيين -على حد سواء- بسبب حرصها على مصالحها التجارية التى كانت تقتضى القضاء على قوة أنطيوخوس البرية والبحرية، والتى كانت تسيطر علي طرق التجارة في آسيا حتى لو أدى ذلك إلى التعاون مع البرابرة الرومان ضد بنى جلدتهم، لذلك نجد أنها ارتمت فى أحضان الرومان، وتعتبر هى وبرجامون المسئول الأول عن تدخل روما فى شئون الشرق الهللينستى[1].

وقد كانت معركة بيدنا عام 168 ق.م خطا فاصلا فى علاقتها بالرومان مثلها مثل برجامون بسبب محاولة التوسط بين برسيوس وبين الرومان لإنهاء الحرب، والغريب أن توسطهما لإنهاء الحرب حدث حينما كانت روما تستعد لسحق برسيوس, ولم تتدخلا فى البداية حين كان موقف القوات الرومانية متأزماً فى الحرب أمام برسيوس[2]، من هنا تغير موقف روما منهما بعد انتهاء الحرب، وذاقت رودس مرارة كونها حليفة للرومان، ومحاولتها استعادة قدر ما من احترام الذات، ولم يتذلل شعب رودس للرومان مثلما فعل يومينيس الثانى ملك برجامون، بل احتفظ بكبريائه، فقد تحدث مندوبوه إلى الرومان بجرأة ووضوح محذرين إياهم من مغبة التراجع عن سياسة منح الحرية لكافة المدن الإغريقية وإلا دفعت روما الثمن غاليا. وبعد انتهاء الحرب عاملت روما رودس معاملة عدائية يكتنفها الشك، فحرمتها من أملاكها فى آسيا الصغرى، ثم أفسدت نشاطها التجارى إفسادا متعمدا عندما حولت جزيرة ديلوس إلى سوق دولية لتجارة الرقيق، وإلى أكبر محطة للتجار الإيطاليين، وبالتالى سرقت الأضواء من

([1]) عبد اللطيف أحمد على(1974)، ص 216.

([2]) Poly XXX,6-9

رودس التى كسدت تجارتها[1]، وبالتالى أصبح هناك فراغ نتج عن غيـــاب قـــوة رودس الاقتصادية، واختفاء هيمنة السليوقيين البحرية،وفى ذات الوقـــت الـــذى كانت فيه بحرية ديلوس عاجزة عن السيطرة على البحار اختل الأمن في بحر إيجة وشرق البحر المتوسط, فغدا وكرا وملاذا للقراصنة الـــذين ألحقـــوا أكبـــر الأذى بالتجارة العالمية، ووصل انتشار القراصنة فى هذا البحر إلـــى درجـــة مخيفة، ولم يعد شرق البحر المتوسط آمنا للتجارة بعد انقلاب موازين القوى[2].

---

(1) Poly XXX,31

(2) الناصرى(1992)، ص 251.

طـور الاستعمار

رومـا ومقـدونـيـا

نرى أن نقطة البداية فى سيطرة الرومان علـــى العـــالم هـــى الحرب البونية الثانية أو حرب هانيبال (218-202 ق.م) التى كانت لها نتائج بعيدة المدى؛ لأنها كانت بداية الطريق نحو الإمبراطورية الرومانية فى الخارج، إذ أصبحت صقلية وسردينيا وإسبانيا ولايات رومانية، وذاقت روما لذة تكوين ولايات خارج إيطاليا، وتفتحت شـــهية الرومان للمزيد والمزيد من الممتلكات بعد أن تحولت روما إلى ســـيدة حـــوض البحر المتوسط الغربى بلا منازع، وكان عليها أن تولى وجهها شطر الحـــوض الشرقى للبحر المتوسط حيث الممالك الهللينستية الثلاث التى تمخضت عن تقسيم تركة الإسكندر الأكبر بعد وفاته بين قواده، هذا إلى جانـــب بعـــض الممالـــك الصغيرة الموجودة فى الشرق، وقد أفلحت روما فى ابتلاع الواحدة بعد الأخرى، وكان احتلال مصر هو مسك الختام بالنسبة للرومان حيث اكتملـــت منظومـــة الفتوحات الرومانية، وأصبح الرومان القطب الأوحد فى العالم المسكون حينذاك، وتحول البحر المتوسط إلى بحيرة داخلية بالنسبة لهم. وكان هذا مثـــار تعجـــب بولبيوس[1] نفسه الذى ذكر أن هذا الأمر يعد شيئا فريداً فى التـــاريخ، وهـــو أن يتمكن شعب من أن يبسط سيطرته على كل العالم المسكون حينذاك تقريبا فـــى أقل من 53 سنة، فما هى الوسائل؟ وماهى طبيعة النظام الذى مكن الرومان من هذا؟

لقد كان هدف روما من التدخل فى الشرق الهللينستى هو الحيلولة دون قيام أى نظام سياسى قوى فى الشرق يُخشى أن يكون خطرا على الدولة الرومانية، وكلما تضاعف عدد الدول المستقلة فى الشرق كلما كان ذلك أجدى وأنفع بالنسبة لروما، وكلما زادت الارتباكات وتعقدت الأمور الداخلية لكل دولة

---

(1) Poly I, 5-6.

من دول الشرق كلما تضاعف أمل روما في أن تصبح سيدة الموقف والقوة المتحكمة في مصير الشرق بأسره.

وقد اعتمد الفكر العسكرى خلال هذه المرحلة على عدد من الآليـــات أو الوسائل التى كان أهمها على الإطلاق ما يعرف باسم الممالك العميلـــة التـــى عرضنا لها فى موضع سابق مثل نوميديا وبرجامون ورودس، وقد كانت هـــذه الممالك -خصوصا برجامون ورودس- أداة طيعة فى يد الرومان لجر مقدونيا وسوريا لحلبة القتال. أما بالنسبة للممالك الهللينستية الكبـــرى فقـــد اســـتنفدت الموارد الاقتصادية المتاحة لا فى كفاحها ضد روما، وإنما في حروب طاحنـــة مستمرة فيما بينها.

وقد كانت بلاد اليونان ذات أهمية كبرى خـــصوصا بالنـــسبة لمقـــدونيا لوقوعها بالقرب منها مباشرة، ومنذ أن قام فيليب وابنه الإسكندر بغـــزو بـــلاد اليونان لتأمين ظهره قبل قيامه بحملاته على بلاد الفرس صار لمقـــدونيا حـــق التدخل والتسلط ، لذلك عملت على تثبيت أقدامها فى بلاد اليونان مـــن خـــلال احتلال ثلاث قلاع كانت بمثابة مراكز إستراتيجية، وهذه القلاع هى ديمتريـــاس وخالكيس وكورنثا التى اشتهرت باسم "أغلال بلاد اليونان". ومن نافلة القول أن نذكر أن محاولة تجميع بلاد اليونان فى شكل حلف هو تقليد قديم يرجع إلى أيام فيليب الثانى الذى أنشأ عصبة كورنثا تحت زعامته[1]. وقد كان فى بلاد اليونـــان اتحادان فيدراليان هما الحلف الآخى والحلف الأيتولى، وقد قدر لهما أن يكونـــا آخر تجربة من تجارب اليونان السياسية، ولكن لم يكونا بأى حال من الأحـــول أقل هذه التجارب شأنا. هذا بالإضافة إلى وجود نماذج من دولة المدينة القديمـــة مثل أثينا وإسبرطة وغيرهما من المدن الأخرى، وقد تمتعت هذه المدن بمكانة

([1]) عبد اللطيف أحمد على (1974)، ص 214.

أدبية محترمة غير أن النفوذ الذى تمتعت به كل مدينة قد تضاءل كثيرا[1].

وإذا كانت روما ترمى إلى حماية نفسها وإيطاليا من القوى الاستعمارية الشرقية خصوصا سوريا ومقدونيا، فإنها فى ذات الوقت كانت ترغب فى حماية تجارتها مع بلاد الإغريق من دولة إلليريا الواقعة على الشواطئ الشرقية للبحر الأدرياتي، وكان تحت إمرتها عدد كبير من القراصنة، وقد هدد نشاط هؤلاء القراصنة الإلليريين البحرين الأدرياتى والأيونى، وبالتالى شكلوا خطرا كبيرا على سواحل إيطاليا الجنوبية.

لقد أعتاد القراصنة الإلليريون الإغارة على السفن التي تبحر من إيطاليا، وسرقتها وقتل أعداد كبيرة من التجار الإيطاليين، وأسر عدد آخر منهم حتى أنه كان هناك عدد ليس بالقليل مسجونين لديهم. وكان الرومان إلى هذا الوقت لم يعيروا أى اهتمام لهذه الشكاوى المقدمة ضد الإلليرين، لكن عندما تقدم عدد من الأشخاص بشكاوى إلى السناتو بخصوص هذا الموضوع، أوفد السناتو سفيرين لبحث الأمر مع الإلليرين، وخلال اللقاء بين هذين السفيرين وبين الإلليرين اتسم أسلوب سفيرا روما بالعجرفة والتكبر، وقد رد اللاليريون بأنه ليس هناك أى ضرر على الرومان من هذه القرصنة، غير أن رد سفيرى روما حمل لغة التهديد والتحدى للإلليرين بصراحة ووضوح. وعلى الرغم من هذا فإن الإلليريين هاجموا ميناء كوكيرا ومدينة ابيدامنوس Epidamnus وذلك بدعم من حلفائهم أهل اكارنانينا Akarnania. ومن أجل مواجهة خطر الإلليريين أرسلت روما أسطولا مكونا من مائتى سفينة بقيادة القنصلين جنايوس فولفيوس Gnaeus Fulvius ، إلى جانب جيش برى قاده القنصل الآخر أولوس بوستيموس Aulus Postumius، وقد أفلح هذا التحرك العسكرى الرومانى فى وضع حاميات رومانية فى بعض المدن الإغريقية الساحلية مثل أبوللونيا

([1]) ددلى(1979)، ص83.

Apollonia وبرونديزوم Brundisium وإبيـدمونس، وهـى مـدن كانـت محاصرة من الإلليريين، إضافة إلى ذلك فقد سلك أهل كوركيرا نفس المـسلك، وقد كانوا سعداء بحماية الرومان لهم -إلى حد كبير- لأنهم اعتقدوا أن هذه هى الطريقة الوحيدة من أجل حماية أنفسهم مستقبلا من عدوان الالليريين، ثم تبـع ذلك تحرك القنصلين إلى داخل الأراضى الإلليرية. ولـم تـستغرق العمليـات الحربية فى أراضى إلليريا إلا أشهراً معدودة بعدها نجح الرومان فـى فـرض شروطهم على الإلليريين، وبمقتضى معاهدة الصلح بين الطرفين أصبحت روما تمتلك حاميات عسكرية فى المدن الساحلية الإغريقية مثل أبولونيا ودرواخيـوم وأوريكوس، وجزيرة إيسا وجزيرة كوركيرا. وبعد الانتهاء من المعاهدة أرسـل القنصل بوستيموس مبعوثين إلى كل من الحلف الآخى والحلف الآيتولى حيـث شرحا لمندوبى الحلفين أسباب الحرب، وأسباب عبورهم البحر الأدرياتى، فضلا عن إطلاعهم على بنود الاتفاق الموقعة مع الإلليريين.

كذلك استهدف الرومان الاستيلاء على مضيق أوترانتو وهـو الطريـق الرئيسى للمواصلات بين بلاد الإغريق وإيطاليا، وكان هذا التصرف من جانب روما يعد اعتداءً صريحاً على حقوق مقدونيا التى كانت لا تشعر بالاطمئنان فى ظل وجود روما على مقربة منها محتلة لجزء من شاطئ إلليريا[1]، كمـا كانـت روما تخشى حدوث تقارب بين الإلليريين وبين مقدونيا لذلك جردت حملة ثانية إلى إلليريا نجحت فى خلال بضعة أشهر أن تنهى أعمالها العـسكرية هنـاك، وتمخض عنها توطيد النفوذ الرومانى فى البحر الأدرياتى، كما أنها أصـبحت على اتصال وثيق بالإغريق[2].

ويعتقد البعض أن الحرب ضد الإلليريين كانت وسيلة دبرها السناتو ليبدأ

(1) Poly., II.8-12.
(2) Poly III,16.

بها توسعه فى الشرق، وعلى الرغم من ذلك فإن المؤرخ جوستينوس Justinus ذكر أن أهل اكانارنيناAkanarnia قد طلبوا الدعم من روما لمواجهة خطر الإلليريين الذين غزوا أراضيهم[1].

وقد كان تولى فيليب الخامس عرش مقدونيا نقطة تحول فى الأمور داخل الحلف الآيتولى، حيث توقع الآيتوليون أنهم سوف يتمكنون من بسط سيطرتهم على بلاد الإغريق، مما أدى إلى نشوب حرب بين الطرفين انتصر فبها فيليب عليهم، وانتهت الحرب عام 217 ق.م بتوقيع صلح ناوباكتوسNaupactos بين فيليب الخامس والآيتوليين.

بعد ذلك بدأ الصراع العنيف بين فيليب الخامس وروما من أجل السيطرة على إلليريا فيما عرف باسم الحرب المقدونية الأولى التى استمرت ست سنوات (212–206 ق.م). وقد قامت هذه الحرب بسبب محاولة فيليب الخامس ملك مقدونيا مساعدة قرطاجة ضد روما حيث عقد تحالفا مع هانيبال عام 215 ق.م متمنيا أن ينتصر هانيبال على روما، وبذلك يتمكن من طرد الرومان من شبه الجزيرة اليونانية[2].

وقد شعرت روما بخطورة هذا التقارب الذى تم بين فيليب الخامس وهانيبال، ووفقا للمبدأ المهم الذى كان حجر زاوية فى فكر روما العسكرى وهو أن روما اعتادت ألا تجمع عليها عدوين فى وقت واحد، لذلك نراها تتلمس أسلوبا ما للقضاء أوعلى الأقل إضعاف هذا التحالف الذى كان موجها فى الأساس ضدها، وفي هذا السبيل سلكت روما مسلكين هما:

الأول: تكوين حلف مضاد، حيث أمرت قائد الفرق الموجود فى تارنتوم وكان يدعى فاليريوس لايفينوس Valerius Laevinus بالتحرك إلى إلليريا

(1) Justin XXVIII.1-5.
(2) Poly VII, 9.

لمواجهة فيليب والحيلولة دون انضمامه لهانيبال من خلال استخدام خمسين سفينة رومانية محملة بالجنود، وهنا وجد فيليب نفسه عاجزا عن مواجهة الأسطول الرومانى، أو مساعدة هانيبال، أو حتى إبعاده عن إلليريا، ثم تحركت بعض القطع إلى المياه الإغريقية وظهرت فى آيتوليا، وذلك بهدف عقد معاهدة معها لتكوين حلف مضاد لفيليب، وبالفعل نجح فى تكوين تحالف مع الآيتوليين، وانضم إليه مدن اليس وميسينيا وإسبرطة فضلاً عن برجامون. وكان انضمام برجامون للحرب ضد فيليب بداية الصلة بين روما وبرجامون تلك الصلة التى كانت بعيدة الأثر على روما ومقدونيا وسوريا. وقد شعر لايفينوس بالسعادة والرضا لأنه أدرك أن فيليب مشغول بما فيه الكفاية لدرجة تمنعه من التفكير فى إيطاليا أو فى القرطاجيين وتحالفه مع هانيبال[1].

الثانى: مهادنة فيليب إذ أنها هادنت فيليب، وعقدت معه اتفاقية عام 206 ق.م. وكان الآيتوليون قد قرروا عقد الصلح مع فيليب عام 206 ق.م قبل أن تجنح روما نفسها للسلم –ولكن إلى حين– مع فيليب، فعقدت معه صلحا كان له مغزى كبيراً فى هذه المرحلة من تاريخ روما، إذ تم عقد الصلح بوساطة أهل ابيروس وفى إحدى مدنها المهمة وهى فينيقى Phoenice، وإليها نسب هذا الصلح[2].

وقد حققت روما من وراء هذا الصلح مكاسب جمة أهمها على الإطلاق أنها ضمنت عدم انضمام فيليب لهانيبال أو تقديم أية مساعدة له، ومن المكاسب أيضا زيادة نفوذ روما فى بلاد الإغريق، كذلك كسبت روما عميلا مخلصا وفيا لها فى آسيا الصغرى وهو أتالوس الأول ملك برجامون الذى اعتقد الرومان أن بوسعه عمل أشياء كثيرة لصالحهم ضد فيليب كما ذكر ليفيوس. وتوطيدا لعرى هذه الصداقة أرسل الرومان سفارة إلى برجامون ضمت مجموعة ممتازة من

(1) Livy XXVI.24.
(2) Livy XXIX. 12.

القادة الرومان وهم فاليريوس لايفينوس القائد الرومانى الذى كان مسئولا عن العمليات العسكرية فى بلاد الإغريق، والذى انتخب قنصلا مرتين، كايكيليوس ميتيللوس Caecilius Metellus وهو برايتور سابق، وسولبيكيوس جالبا Sulpicius Galba أيديل سابق، إلى جانب كوايستوريين سابقين وهما تريملليوس فلاكوس Tremellius Flaccus وفاليريوس فالتو Valerius Falto، وكان مقررا أن يبحروا فى مظهر كبير من مظاهر الأبهة والفخامة، وذلك بدافع بث الخوف والرهبة فى قلوب الشعوب الشرقية من الرومان. وفى طريقهم إلى آسيا مروا بدلفى لاستشارة الوحى، ولكى يتحققوا من جدوى سفارتهم ومهمتهم. وقد أُخبروا بأنهم سوف يحققون غرضهم من الزيارة للملك أتالوس، ولكنهم عندما ينقلون الربة (المقصود تمثال الربة) إلى روما عليهم أن يهتموا بأن أفضل الناس وأنبلهم هو من يقوم بالاستقبال الملائم لها.

وقد استقبلهم الملك أتالوس استقبالا رائعا يليق بهم، وأنزلهم منزلا ملكيا، ثم سلم لهم الحجر المقدس الذى كان الوطنيون يطلقون عليه اسم "أم الآلهة"، وأوصاهم بأن يحملوه إلى روما. فأرسل فاليريوس فالتو قبلهم إلى روما ليعلن أن الإلهة فى الطريق، وأن أفضل وأنبل الرومان عليهم أن يختاروا من أجل استقبال الإلهة[1].

- **الحرب المقدونية الثانية**

أدرك فيليب حاجته إلى السيطرة على بحر ايجة أو على الأقل تحقيق سيادة فعليه عليه حتى يتمكن من تكوين أسطول قوى، إلى جانب الوفرة فى الموارد وذلك حتى يتسنى له مواصلة حروبه ضد الأيتوليين وروما. ومن ناحية أخرى كانت هناك أطماع لأنطيوخوس الثالث ملك سوريا فى حوض بحر إيجة

([1]) Livy XXIX. 11.

أيضا، غير أن هناك قوتين كانتا لهما نفس الأطماع فى حوض بحر إيجة وهما برجامون ورودس. من هنا نجد أن هناك أربع قوى تتجاذب السيطرة على مدن حوض بحر إيجة، فتعارضت وتضاربت المصالح بينهم. وقد حاول فيليب أن يكون البادئ بفرض سيطرته، وكان السبيل إلى ذلك يقتضى منه بذل الجهد من أجل صرف القوى الأخرى أو هزيمتها، فبدأ بجمهورية رودس التى تمتعت بمكانة عالية هناك خصوصا بعد انحسار النفوذ المصرى فى بحر إيجة، وبالتالى ورثت رودس عن البطالمة مهمة تطهيره من القراصنة؛ لأنها كانت الأقوى والأكثر نفوذا فيه. وعلى صعيد الوضع فى كريت، ففى سابقة خطيرة قرر أهل الجزيرة وبدون مقدمات انتخاب فيليب رئيسا لجزيرتهم، وهو أمر تم بدون اللجوء للعنف أو استخدام السلاح من جانب فيليب[1]، وقد كانت هذه الخطوة من جانب الكريتيين خير دعم لمحاربة رودس.

وقد لجأ فيليب إلى استخدام أسلوب القرصنة فى تحطيم قوة رودس، وسلب مواردها، ووجد ضالته فى كريت التى اشتهرت مدنها بممارسة القرصنة منذ زمن بعيد[2]. وبإيعاز من فيليب قام أسطول كريتى مكون من سبع سفن بممارسة القرصنة فى بحر إيجة على نطاق واسع، لذا لم تجد رودس بداً من إعلان الحرب على كريت، وبذلك نجح فيليب فى تحقيق هدفه وهو إغراق رودس فى الحرب مع كريت عام 204/205 ق.م،وقد هيأت تلك الحرب له أن ينزل أسطوله فى بحر إيجة[3].

أما عن الأوضاع فى روما، فالواقع أن روما بعدما فرغت من حربها مع قرطاجة تنكرت لمعاهدة فينيقى التى عقدتها مع فيليب، وباتت تبحث عن ذريعة للانقضاض عليه لأنها كانت تتوجس منه خيفة. ولم تعدم روما الأسباب حيث

---

(1) Poly VII,11.
(2) Poly XIII, 4-5; XVIII,54,6-12.
(3) Poly VII,12-14. Diod XXVII,3.

كان لديها من الذرائع ما هو كفيل بجر فيليب للحرب. كما أن روما أشاعت خبر وجود معاهدة أو تحالف[1] بين فيليب المقدونى وبين الملك السليوقى أنطيوخوس الثالث -على الرغم من تعارض أطماعهما- لاقتسام ممتلكات مصر، وبعد ذلك يأتى دور العملاء ونقصد برجامون ورودس وغيرهما من المتضررين الفعليين من مسلك فيليب من أجل إشعال فتيل الحرب.

والحق أن فيليب الخامس ملك مقدونيا نفسه هو الذى أعطى الرومان الفرصة عندما ارتكب عددا من الحماقات التى أثارت الجميع ضده. وكان أكبر هذه الحماقات هو موقفه من بلاد الإغريق حيث اعتدى على بعض المدن الأمنة وبخاصة كيوس وثاسوس، كذلك ضم بعض مستعمرات آيتوليا وبيزنطة، إلى جانب ذلك عندما شاهد سكان رودس فيليب وهو يستعرض بجنوده فى بحر إيجة، ويهدد التجارة، ويقطع الطريق على السفن المحملة بالقمح فى البحر الأسود، قرروا التصدى له، وتناسوا خلافاتهم مع برجامون، وتحالفوا من أجل التصدى له[2].

وقد كانت روما سعيدة بهذه الحماقات؛ لأنها تمكنها من التدخل فى الشرق الهللينستى، وكانت عيون الرومان مسلطة على مضايق البسفور والدردنيل بسبب رغبتها فى الحصول على ذلك الثراء الباهظ الذى تجنيه رودس من تجارة القمح مع موانئ وبلدان البحر الأسود، كذلك حاجتها إلى القمح الجيد لإطعام شعبها بعد أن خرب هانيبال حقول القمح، ودمر القرى.

وقد شكا سفراء من رودس، وأثينا وبرجامون إلى السناتو الرومانى من مسلك فيليب عام 201 ق.م[3]، فضلا عن شكوى الآيتوليين من أن فيليب لم

([1]) كان لهذه الاتفاقية أو المعاهدة صدى كبير فى عدد من المصادر الأدبية، وسوف يأتى الحديث عنها لاحقا فى موضعه عند الحديث عن مصر وروما.

([2]) Poly XVI.25-27.

([3]) Livy XXXII.2.1.

يحترم بنود الاتفاق الموقع بين الطرفين، فأرسلت روما مبعوثا إلى أنطيوخوس تأمره بألا يغزو مصر، كما أرسلت تحذر فيليب من مغبة التعرض لأملاك رودس وبرجامون أو أى حليف لروما، فرد على سفراء روما بأنه من الأجدى أن تحترم روما الاتفاقية (فينيقى) التى وقعتها معه[1]. كما أرسلت روما سفراء إلى بلاد الإغريق لإرهاب فيليب وتشجيع أعدائه، وكان سفراء روما قد التقوا فى أثينا بأتالوس الأول ملك برجامون الذى وصل إليها فى وقت سابق للتشاور فى الخطر المحدق بهم، وقد اُستقبل أتالوس ومعه السفراء الرومان استقبالا رائعا من الأثينيين، وبدأ الجميع يعد العدة للحرب ضد فيليب. وجدير بالذكر أن السناتو الرومانى قد أقنع الجمعية المئوية بالموافقة على قرار الحرب الذى اتخذه لأن إيطاليا قد تتعرض لغزو جديد إذا لم توقف فيليب.

وقد حدث عدد من الاشتباكات بين فيليب من جهة و بين أساطيل رودس وبرجامون من جهة ثانية، وكانت سجالا بين الطرفين، لكن عندما تحرج موقف رودس و برجامون طلبتا المساعدة من روما[2]، وكان هذا الطلب للمساعدة من روما بمثابة مقدمة للحرب المقدونية الثانية (200- 196 ق.م). ولعل هذا ما يفسر اهتمام بوليبيوس كثيرا بدور برجامون ورودس وأثينا فى إشعال الحرب[3].

وعلى الرغم من نوايا روما السافرة ورغبتها الأكيدة فى توجيه ضربة لمقدونيا قبل أن يستشرى خطرها، وعلى الرغم من وضوح نية روما الاستعمارية فإن المؤرخين القدماء وخصوصا ليفيوس- المصدر الوحيد عن أحداث الفترة الواقعة مابين 205-201 ق.م- حاول أن يوجد الذرائع التى

---

(1) Appian, The Macedonian Wars, 1.2.3, After Kagan (1986), pp 127-128.

(2) عن أحداث وسير هذه الحرب القصيرة التى استمرت عام (202- 200 ق.م)، راجع:
Ploy XVI,2-3;10; 14;15;11;24;Livy XXXI,1-10; Appian, Mac. IX, 4.

(3) Poly XV.20; XVI.25-27.

تبرر إعلان روما الحرب على فيليب عام 200 ق.م، فذكر أن فيليب هو الذى نقض صلح فينيقى عندما قام ببعض التصرفات منها:

1. تقديم دعم عسكري ومادى لقرطاجة فى معركة زاما، وقد تمثل هذا الدعم فى إرسال أربعة آلاف جندى مقدونى تحت قيادة سوباتير Sopater، وحمل هؤلاء الجنود معهم بعض الأموال أيضا. وقد أسرت روما عددا منهم، فطالب فيليب الرومان بإعادتهم إلى مقدونيا[1].
2. القيام بمهاجمة مدن إغريقية حليفة للرومان مما حدا بهذه المدن إلى تقديم شكاوى إلى روما ضد فيليب عام 201 ق.م. وبعد تحقيق روما نصرا نهائيا على قرطاجة أرسلت سفارة سياسية إلى بلاد الإغريق للتحقيق فى هذه الشكاوى، والاحتجاج على فيليب بسبب مهاجمته هذه المدن.

وقد تكونت هذه السفارة من ثلاثة سفراء هم جايوس كلاوديوس نيرون(Caius Claudius Nero) ، وماركوس إيميليوس لبيدوس(Marcus Æmilius Lepidus)، وبوبليوس سيمبرونيوس توديتانوس(Publius Sempronius Tuditanus) ، وقد زارت هذه السفارة فى البداية مصر، وطلبت من بطليموس الخامس ملك مصر أن يبقى على موقفه من الشعب الرومانى إذا ما اشتبكوا فى حرب مقبلة مع فيليب المقدونى، كذلك هدفت السفارة إلى الوقوف على نوايا أنطيوخوس الثالث وضمان حياده فى الحرب التى باتت وشيكة مع فيليب، وبخصوص بلاد الإغريق فقد كان هدف السفارة هو إثارة الاضطرابات هناك، وإلهاب حماس الإغريق ضد فيليب، وبالفعل أفلحت فى إثارة عدد كبير من المدن الإغريقية ضد فيليب، كما سلمت فيليب من خلال قائده نيكانور Nicanor إنذارا رومانيا أخيرا بالكف عن مهاجمة المدن

([1]) Livy XXX, 26; 42.

الإغريقية ودفع تعويضات مناسبة لبرجامون[1].

أما عن موقف فيليب فإنه لم يعر هذا الإنذار أية أهمية، ومضى في توسعاته لمواجهة الحرب التى باتت محتومة أو مفروضة عليه من الرومان. فخرج لتأمين جبهته الشرقية فى تراقيا والدردنيل وكاريا فى آسيا الصغرى، إلى جانب إرساله جيشا لتخريب أراضى اتيكا إذلالا لأثينا التى أعلنت الحرب عليه، ثم مالبث أن حضر إليه لبيدوس أحد أعضاء السفارة الرومانية وسلمه إنذارا يحمل عددا من المطالب أهمها: الكف عن مهاجمة أية مدينة إغريقية، وكذلك ممتلكات بطليموس الخامس ملك مصر، وقبول مبدأ التحكيم فى نزاعه مع برجامون ورودس، ودفع تعويضات لهما. وقد سجل بوليبيوس[2] رد فيليب على لبيدوس حيث قال له:" إن مطلبى الرئيسى للرومان هو ألا يخرقوا المعاهدة، وألا يشنوا الحرب ضدى، وإن فعلوا هذا فسوف ندافع عن أنفسنا بشجاعة متضرعين للآلهة أن تساعدنا"، وكان هذا الرد من جانب فيليب بمثابة رفضه لقبول الإنذار، ومن هنا بدأت الحرب المقدونية الثانية(200-196)[3].

وقد كان تعيين القائد الرومانى تيتوس فلامينينوس Titus Flaminìnus على رأس الجيوش المحاصرة لمقدونيا نقطة تحول فى هذه الحرب لصالح روما التى كانت بداية الحرب متعثرة بالنسبة لها؛ لأنه نجح فى اكتساب صداقة العصبة الآخية, فى الوقت الذى تخلى فيه فيليب عن ممتلكاته فى ابيروس. وقد جرت مفاوضات بين الطرفين لعقد صلح إلا أنها فشلت بسبب إصرار الرومان على إجلاء المقدونيين عن كورنثه وخالكيس وديميترياس؛ وهى القلاع الثلاث التى اشتهرت بأنها الأغلال التى كان فيليب يكبل بها بلاد اليونان. وفى عام 197 ق.م نشبت معركة حامية في ثيساليا عند حافة تلال تعرف باسم كينوس

---

(1) Livy XXXI, 2; XXXII,2.3-4.

(2) Poly XVI,34.

(3) إبراهيم نصحى(1984)، ص ص163-164.

كيفيلاى (وتعنى رؤوس الكلاب) Cynos Cephalae نجح فيها الرومان في إحراز نصر مؤزر، كان من أهم نتائجه أن مقدونيا سحقت تماما، وفقدت زعامتها للعالم الهللينستى[1]، وتم عقد صلح بين الطرفين نص على:-

1- انسحاب مقدونيا إلى حدودها بمعنى أن تتخلى عن كل الأراضي التى كانت تسيطر عليها فى البلقان وجزر بحر إيجة.

2- تحرير كل إغريق آسيا وأوروبا من فيليب وخضوعهم لقوانينهم الخاصة.

3- دفع غرامة حربية مقدارها 1000 تالنت لروما، نصفها الآن، والباقى على أقساط لمدة عشر سنوات.

4- قيام فيليب بتسليم كل أسرى الحرب إلى روما.

5- تسلم مقدونيا كامل سفنها الحربية؛ أى تجريدها من قوتها البحرية عدا خمس سفن صغيرة[2].

وقد رضخ فيليب الخامس وانسحب تنفيذا لشروط الصلح، وصار حليفا لروما. وقد اغتنم فلامينينوس فرصة الألعاب الأوليمبية في عام 196 ق.م وأعلن حرية الشعوب اليونانية رعايا مقدونيا، وكان هدف هذا الإعلان هو أن يصبح هؤلاء حلفاء لروما ضد أى عمل عدوانى مستقبلا من فيليب أو أنطيوخوس الثالث ملك سوريا. وجدير بالذكر أن سلاح روما فى هذه الحرب كان مهارة فلامينينوس فى استخدام سلاح الدعاية بهدف عزل فيليب بتجريده من أكبر عدد ممكن من أنصاره، وفى ذات الوقت ضمهم إلى روما، ونجح فى تحقيق هذا من خلال طريقين هما:

---

(1) عبد اللطيف أحمد على(1974)،، ص ص 218-220؛ وعن الحرب وأحداثها راجع:- Poly XVIII,1-12;18-39;42-46; Plutarch, Flaminius 10

(2) Poly XVIII, 44 ; Livy XXXIII,30.

1. استغلال مبدأ تحرير الإغريق استغلالا منظما فعالا، واستخدامه كسلاح للدعاية إلى أقصى حد بما فى ذلك اصطناع المواقف"المسرحية" كما حدث فى اللقاء الذى جمعه مع فيليب على نهر آووسAous عندما طالب فيليب بتحرير إغريق ثيساليا، وهذا كان شرطا تعجيزيا لإقرار الصلح مع فيليب، لأن ثيساليا كانت جزءاً من مقدونيا منذ قرن ونصف القرن من الزمان.
2. تحطيم عناد العناصر الإغريقية المتأبية عن محالفة الرومان بإرهابها ومحاصرتها فى دائرة ضيقة بحيث لا تستطيع إلا أن تختار بين أمرين لا ثالث لهما وهما إما مع أو ضد الرومان[1].

ووفقا لشروط الصلح مع فيليب، وما أعلنه فلامينينوس من حرية بلاد اليونان فإن معظم الإغريق رحبوا بشروط الصلح بين فيليب والرومان. وقد نظم الرومان بلاد الإغريق وتركوها لحريتها الجديدة، غير أن هذا التنظيم لم يكن المقصود به أن تنعم بلاد اليونان بحريتها وسيادتها المطلقة، بل أن تنعم بهما بالقدر الذى يحقق فوائد ومصالح روما. وقد كان خلع الحرية على بلاد اليونان يعنى إجهاض أية محاولة مستقبلية من جانب فيليب لتوحيدها تحت زعامته، أو حتى أية محاولة مماثلة فى المستقبل، ومن ناحية ثانية كان استثمار الرومان لحالة الانقسام السياسى والنزعة الانفصالية المتأصلة فى نفوس الإغريق يعنى توفير حاجز دفاعي لإيطاليا وروما يبدد أى خوف من أى خطر قد يأتى من جهة الشرق، بعبارة أخرى كانت سلامة روما وإيطاليا تلزم روما بانتهاج سياسة فرق تأمن، أو فرق تسد. لقد أقامت روما نظاما يضمن لها الوصاية على بلاد الإغريق[2].

وعلى الرغم من مظاهر التكريم والتهليل التى لقيها فلامينينوس عقب

---

(1) Livy XXXII,10.

(2) فاروق القاضى (1965)، ص ص 173-176.

إعلانه حرية بلاد الإغريق[1] فإن الآيتوليين أصدقاء الرومان بالأمس لم ينخدعوا بهذا الإعلان، فقد كانت لهم رؤية صائبة فيما حدث حيث أعلنـوا أن النتيجـة الوحيدة للحرب بين الرومان وفيليب هى هزيمة فيليب التى ترتبت عليها نتيجة فى غاية الأهمية بالنسبة للإغريق وهى أن بلاد الإغريق قد اسـتبدلت سـيدا مقدونيا بآخر رومانى؛ لأن المرسوم الذى تضمن إعلان حرية بـلاد الإغريـق اشتمل على ترتيبات بالكلمات وليس بالأعمال، والدليل على ذلك أن هناك مـدنا إغريقية استبدلت الحامية المقدونية بحامية رومانية، وبالتالى فالنتيجـة هـى أن بلاد الإغريق استبدلت الاحتلال المقدونى بآخر رومانى[2].

وأثناء الحرب البونية الثانية(218-202 ق.م) ساورت بعـض سياسـى الإغريق المخاوف من روما ومن قرطاجة على حد سواء، وإن كانت بدرجـة أعظم من روما، وكان الـزعيم الآيتـولى اجـيلاوس Agelaus مـن مدينـة ناوباكتوس أول من لفت نظرهم إلى هذا الخطر المحدق بهم. لقـد تمنـى هـذا الرجل أن يتوحد الإغريق فى جبهة واحدة، ويتوقفوا عن إشعال الحروب العقيمة بينهم, ويقفوا صفا واحدا لمواجهة الخطر القادم من الغرب بـدلا مـن انتظـار وترقب النتيجة النهائية للحرب التى كانت دائرة وقتذاك بين قرطاجة ورومـا، واهتمامهم بالحديث عمن سيكسب هذه الحرب, فسواء انتصر هانيبال أو الرومان فإن المنتصر لن يكتفى بهذا، بل سيتوجه شرقا لاحتلال بلادهم، وهـذا مـدعاة لأن ينبذوا خلافاتهم ويتحدوا، ثم طالب فيليب بأن يتوجه إلى الغرب مـن أجـل محاربة الرومان إذا كان يبحث عن ميدان حرب، لأنه إن لم يفعل فسوف يتحرك الرومان إلى بلاد الإغريق، وإذا تحقق هذا فإن الإغريق سوف ينـدبون اليـوم الذى أضاعوا فيه قوتهم فى حروب محلية لا طائـل مـن ورائهـا، وسـوف

---

(1) Plut, Flaminius 10.
(2) Poly XVIII,45; Livy XXXIII,31.

يتحسرون على ضياع الفرصة والقدرة التي كانت تمكنهم من حل خلافاتهم بأنفسهم[1]. وقد صدق حدس هذا الرجل حين توقع أن الكارثة سوف تحل بهم جميعا عندما يفرغ الرومان من حروبهم مع هانيبال فى إيطاليا[2]، لأنهم سوف يقودون جيوشهم إلى بلاد الإغريق بحجة مساعدة العصبة الآيتولية ضد فيليب[3]. لقد كانت لدى الإغريق فرصة ذهبية حقا لكنهم أضاعوها على الرغم من أن اجيلاوس بدا كما لو كان يقرأ الغيب.

- **الحرب المقدونية الثالثة (171– 167 ق.م)**

على الرغم من أن معاهدة الصلح التى وقعها الرومان مع فيليب عقب هزيمته كانت مهينة له– إلى حد بعيد– إلا أنها منحت مقدونيا الفرصة لكى تنمو وتتطور بعيدا عن التدمير الذى لحق بقرطاجة. فعندما مات فيليب عام 179 ق.م خلفه ابنه الأكبر برسيوس الذى كان يفتقد فطنة وحنكة أبيه. وقد ركز برسيوس على النهوض بمقدونيا، وتدعيم قوته فى مواجهة روما، وعلى الرغم من ذلك فإن أولى خطواته كانت قيامه بتجديد المعاهدة التى عقدها أبوه مع روما بناء على رغبة الرومان، ومع ذلك فإن روما نظرت إليه بعين الريبة خصوصا أنه قد تولى العرش بعد مؤامرة دبرها لأخيه الأصغر الذى كان يلقى الدعم من روما ليتولى العرش على حساب برسيوس، كما حاول أن يعيد لمقدونيا دورها السابق بين إغريق آسيا وأوروبا على حد سواء، وانتهج سياسة التقرب للطبقات الفقيرة فى بلاد الإغريق، كما أعاد كل المنفيين خارج مقدونيا، وأعاد لهم ممتلكاتهم التى سلبت منهم. وفى داخل مقدونيا نفسها حرر كل المدينين بديون للتاج، وأطلق سراح كل المحبوسين بارتكاب جرائم ضد التاج، كما اتخذ

---

(1) Poly V,103.9-104; أنظر ترجمة الخطبة كاملة فى الخاتمة.
(2) Poly XI,5.9.
(3) Poly XI,6.1-2.

خطوتين على جانب كبير من الأهمية تمثلتا فى عقد زواجين سياسيين مع اثنين من الملوك الأقوياء، فقد تزوج هو من لاؤوديكى ابنة سليوقوس الرابع، كما زوج شقيقته إلى بروسياس Prusias ملك بيثيا. كل هذه الخطوات كانت بمثابة توفير الدعم لحملاته فى وسط وشمال بلاد الإغريق، وكانت هذه الحملات مبعث خوف الرومان[1].

وكانت روما تبحث عن سبب لإعلان الحرب على برسيوس فراحت ترسل إلى مقدونيا السفارات التى كان ظاهرها طلب جواب على سلوك وتصرفات برسيوس، لكن الواقع أنها كانت تحاول فهم مقدار قوة وثروة برسيوس، ثم جاء دور العملاء ممثلا فى ملك برجامون يومنيس (197-160 ق.م) الذى كان حليفا قويا ومخلصا للرومان، وأثبت هذا عندما كشف لهم عن أطماع برسيوس مدفوعا بالخوف من تنامى قوته، فلجأ إلى روما طلبا للحماية، وزار السناتو الرومانى عام 172 ق.م لتحذير روما من طموح برسيوس، فوجد ترحيبا حارا منهم؛ لأن الرومان كانوا مستعدين لتصديق كل ما ينقله لهم يومنيس عن مقدونيا وعن ملكها برسيوس. كما وجه يومنيس إلى برسيوس تهمة التآمر على حياته شخصيا عقب عودته إلى مملكته[2]. وقد كانت وشايات الأول عميل روما الكبير سببا فى إعلان روما الحرب على برسيوس عام 171 ق.م.

على خلاف ذلك يرى البعض أن السبب الحقيقى للحرب هو الحقد القديم والغضب الحالى، والحقد القديم مقصود به ذلك الحقد الذى كان فى قلب برسيوس على الرومان الذين سلبوا من أبيه سيطرته على بلاد الإغريق، وقلصوا نفوذ وسلطات مقدونيا حتى غدت محددة بحدود مقدونيا الجغرافية فقط. أما الغضب الحالى فالمقصود به هو غضب الرومان من سياسة برسيوس التى

---

(1) Poly XXV, 3.1-4; Livy XLII,12.

(2) بخلاف سفارة يومنيس هذه فقد زار أتالوس اخو يومنيس روما أيضا لنفس الغرض ومحمل بنفس الوشاية، راجع: Livy XLII,11:Poly XXIV. 5; Diod, XXIX.25.

أدت إلى تعاظم نفوذه فى بلاد الإغريق، وخصوصا زيارته إلى دلفى التى أحاطها الكثير من مظاهر الأبهة والتكريم. وقد أدت هذه السياسة التى انتهجها برسيوس إلى اكتسابه حب وعطف الإغريق، ومن هنا كان أهم سلاح فى الحرب هو بث دعاية مضادة له فى بلاد الإغريق. ويذكر ليفيوس أيضا أن كل مدن إيطاليا وكل الدول والممالك فى أوروبا وآسيا كانت فى حالة ترقب للحرب الوشيكة بين روما ومقدونيا، فهاهو يومنيس يقطر قلبه حقدا على مقدونيا، ويتحين الفرصة ليوغر صدر الرومان عليها، أما بروسياس ملك بيثيا فقد كان يترقب الموقف، ويرى أن الرومان سوف يلتمسون العذر له لأنه تزوج من أخت برسيوس، أما ملك كبادوكيا فقد وعد بمساعدة روما علانية لأنه أيضا كان مرتبطاً بزواج سياسى مع يومنيس ملك برجامون، إلى جانب ارتباطه به فى حالتى السلم والحرب. أما أنطيوخوس الثالث ملك سوريا فقد كان يترقب الموقف، لكن همه الأول كان مراقبة الموقف من أجل ضم جوف سوريا من مصر، أما ملك مصر فقد كان طفلا لا يعى، وكان فى أيد غير أمينة. وبخصوص ماسينيسا ملك نوميديا فقد كان مستعدا لتقديم القمح إلى روما بانتظام إلى جانب تقديم دعم عسكرى إذا لزم الأمر[1].

وقد بادر السناتو الرومانى إلى إرغام برسيوس على القتال كما فعل بأبيه، وخلال العامين الأولين من الحرب لم تستطع الجيوش الرومانية تحقيق أى نصر، أو تقدم من مواقعها التى رابطت فيها فى تساليا، وذلك بسبب ضعف قيادتها، غير أن الموقف تغير تماما عام 168 ق.م حين تولى القائد إيميليوس باولوس Aemilies Paullus قيادة الجيوش الرومانية حيث نجح فى إحراز نصر كامل على برسيوس في بيدنا Pydna، واستسلم برسيوس، ونقل إلى روما ليموت في الأسر. وبهذا انتهت مملكة مقدونيا، وقسمت إلى أربع جمهوريات

(1) Livy XLII,29.

مستقلة، لكل منها عاصمتها ومجلسها وموظفوها المنتخبون، على أن تتبادل كل واحدة مع روما حقوق التعامل والتزاوج، وتدفع أيضا جزية سنوية مقدارها 100 تالنت، وتحولت المناجم والمزارع الملكية إلى ملكية كاملة لروما،كما قسمت إلليريا إلى ثلاثة أقسام. وقد أعلن جاءت هذه القرارات القائد إيميليوس باولوس[1]. كذلك أنزل الرومان الدمار بإقليم إبيروس حيث دُمر تماما، واستعبد 150000 من سكانه، ولحقت بهم أضرار اقتصادية لن يفيقوا منها لخمسة قرون أخرى[2].

وكانت الخطوة المترتبة على هذه الأحداث أن تحولت الحماية الرومانية إلى طراز مقنع من السيطرة بحيث إن روما عاملت المدن الإغريقية على أنها ولايات تابعة لها وجبت عليها الطاعة. وقد سادت موجة من السخط والتذمر خصوصا في مقدونيا وبلاد الإغريق نتيجة لمعاملة روما القاسية وتطبيقها لسلطانها بالقوة، لذلك حاولتا التخلص من نير الحكم الروماني، وقد نظرت روما إلى هذا على أنه تمرد وعصيان، وواجهته بمنتهى القوة والقسوة والوحشية، ونتيجة لهذا عمت الفوضى وعدم النظام بشكل خطر ليس فقط على روما، بل أيضا على بلاد اليونان ومقدونيا، وجمعت كراهية الرومان كليهما، وفي ذات الوقت كانت القوات الوطنية في مقدونيا وبلاد اليونان غير قادرة على الدفاع عن الحدود الشمالية ضد الكلتيين والتراقيين والإلليريين. وعلى المستوى الداخلي في بلاد اليونان كانت الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ، فقد أخذت الحرب تنشب في المدن اليونانية وفي آسيا الصغرى، وتطورت في صورة نزاع قاسٍ بين الأرستقراطية المدعومة من الرومان, وبين سائر السكان الذين كانوا يقفون من الطرفين موقف المناوئ[3].

---

(1) Poly XXVII,1-3; Livy XLII,.43.4; XLV,18,29,32; Plutarch; Aem Paulus 28.
(2) Livy XLV.34.

(3) ددلى(1979) ، ص ص 86-87..

،وفيما بين عامي 148 و146 ق.م شنت روما حربين في بلاد اليونـــان؛ إحداهما في مقدونيا عرفت باسم الحرب المقدونيـــة الرابعـــة(149-148 ق.م) عندما ثار أندريسكوس Andriscus، وكانت مشاعر الإغريق المعادية للرومان هى المحرك أو الدافع الأساسى الذى شجعه على التمرد وتحدى الرومان، فقـــام بجمع قوات فى تراقيا، وزعم أنه ابن برسيوس، وصاحب الحق فى عرش أبيه، ونجح أندريسكوس فى البداية فى اقتحام مقدونيا، وأعـــاد توحيـــدها، غيـــر أن الرومان كانت لهم الكلمة الأخيرة عندما نجحوا فى هزيمته عام 148 ق.م. وبعد هذا الانتصار حولت روما الجمهوريات المقدونية الأربع بالإضافة إلى إبيروس والليريكوم إلى ولاية رومانية باسم ولاية مقدونيا Provincia Macedoina [1]، وكان هذا تغيرا حاسما فى تاريخ روما، وكانت له آثاره خارج مقدونيا، وهذا ما اضطر روما إلى خوض الحرب الثانية، والتى كانت حربا تأديبية خاضتها ضد عصبية آخايا وبخاصة بعد تصاعد الغضب والاستياء من سياسة روما بين فريق كبير من الإغريق، وكانوا يتحينون الفرصة للتخلص منها. وقد نجـــح الحلـــف الآخى فى اكتساب مؤيدين كثيرين ضد روما فى كثير من المدن اليونانية، إلا أن هناك بعض المدن مثل إسبرطة أرغمت على الانضمام إلى الحزب قسرا. وفى عام 146 ق.م تورط الحلف الآخى فى خلاف مع إسبرطة التى ناشدت رومـــا العون، وتدخل الرومان من أجل التسوية، غير أنهم لم يكونوا صادقين فى تهدئة الأمور ببلاد اليونان، بل عمدوا إلى إثارة الأمور أكثر، فغضب الحلف لتدخلهم، ولم يستجب للحلول والمقترحات التى وضعتها روما، وتهور الحلـــف الآخـــى ووقف ليقاوم جيشا رومانيا بقيادة لوكيوس موميـــوس Lucius Mummius، فترتبت على ذلك نتائج خطيرة إذ انهزمت فى الحال قواته العسكرية، ودمـــرت مدينة كورنثه عن آخرها، وهى زعيمة هذا الحلف، وقتل معظم رجالهـــا، أمـــا

---

(1) Poly XXXI,2.12.

النساء والأطفال فقد تم بيعهم فى الأسواق كعبيد، كما نهبت كنوزها. وينم هـذا الإجراء ينم عن وحشية متعمدة هزت مشاعر العالم اليونانى، وهذا ما حدث بعد خمسين سنة فقط من إعلان فلامينينوس للتحرير، وقد انحل الحلف الآخى فـى ذلك الوقت وخضع معظم المدن اليونانية لنفوذ حاكم مقدونيا الرومانى عدا المدن التى كانت تربطها بروما معاهدات[1].

(1) Pausanias, Description of Greece,7.16.

روما وسوريا

مر بنا فى موضع سابق كيف نجحت روما من خلال عميلتيها برجامون ورودس فى جر فيليب المقدونى وابنه برسيوس من بعده إلى مضمار الحرب حتى نجحت روما فى تحويل مقدونيا إلى مجرد ولاية رومانية، وتحويل بلاد الإغريق إلى رعايا لروما. والواقع أن هناك تداخلاً فى الأحداث بين قضاء روما على كل من مقدونيا وسوريا، لكننا فصلنا بينهما لندرس كل واحدة منهما على حده.

فلقد كانت المملكة السليوقية مترامية الأطراف، فهى أكبر الممالك الهللينستية اتساعا وأكثرها سكانا أيضا، حيث امتدت من حوض بحر إيجة غربا حتى مشارف الهند شرقا، وضمت بين حدودها جنوب آسيا الصغرى ، وبلاد مابين النهرين، وفارس وشمال سوريا. وقد كانت آسيا الصغرى بعاصمتها سارديس Sardis هى جناح الإمبراطورية الغربى, و بابل بعاصمتها المحلية (سليوقية) على نهر دجلة هي جناحها الشرقى, أما سوريا فكانت العمود الفقرى للإمبراطورية، كما كانت عاصمتها أنطاكية هى العاصمة السياسية للإمبراطورية كلها, وقد شغل السليوقيون الأوائل بمحاولة ربط هذه الأقسام وتأمين حدودها. وجدير بالذكر أن اتساع رقعتها على هذا النحو، فضلا عن تعدد وتباين سكانها كانت أهم عوامل ضعف المملكة السليوقية بسبب تباعد المسافات بين ولاياتها، وعدم تجانس سكانها.

وقد كانت روما تبحث عن الذريعة التى تمكنها من جر المملكة السليوقية للحرب بعد أن تخلصت من فيليب الخامس ملك مقدونيا، وفرضت عليه شروطا مهينة. وكان خبر المعاهدة التى أذاعتها روما بين أنطيوخوس الثالث وفيليب الخامس هى نقطة البداية بالنسبة للرومان خصوصا مع تنامى نشاط أنطيوخوس الثالث الذى عملت روما على تحييده خلال صراعها مع فيليب. وبعد انتهاء روما من فيليب اغتنم فلامينينوس فرصة الألعاب الأوليمبية فى عام 196 ق.م

وأعلن حرية الشعوب الإغريقية رعايا مقدونيا، ولايخفى على أحد أن هدف هذا الإعلان هو أن يصبح هؤلاء الإغريق حلفاء لروما ضد أى عمل عدوانى من قبل فيليب أو أنطيوخوس[1].

وعلى الجانب الآخر فإن أنطيوخوس الثالث لم يشأ أن يتدخل فى الحرب المقدونية الثانية بين فيليب وروما تاركا فيليب يلقى مصيره، ذلك أنه رأى فى هذه الحرب فرصة سانحة لاسترداد ممتلكاته فى آسيا الصغرى وتراقيا، لذلك قام بغزو جوف سوريا عام 198 ق.م منتهزا فرصة انشغال روما بحربها مع فيليب، ثم ما لبث أن يمم وجهه شطر آسيا الصغرى فى عام 197ق.م بهدف استعادة ما كان لأسلافه هناك، فاستولى على كل ممتلكات البطالمة فى ليكيا وكاريا وكيليكيا، ثم عبر الدردنيل من أجل السيطرة على تراقيا، وأمر بإعادة بناء مدينة لوسيماخيا[2]. وبالطبع كان تحرك أنطيوخوس وعبوره الدردنيل أمرا مثيرا للقلق الشديد لروما؛ لأنه يحمل فى طياته تهديدا لمصالح روما فى بلاد الإغريق.

وكانت بعض المدن الإغريقية قد شكت لروما من أنطيوخوس، من هنا استدعى أنطيوخوس بعض مندوبى هذه المدن وخاطبهم بلغة غاضبة قائلا: " خلافات الإغريق يجب أن تعرض على الإغريق وليس الرومان[3]". لقد أراد فيليب أن يخبرهم أنه لا دخل لروما فى خلافاتهم الداخلية لأنهم فى النهاية إغريق، لذا ما كان ينبغى عليهم الشكوى إلى الرومان ومنحهم الفرصة للتدخل فيما بينهم لأنهم جميعا فى النهاية ينتمون لأصل واحد.

وكان من نتيجة هذه الشكوى أن وفدت إلى أنطيوخوس الثالث عام

---

(1) عبد اللطيف أحمد على(1974)، ص ص 218-220.

(2) Livy XXXIII,38 = Austin (1981), 153.

(3) Poly XVIII,49.1.

196ق.م سفارة رومانية تطلب منه احترام سيادة المدن الإغريقية فـــى آســـيا الصغرى، والانسحاب منها، وعدم التعرض للمدن الإغريقية غير الداخلة فـــى نطاق إمبراطوريته.

وكان أنطيوخوس قد بادر فى وقت سابق بإرسال ســفارة إلـــى القائـــد الرومانى فلامينوس بعد انتصاره على فيليب، والذى استقبلها فى كورنثا بمناسبة الاحتفال بألعاب البرزخ فى صيف عام 196 ق.م، وقد عادت هذه السفارة فى نفس وقت وصول السفارة الرومانية إلى أنطيوخوس حاملـــة نفـــس المطالـــب السابقة.

وجاء رد أنطيوخوس على هذه المطالب حاملاً نوعا من أنواع اللوم على روما معتبرا أن هذه المطالب عبارة عن تدخل رومانى فى شئون الإغريق مـــا ينبغى أن يحدث لأن هذه المدن داخلة فى نطاق سيادته وإمبراطوريته، كما أنـــه لا يسمح لروما بالتدخل فى شئون آسيا لأنه لا يسمح لنفسه بالتدخل فى شـــئون إيطاليا.

وهنا ارتفعت نبرة التحذير الرومانية لأنطيوخوس حيث وجهت إليه إنذارا مطالبة إياه بضرورة التخلى عن المدن التى كانت تحـــت ســـيطرة بطليمـــوس وفيليب والابتعاد عن المدن الإغريقية المستقلة، وعن أوروبا، وعدم التفكير فى المسير إليها على رأس قوات محاربة؛ لأن التفسير الوحيد لهذا العمل هو أنـــه يريد مهاجمة الرومان، وعليه أن ينفذ هذه المطالب إذا ما أراد أن يكون صديقا للرومان[1].

ويذكر أن هانيبال كان قد لجأ إلى بلاط أنطيوخوس الثالـــث عـــام 195 ق.م، وحاول إقناعه بغزو إيطاليا. وكان لجوء هانيبال إلى بلاط أنطيوخوس قد ألقى بظلال كئيبة على الوضع فى روما إذ ظن الرومان أنه يخطط للعودة إلـــى

---

(1) Appian; The Syrian Wars, II.6; Poly XVIII, 49-51=Austin (1981),154.

قرطاجة كى يتولى الحكم رغما عن خصومه، وأنه يعتزم غزو إيطاليا على رأس جيش من جنود أنطيوخوس الثالث، وقد انعكس هذا الوضع على الانتخابات القنصلية فى روما عام 194 ق.م إذ انتخب سكيبيو Scipio قاهر هانيبال فى زاما، وكلف بوضع خطة لمواجهته. وقد اعتزم سكيبيو إرسال جيش إلى بلاد الإغريق غير أن جايوس فلامينوس رأى أن هذا قد يوغر صدر الإغريق ضدهم، ومن ثم ينضمون طواعية إلى هانيبال، لذلك آثر سحب القوات الرومانية الموجودة هناك فى عام 194 ق.م[1].

وفي عام 193/194 ق.م حاول أنطيوخوس الثالث الحصول على تأييد الرومان للحصول على حقه في تراكيا وبعض مدن آسيا الصغرى، فأرسل سفارة إلى الرومان ظاهرها عقد معاهدة صداقة مع الرومان، لكن كان لها هدف آخر وهو الوقوف على نيات السناتو منه خصوصا بعد لجوء هانيبال إلى بلاطه فى مدينة إفيسوس. وفى هذه المفاوضات عرض الرومان على أنطيوخوس أن ينسحب من أوروبا مقابل تخليهم عن حمايتهم لإغريق آسيا، لكن الطرفين لم يصلا إلى نقطة اتفاق بينهما بسبب إشراك بعض العناصر الإغريقية فى المفاوضات بإيعاز من يومنيس الثانى ملك برجامون، كما كان من أسباب فشل هذه المفاوضات أيضا أن أنطيوخوس كان غير مستعد للتنازل عن ممتلكاته الأوروبية[2].

لذلك رأى أنطيوخوس أنه من الممكن الحصول على تراكيا وبعض مدن آسيا الصغرى، من خلال تشجيع العناصر المناوئة لروما فى بلاد الإغريق للضغط على روما فتسلم له بما يطالب به فى تراقيا ومدن آسيا الصغرى. واعتقد أنه وجد ضالته فى الحلف الآيتولى؛ لأن هذا الحلف كان يحمل لواء

([1]) فاروق القاضى(1965)، ص 179.
([2]) Livy XXXIV,56-58; Appian, The Syrian Wars, II.9.

المعارضة ضد روما فى بلاد الإغريق. وجدير بالذكر أن الحلف الآيتولى كان حليفا وفيا للرومان خلال الحرب المقدونية الأولى، غير أنه انقلب عليهم نتيجة لتضارب المصالح بينهما، أو إن شئنا الدقة بسبب تعارض أطماع الحلف وروما فى بلاد الإغريق. لقد كان الحلف يتمنى أن تساعده روما على أن يلعب دور مقدونيا السابق، غير أن روما رأت أن مصالحها تتعارض مع هذا التوجه من جانب الحلف الآيتولى، فانقلب الحلف على روما، وكان أكبر مناوئ لها فى بلاد الإغريق، ومستعدا لتقديم العون والمساعدة لأية قوة قد تساعده على التخلص من الوجود الرومانى فى بلاد الإغريق.

أما عن دور برجامون فى إشعال الحرب فنجد أنها كانت تغذى وتزيد مخاوف الرومان من تحالف أنطيوخوس وفيليب ضدهم، وتنفيذا لهذا فقد زار يومنيس الثانى ملك برجامون روما وهو يحمل للسناتو الرومانى إشاعات مزعجة مفادها أن أنطيوخوس يعد العدة للقيام بحملة كبرى لإنزال جنوده عند سواحل صقلية، كما أنه أعد أسطولا مكونا من عشرين سفينة مقاتلة، وأنه أخذ الحيطة بإقامة القلاع والحصون على طول إمبراطوريته وبخاصةً تلك التى تواجه سواحل بلاد الإغريق، وأن أسطوله سيعبر البحر الأدرياتيكى فى الربيع لمهاجمة سواحل صقلية وجنوب إيطاليا، وأن الجيش المجهز من أجل هذا الغرض قوامه ستون ألف جندى[1].

وقد شجع وجود أنطيوخوس فى تراقيا الأعمال العدائية ضد روما، ثم قبل مساعدات من الحلف الآيتولى، وتوهم أن الإغريق سيهبون عن بكرة أبيهم فى ثورة عارمة من أجل التصدى للرومان.

وفى عام 192 ق.م هاجم الآيتوليون بعض المدن المناصرة لروما، واستولوا على قلعة ديميترياس وسلموها لأنطيوخوس الثالث، ووعدوه أيضا

---

(1) Livy XXXV.23

بالحصول على مساعدة فيليب ملك مقدونيا والآخيين. وقد استجاب أنطيوخوس لهذه الوعود وعبر البحر من آسيا إلى بلاد الإغريق على رأس جيش من عشرة آلاف جندى، وانتخبه الآيتوليون قائدا لهم.

وفى عام 191 ق.م قام جيش رومانى مكون من حوالى 20 ألفاً من المشاة، وألفين من الفرسان، و154 فيلا بقيادة أكيليوس جالبريو Acilius Glabrio بمهاجمة قوات أنطيوخوس وهزمها عند ممر الثيرموبلاى Thermepylae، وعلى إثر هذه الهزيمة فر الملك أنطيوخوس إلى آسيا حيث لم يجد فى بلاد الإغريق من يساعده بعد أن انضم فيليب المقدونى طواعية إلى الرومان، ولم يقدم الآيتوليون له إلا مساعدات قليلة، أما أساطيل أهل رودس ويومنيس ملك برجامون فقد انضمت إلى أسطول روما عن طيب خاطر[1]. وكان الخطأ الفادح الذى ارتكبه أنطيوخوس هو أنه ترك مضيق بحر مرمرة بلا حماية، وكان الرومان من جانبهم فى غاية الذكاء حين تنبهوا إلى هذا فقاموا بوضع أيديهم على مخازن العتاد الحربى فى لوسيماخيا بمنتهى السهولة[2].

كما هاجم الرومان آسيا الصغرى نتيجة لعدم استجابة أنطيوخوس الثالث للشروط التى وضعوها. وقد لعب حلفاء روما خصوصا رودس وبرجامون دورا مهما للغاية فى انتصار الرومان، ونجحوا فى هزيمة أنطيوخوس فى معركتين بحريتين، ثم كان الانتصار الحاسم فى معركة ماجنيسيا Magnesia عام 190 ق.م. وقد لعب يومنيس ملك برجامون دورا مهما فى إبطال فاعلية وحدات الفرسان فى جيش أنطيوخوس، وتفصيل ذلك أن فيالق أنطيوخوس أقامت سدا بشريا بلغ عمقه اثنتين وثلاثين وحدة مقاتلة يفصل بين كل منها رتل من سلاح

---

(1) Appian, The Syrian Wars, III,.16.

(2) عن أحداث الحرب و سير القتال خلال المرحلة الاولى راجع:
Livy XXXV.23; XXXVI,36.1-20; Appian; The Syrian Wars,17-20.

الأفيال الهندية المدربة, وقد تشابكت خراطيمها وتلاحمت رؤوسها، وكان يمتطيها رماة مهرة، وتحمى هذه القوات وحدات من الفرسان من أهل سكيثيا المعروفين بالفروسية والجرأة والإقدام, إلا أن مفعول هؤلاء الفرسان أبطل تماما بسبب فرقة من الفرسان كان يقودها يومنيس قامت بتصويب سهامها إلى رؤوس الخيول[1].

وقد اعتمد الفكر العسكرى الرومانى في الحرب خلال هذه المرحلة على الوحدة القتالية المعروفة باسم الفرقة Legio والتى كانت وليدة التطوير المستمر في ضوء المعارك المختلفة، وقد استطاعت أن تثبت نجاحها فى أكثر من موقعة على حساب الفيلق المقدوني العتيق Phalanx ، وكانت المواجهات بينهما قد أسفرت عن هزيمة الفيالق فى كينوس كيفيلاى وفى ثيرموبلاى، وهنا فى ماجنيسيا أنهت الفرقة إلى الأبد دور الفيالق المقدونية, وانتهى معها استخدام الفيلة كمدرعات ثقيلة في الجيوش. وقد كانت الفيالق تتكدس في حيز ضيق مما شل حركتها وأضعف قدرتها على المناورة في الوقت الذى كانت فيه الفرق الرومانية تناور بحرية بسبب وجود مسافات فاصلة بين الفرق، وبحيث لا تسمح بوجود ثغرة ينفذ منها العدو. ولقد كان حشد القوات لبناء حائط دفاعى هو إحدى سمات البناء العسكرى للقوات المقدونية, وربما كانت فكرة الحائط الدفاعى مفيدة عند الاجتياح، غير أنها لم تكن كذلك عند مواجهتها للفرق الرومانية التى جعلتها تتكبد نسبة عالية من الإصابات، فأى سهم كان يطلق تجاه هذه الكتل البشرية المتلاحمة كان لابد أن يصيب أحد أفرادها؛ لأن تقييد المساحة شل حركتها، كذلك كانت الفيالق تقاتل بدون غطاء دفاعى من الفرسان سواء من ناحية الميمنة أو الميسرة , وبالتالى أدت هذه العوامل إلى إضعاف الفيالق

---

(1) Plutarch, Eumenes 11.

المقدونية، وتقييد قدراتها في مواجهة الفرق الرومانية المتطورة التى كانت تعتمد على المشاة ذوى الحركة التى تسمح بالكر والفر[1].

وبعد أن تمالك أنطيوخوس نفسه من هول الهزيمة انسحب إلى المدينة العتيقة سارديس حيث كانت تقيم عروسه الشابة فاصطحبها إلى خارج المدينة، وسار بها جنوبا حتى أطمأن على سلامتها، ثم عاد إلى العاصمة السليوقية أباميا Apamea على نهر العاصى، ومن هناك بعث بوفد إلي الرومان يعلن قبوله لشروط الصلح التى وضعوها، وتم عقد الصلح فى هذه المدينة، وكان مبدأ الرومان الشهير" ويل للمهزوم من شروط المنتصر" واحداً في مثل هذه المعاهدات، فانسحب أنطيوخوس الثالث طواعية من جزء كبير من ممتلكاته أعطته روما لبرجامون ورودس حليفتيها مكافأة لهما على موقفيهما أثناء الحرب[2]، كما سلم كل أسطوله للرومان، وكذلك أجبرته روما على تسليم أفياله المدربة التى كانت بمثابة قواته المدرعة لكي تسلمها إلى غريمه يومنيس ملك برجامون، كما أمرت بحرق خمسين سفينة حربية من أسطوله، ولم تترك له سوى عشر سفن بعد أن أخذت عليه تعهدا بتحديد المجال والمدى البحري لإبحار سفنه، ونتيجة لذلك فقدت الإمبراطورية السليوقية هيمنتها علي بحر إيجة، إلى جانب دفع غرامة مالية فادحة، وإرسال عدد من الرهائن إلى روما كان من بينهم أخوه ديمتريوس، وتسليم عدو الرومان اللدود هانيبال الذى شرع فى

([1]) سيد الناصرى (1992)، ص ص 245- 247، وانظر أيضا: Poly XV,15.8: XVIII. 29.1ff; 32.13;Watson(1969);The Roman soldier,pp22ff..

([2]) وكان من الطبيعى ان تكافئ روما حليفتها برجامون ورودس وتسمح لهما بتوسيع رقعة أملاكهما على حساب الملك السليوكى .ولا مراء فى أن برجامون كانت المستفيدة الاولى من هذه الحرب وان ملكها يومنيس هو الذى اوعز الى الرومان بضرورة طرد انطيوخوس من اسيا الصغرى .ووزعت روما بينهما الأراضى التى انتزعت منه هناك. فاستولت ردوس على ليكيا وكاريا، واستولت برجامون على بقية ممتلكات السليوكيين فى اسيا الصغرى، ووضعت يدها على الدردنيل الى جانب المدن اليونانية التى ادعى يومنيس ملكيته لها من قبل. كذلك وجهت روما ضربة للجلاتيين أعداء برجامون و ارغمتهم على دفع غرامة حربية كبيرة. و الملاحظ أن روما لم تحتفظ لنفسها بأية أراضى فى اسيا الصغرى بل عملت بمبدأ فرق تسد" على توزيعها على الدول المتنافس حتى لا تقوى واحدة على الأخرى فتتجرأ عل تحديها أو مناوئتها فى المستقبل.

الهروب إلى بروسياس ملك بيثيا، غير أن إلحاح الرومان على الظفر به دفعه إلى أن يؤثر الانتحار بالسم عن أن يُسلم لهم[1]. هكذا وضعت شروط الصلح في أباميا نهاية لأحلام أنطيوخوس التوسعية، ووطدت أقدام الرومان لأول مرة في أرض آسيا الصغرى[2].

لقد كان أنطيوخوس الثالث واحدا من أعظم قادة عصره المرموقين الذين أزعجوا الرومان لدرجة أن شعراء الرومان صنفوه ضمن القادة الكبار الذين هددوا روما، وارتبط اسمه في الدعاية الرومانية باسم بيرهوس وهانيبال، ففي كتاب الأغاني يقول هوراتيوس: " وسقط بيرهوس، وأنطيوخوس العملاق، وهانيبال الرهيب[3]". كما كان أنطيوخوس رهيبا أيضا في نظر ليفيوس[4].

ثم استدارت روما إلى الآيتوليين وأدبتهم على مساعدتهم لأنطيوخوس، لكن الآثينيين توسطوا بينها وبين الآيتوليين، وتم عقد الصلح بين الطرفين على أن يجرد الآيتوليون من أي ممتلكات أو أراض، وعقدوا تحالفا مع الرومان نص على مساعدة روما ضد أي عدو محتمل، وتسليم قلعتهم الحصينة وهي امبراكيا[5].

لقد كانت شروط الصلح التي فرضتها روما على أنطيوخوس بمثابة الإعلان الرسمي عن تغلغل النفوذ الروماني في المملكة السليوقية، وبالتالي بداية النهاية لهذه المملكة الهللينستية. وكانت شروط الخضوع التي وقعها أنطيوخوس تنص على أن يبعث إلى روما رهائن من البيت السليوقي دليلا على استمرار تنفيذ الاتفاقية، وكان أنطيوخوس الرابع وأخوه ديمتريوس ضمن الرهائن

([1]) Livy XXXIX.51

([2]) عن بنود الصلح و الشروط التي فرضت على أنطيوخوس انظر: Livy, XXXVII,.45:XXXVIII, 38-39.

([3]) Horace: Odes III.6: Pyrrhumque et ingentum cecidit Antiochum Hannibalemque dirum.

([4]) Livy XXXVII,1.59.

([5]) عن موقف روما من الآيتوليين راجع: Livy XXXVI,21-30..

الموجودين فى روما. وقد ساعدت روما- من خلال حليفتها برجامون- أنطيوخوس الرابع فى الحصول على العرش.

ولعل المساعدة التى قدمتها برجامون بأمر من روما لأنطيوخوس الرابع كانت سببا مباشرا فى موقفه المتخاذل أمام السفير الرومانى بوبليوس لايناس Popilius Laenas فى مصر عام 168 ق.م، وهو نفس العام الذى هُزم فيه برسيوس فى مقدونيا، أى أن روما حققت خلال هذه العام نصرين؛ أحدهما عسكرى على برسيوس، والآخر سياسى على أنطيوخوس الرابع الذى أرغمه السفير الرومانى الأعزل على الرحيل عن مصر بعد أن كاد يسيطر عليها كاملة. لقد أذل السفير الرومانى أنطيوخوس الرابع إذلالا شديدًا إلى درجة قبوله صاغرا أوامر بالغة القسوة تصدر إليه فى صورة بالغة الخشونة[1].

ومنذ وفاة أنطيوخوس الرابع عام 163 ق.م،دب النزاع على العرش فى الأسرة السليوقية، واستندت السياسة الرومانية تجاه المملكة السليوقية باطراد علي تحقيق هدفين هما:

1. دعم ملوك ضعاف أو خارجين على العرش؛ لأن الرومان كانوا يرون- على حد تعبير بوليبيوس- " أن ملكا طفلا على العرش السورى، وبلاطا متفسخا يحكمه وصى، هو أفضل من ملك شاب طموح حتى لو كان صديقا للرومان".
2. إثارة الولايات الشرقية، وتقطيع أوصال المملكة السليوقية حيث ساندت روما الخارجين على العرش السليوقى مثل تيمارخوس حاكم ميديا، إلى جانب مساندتها للحركات الانفصالية التى دبت فى أوصال المملكة السليوقية مثل دعمها لليهود الخارجين على الملك السليوقى عام 161 ق.م، وقد أفضى هذا الدعم الرومانى إلى استقلال الكثير من

---

(1) Poly XXIX, 27; Livy; XLV, 11.10.

أجزاء الإمبراطورية السليوقية بعد أن تعمد الرومان إثارة الفوضى والفتن فى ولاياتها الشرقية على وجه الخصوص، حتى أن المملكة السليوقية غرقت فى المشكلات بعد أن تنازع ملكية المدن كثير من الأدعياء لدرجة أن السوريين أخذوا يفكرون فى الاستعانة بقوة خارجية تخلصهم من هذه المنازعات[1].

لذا نجد أن القائد الرومانى الشهير بومبى- بعد أن حقق نـصرا نهائيـا على ميثراداتيس ملك بنطوس عام 64 ق.م- زار أنطاكيـة عاصـمة المملكـة السليوقية المتداعية الأركان، وأعد حملة لضم سوريا وإنهاء حالـة الفوضـى، وبمنتهى السهولة تم ضم سوريا وتحويلها إلى ولاية رومانية منذ هذا التاريخ[2].

([1]) Justin XL,2.

([2]) Appian,The Syrian Wars,49-50; Downey(1951); pp. 149-163.

روما ومصر

في عام 30 ق.م أعلن القائد الروماني الكبير اوكتافيوس(أوغسطس فيما بعد) ضم مصر الى سلطان الشعب الروماني- كما ذكر في النقش المعروف بنصب أنقرة- بعد انتصاره في معركة أكتيوم البحرية عام 31 ق.م على قوات ماركوس أنطونيوس وكليوباترا السابعة ملكة مصر، وبالتالي حسمت هذه المعركة مصير الدولة البطلمية. والواقع أن احتلال الرومان لمصر لم يأتِ من فراغ، بل كان مرحلة متأخرة من مراحل العلاقات بين مصر البطلمية والجمهورية الرومانية[1]، أي أن هذا الاحتلال كان النتيجة الحتمية لسلسلة من العلاقات تعود إلى عهد بطليموس الثاني فيلادلفوس. وقد مرت العلاقة بين الطرفين بعدد من الأطوار والمراحل ، وكل منها كان انعكاسا صادقا لميزان القوة بين الطرفين، وكأنما كانت هناك علاقة عكسية بين الطرفين بمعنى أنه كلما زادت روما قوةً ازدادت مصر ضعفاً، وبالتالي يكون هناك مزيد من التدخل من جانب الرومان في مصر ومعه مزيد من الابتزاز والحصول على أموال وثروات مصر بعد أن سيطر الرومان على العالم. وكان احتلال مصر هو مسك الختام بالنسبة للرومان حيث اكتملت منظومة الفتوحات الرومانية، وأصبح الرومان القطب الأوحد في العالم المسكون حينذاك، وتحول البحر المتوسط إلى بحيرة داخلية بالنسبة للرومان.

تعود أول أخبار العلاقة بين الطرفين تعود الى عهد بطليموس

([1]) حسين الشيخ(2000)؛ العصر الهلينيستي(مصر)، الاسكندرية ،،ص 36.

فيلادلفوس حيث كانت روما تعانى من غزو القائد الكفء بيرهوس Pyrrhus ملك إبيروس (319-272 ق.م) لإيطاليا، وتهديده للرومان فى عقر دارهم[1].

وحدث أن عقدت روما اتفاقية مع ملك مصر بطليموس الثانى فيلادلفوس بعد تبادل السفارات بين الجانبين فى عام 273 ق.م، حيث سجل يوتربيوس(Eutropius) زيارة سفارة من الإسكندرية ألى روما نتج عنها توقيع اتفاقية صداقة بين الطرفين، فى حين سجل فاليريوس ماكسيموس (Valerius Maximus) قيام سفارة رومانية بزيارة الإسكندرية فى نفس العام.وقد قيل إن روما أرسلت سفارة إلى مصر، وفى المقابل أرسلت مصر سفارة أيضا إلى روما[2].

وجدير بالذكر أن الآراء تباينت حول طبيعة وهدف العلاقات بين الطرفين خلال هذه المرحلة، فبعض المؤرخين رد هذه العلاقات إلى أسباب عسكرية حيث إن بطليموس فيلادلفوس كان أشد ما يخشاه هو انتصار بيرهوس على أنتيجونوس فى بلاد اليونان، ومن ثم يتحد مع سوريا ضد مصر، لذا بذل فيلادلفوس قصارى جهده من أجل تكوين تحالف مضاد، غير أن هذا الرأى تعرض لانتقادات بسبب أن بطليموس كان لا يريد جر روما إلى تحالف معه ضد سوريا أو قرطاجة أو حتى بيرهوس، بل إن مصر كانت ترغب فى تأمين طرق تجارتها مع الغرب الأوروبى، وكان لروما من القوة والنفوذ ما يجعلها تسيطر على القرصنة فى البحر التيرانى[3]، ويدعم هذا التفسير الاقتصادي ما توصل إليه علماء المسكوكات- وخصوصا عالم المسكوكات الشهيرها رولد

([1]) Flor.I, 13; Appian,Rom.His III,frag.,10; Frank CAH1928, pp 658-662 ;Lewis& Reinhold (1990), pp 86-87.
([2]) Eutropius II, 15; Dionysius Hall., Ant.Rom XX,14.1-2; Dio Cass., X. 41; Neatby, TAPA 1950,pp 92-97.
([3]) Neatby,TAPA 1950, p91.

مانتجلى[1](H.Mattingly) –من آراء تتعلق بالمفاوضات المصرية الرومانيـة التي تمت في عام 273 ق.م. حيث وجدت مجموعة من العملات التى ضـربت فى كمبانيا عام 269 ق.م من فئة الدراخمتين والتى تحمل على ظهرها مجموعة من الحروف اليونانية التى تشبه نفس الحروف الموجودة على العملـة – فئـة العشر دراخمات– التى ضربت فى الإسكندرية بمناسبة تأليه الملكة أرسـينوى الثانية بعد وفاتها عام 270 ق.م. ويقلل البعض من قوة هذا الدليل على اعتبـار أن روما لم يكن باستطاعتها سك عملة فضية فـى 269 ق.م دون أن تـستورد الفضة– ربما من مصر– لأنها لم تستطع استيرادها من تارنتوم التى كانـت لا تزل تعانى من التخريب الذى أحدثته حرب بيرهوس، أو حتى من قرطاجة التى لم تجد بعد زوال خطر بيرهوس ما يدفعها لتقديم الفضة إلى روما[2]. وفى المقابل كانت هناك رغبة لدى فيلادلفوس فى زيادة نشاط مصر التجارى فـى أسـواق الغرب الأوروبى[3].

- **موقف مصر من الحرب البونية**

في عام 264 ق.م أثناء الحرب البونية الأولى طلبت روما مـساعدات مالية من فيلادلفوس الذى رد بلباقة دون أن يغضب الرومان؛ لأنه لـم يـشأ أن يتورط فى هذه الحرب الكبرى، وفضل أن يبقى على الحياد بين الطرفين، بـل إنه عرض التوسط للصلح بينهما. وقد أورد يوتريبيوس[4] نصا يتعلق بالموقف بعد انتهاء الحرب البونية الأولى، وانتصار روما، وفرضها شروطا مجحفة علـى

---

(1) العالم هارولد مانتجلى له إسهامات معروفة فى مجال المسكوكات فقد شارك مع آخرين فى إمداد مكتبة الدراسات الكلاسيكية بمؤلفين على قدر كبير من الأهمية وهما نقود الإمبراطورية الرومانية فى أكثر من جزء (H.Mattingly et al.;Roman Imperial Coinage)، والنقود الرومانية فى مكتبة المتحف البريطانى (H.Mattingly et al.; Coins of the Roman Empire in the British Museum)

(2) Neatby,TAPA 1950,,pp 93-92.

(3)حسين الشيخ 2000، ص 37.

(4) Eutropius III.1.

قرطاجة، حيث ذكر أن الرومان بعد انتصارهم على قرطاجة أرسلوا سفراء إلى بطليموس الثالث (يوارجتيس الأول) ملك مصر، وبذلوا له الوعود بالمساعدة ضد أنطيوخوس ملك سوريا -الذى شن عليه الحرب-، ولم يقبل بطليموس العرض شاكرا لأن القتال قد انتهى.

غير أن هذا النص من السهولة بمكان نقده ؛ لأنه من غير المقبول أن تتعهد روما بإرسال قوات عسكرية إلى الشرق لحماية مصر من أطماع سوريا فى وقت عصيب بعد خروجها مجهدة من حرب كالحرب البونية الأولى، إضافة إلى هذا فإن هذا النص ليس له ما يؤيده من نصوص مماثلة حتى عند ليفيوس، وهو الذى نقل عنه يوتربيوس، إلى جانب أنه ذكر أنطيوخوس ملك سوريا ولم يحدد اى أنطيوخوس، كذلك فإن الحرب السورية الثالثة قد إنتهت مع الحرب البونية الأولى فى نفس العام. إذا فهذا النص لا يمتلك أى مقومات لتصديقه[1]، لكن من الممكن وضع هذا النص فى سياق رغبة الرومان فى استمرار علاقاتهم الودية مع مصر، وتبادل المعلومات العسكرية بين قوتين يهم كل منهما الاحتفاظ بالأوضاع القائمة في حوض البحر المتوسط دون تغيير[2]. ويمكن تفسير الموقف الرومانى على أنه محاولة من روما للإبقاء على الأوضاع السياسية السائدة فى حوض البحر المتوسط، وتعطيل أية محاولة لخلق دولة جديدة قوية قد تشكل خطراً بأى شكل من الأشكال على الكيان الرومانى الذى بدأ فى التضخم، أو على الأقل محاولة تطويع الأوضاع السياسية القائمة لمصلحة روما أولاً وقبل كل شيء[3].

وخلال الفترة 218-202 ق.م كان الصراع الرومانى القرطاجى تدور

---

(1) فاروق القاضى1965، ص130.
(2) عبد اللطيف أحمد على(1993)؛ مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية، القاهرة ، ص 4.
(3) حسين الشيخ (2000) ، ص 37.

رحاه في شوطها الثانى، ويقوده أمهر القواد العسكريين مثل هانيبيال وفابيوس وسكيبيو إيمليانوس وغيرهم. وجدير بالذكر أن الرومان سُحقوا فى موقعة كناى Cannae عام 216 ق.م، لكنهم نجحوا فى حسم الحرب لصالحهم فى موقعة زاما عام 202 ق.م.

أما عن موقف مصر فنجد أنها لم تندفع وراء النصر الجديد، ولم تتعد حدود الحياد الكريم من جهة الرومان، حيث إن بطليموس الرابع ورجال حكومته قد بذلوا كل ما فى وسعهم للوقوف على الحياد بين الفريقين المتحاربين، وإن كان الملك هيرون ملك سيراكوزه قد انضم طواعية إلى هانيبال، وأرسل الرسل إلى الإسكندرية من أجل إقناع بطليموس بتقديم الدعم والمساعدة لهانيبال، إلا أن بطليموس قاوم هذه المحاولة ووقف على الحياد بين الطرفين- الرومان والقرطاجيين[1].

وبعد موت بطليموس الرابع المفاجئ تولى ابنه بطليموس الخامس إبيفانيس الملك عام 203 ق.م تحت وصاية اجاثوكليس الذى أرسل رسولا من قبله يدعى بطليموس بن اجيسارخوس إلى روما ليعلن نبأ ارتقاء بطليموس الخامس العرش، ويستحث السناتو على التوسط بين أنطيوخوس وبين مصر[2]. وفى عام 200 ق.م – أى بعد انتهاء الحرب البونية الثانية مباشرة – أرسل الرومان إلى ملك مصر(بطلميوس إبيفانيس) سفارة من ثلاثة أعضاء هم جايوس كلاوديوس نيرو، وماركوس ايميلوس لبيدوس، وسمبرونيوس توديتانوس ليعلموه بنبأ هزيمة هانيبال، وليشكروه على ولائه الذى لم يتزعزع في الوقت العصيب الذى تخلى فيه عن الرومان أوثق حلفائهم راجين منه أن يظل على ولائه القديم للشعب الرومانى إذا حدث أن أعلن الرومان الحرب على فيليب

(1) إبراهيم نصحى (1984)، جـ1، ص 164.

(2)Poly XV,25.14.

الخامس (ملك مقدونيا) مدفوعين بالإساءات التي لحقت بهم على يديه[1].

وجدير بالذكر أن هذه السفارة تعبر عن امتنان الرومان لوقوف مصر إلى جانبهم أثناء الحرب بعد أن أصاب إيطاليا فى عام 210 ق.م قحط ارتفع معه ثمن القمح بسبب الحقول التى خربها هانيبال، ولم ينتظر الرومان أى مدد من أى بلد غير مصر، إذ كانت الدولة الوحيدة التى كانت وقتئذ فى سلام معهم، ويذكر بوليبيوس أن مجلس الشيوخ الرومانى أرسل إلى الإسكندرية سفيرين من أجل إعادة ذكرى الصداقة القديمة بين البلدين وتجديدها، وكانا يحملان هدايا تشمل حلة رومانية، وقميصاً أرجوانياً، وعرشا من العاج للملك، وقميصاً مطرزاً وعباءةً من الأرجوان للملكة، وكان الغرض من هذه الهدايا هو أن ترسل مصر القمح إلى روما، وفعلاً استجاب بطليموس الرابع، وأرسل القمح إلى روما، وبذلك دفع ثمن الهدايا التى أرسلت إليه أضعافاً مضاعفة. ولا يفوتنا أن نؤكد على أن هذين السفيرين قد اطلعا عن قرب على حياة بطليموس الرابع، وحملا معهما التأكيدات بأن الملك يفضل اللهو والملذات.

ولم يلبث بطليموس الخامس إبيفانيس أن أوفد إلى روما سفارة لتعلن بسمه: " أن الأثينيين قد سألوه المعونة ضد فيليب، ولكنه لم يرسل أية معونة إلى بلاد الإغريق على الرغم من أن أثينا حليف مشترك له وللرومان، ولن يرسل أسطوله أو جيشه إلى أثينا سواء للدفاع أو الهجوم دون موافقة الشعب الرومانى، فإذا شاء الرومان الدفاع عن حلفائه فسيبقى في مملكته ساكنا، أما إذا آثروا ألا يتخذوا أية خطوة فإنه على استعداد لأن يرسل قوات في وسعها أن تحمي أثينا من عدوان فيليب. وقد شكر السناتو الملك، وأُبلغ السفراء أن الشعب الرومانى قد اعتزم حماية حلفائه، فإذا احتاجوا إلى المعونة فى تلك الحرب فسوف يخبرون بطليموس لثقتهم بأنه فى وسعهم دائما الاعتماد على موارد

---

(1) Livius XXXI,2.3-4.

مملكته لسد حاجات الجمهورية[1].

وبالرغم مما يكتنف هاتين الروايتين من شك فليس فى الاستطاعة إغفالهما أو إنكارها تماما، بل ينبغي اتخاذهما قرينة على أن مصر قدمت لروما أثناء حربها ضد هانيبال مساعدات نقدية أو عينية وفقا لتفاهم ضمنى أو صريح, وأنه ثمة اتفاق قائم بينهما منذ أيام بطليموس فيلادلفوس القصد منه -فيما يبدو- حفظ التوازن السياسى في بلاد الإغريق[2].

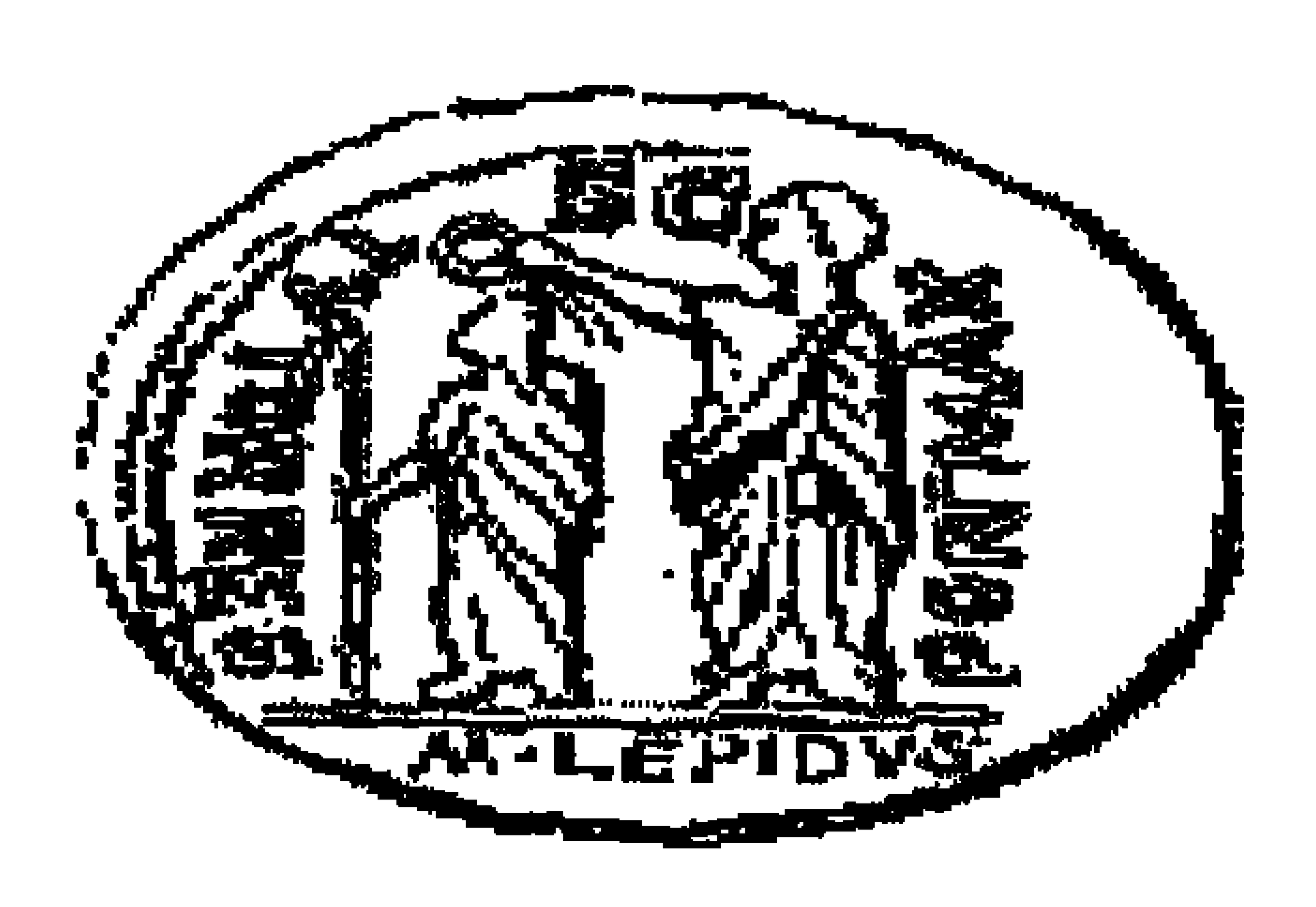
وقد ارتبطت بالسفارة التى أرسلتها روما (حوالى 200 ق.م) بعد تحقيقها نصراً نهائياً على قرطاجة إشاعة تم الترويج لها فى روما وفحواها أن بطليموس الرابع قد طلب من روما أن تتولى الوصاية على ابنه الطفل، وقد ادعى لبيدوس الذى كان رئيسا لهذه السفارة أنه أقام من نفسه وصيا على هذا الطفل، لكن هذه الفكرة تفتقد إلى التأكيد أو حتى مجرد الذكر العابر فى كتابات المؤرخين الموثوق بهم مثل بولبيبوس وليفيوس اللذين أخبرانا عن هذه السفارة دون الإشارة أوحتى التمليح لمثل هذا الأمر، غير أن هناك إحدى العملات التى سكها أحد أحفاد لبيدوس من أسرة إيميليا Aemilia، وهذه العملة هى عبارة عن دينار نادر من الفضة يعود لأسرة إيميليا نقش على أحد وجهيه: "مارك لبيدوس الكاهن الأعظم الوصى على الملك (*M.Lepidus Pont.Max Tutor Reg.* S.C)، ويظهر لبيدوس واقفا مرتديا العباءة الرومانية المعروفة (toga) وهو يضع تاجا فوق رأس ملك صبى واقف أمامه، ويرتدى زيا مشابها، ويحمل رمحا فى يده اليمنى. أما على الوجه الآخر فنجد كلمة الإسكندرية (Alexandria) مع رأس امرأة[3].

---

(1) Livy XXX,9.1-5.

(2) عبد اللطيف أحمد على(1993)، ص ص4-5.

(3) The Dictionary Of Roman Coins ,sv, *Tutor REGIS.*



وقد كتب فاليرموس ماكسيموس Valerius Maximus[1] عن هذه العملة قائلا :(ترك الملك بطليموس الوصاية على ابنه فى يد الرومان، فأرسل السناتو الرومانى ماركوس إيميليوس لبيدوس- الذى تولى القنصلية مرتين - إلى الإسكندرية من أجل هذا الغرض لكى يتولى أمر الوصاية على الملك الصغير). كما ذكر يوستينوسJustenius نصا يقول فيه[2]: (عند وفاة الملك أرسل سكان الإسكندرية سفارة إلى الرومان يرجونهم أن يتولوا أمر الوصاية على الملك الصغير، وتحمل أمر مصر، وقد أوفد السناتو مارك لبيدوس إلى مصر لكى يتولى أمر الحكومة، وحمل لقب توتر أى الوصى). وقد ذكر هذا أيضا تاكيتوس Tacitus[3] عندما قال :(كما أرسل أجدادنا مارك لبيدوس إلى مصر كوصى على الملك بطليموس الطفل). وعلى الرغم من هذه النصوص الثلاثة فإن خبر وصاية لبيدوس على الملك الصغير بطليموس الخامس يعتبر أمراً مستبعداً ومشكوكاً فى صحته، وذلك لعدة أسباب:

- لا نجد له أى ذكر فى المصادر الموثوق بصحة أخبارها مثل ليفيوس أو بوليبيوس، إلى جانب أنه من غير المعقول أن يشغل مارك لبيدوس مثل هذه الوظيفة مع تحمله أعمالاً وأعباء كثيرة خلال هذا الوقت على وجه التحديد.

([1]) Valerius Maximus, VI,.6.1.
([2]) justin XXX,3,3-4.
([3]) Tacit, Ann. II,67.

- الواقع أن روما فى هذا الوقت لم تكن القوة الجبارة المتفردة، بل كانت لا تزال هناك مقدونيا ومملكة السليوقيين، ولذا فمن غير الجائز أن يعتمد السكندريون-حيث قيل إنهم أرسلوا إلى روما من أجل أن تتولى الوصاية على الملك الطفل- على قوة لا تزال ناشئة مهما كانت قوتها، ويهملون القوى الكبيرة التى تنتمى لهم مثل مقدونيا على وجه التحديد إذا ما استبعدنا سوريا بسبب الخلاف حول جوف سوريا.
- كذلك لم تصل مصر خلال هذه المرحلة إلى هذه الدرجة من الضعف التى تتطلب وضع الوصاية على الملك فى يد روما، إلى جانب وجود كثير من القادة فى البلاط البطلمى ممن يستطيعون تولى أمر الوصاية على الملك.
- توفى بطليموس الرابع فيلوميتور حوالى عام 203 ق.م، وفى هذا الوقت كانت روما تبحث جديا عن تكأة لكى تشن بها حربا على فيليب الخامس ملك مقدونيا، لذا نرى أنه كان من بين أهداف السفارة الحصول على معلومات عن الشرق الهللينستى؛ لأن الصدام بات وشيكا بين فيليب المقدونى وبين الرومان.

لذا نرى أن أمر هذه الوصاية لا يستند إلى أدلة تدعمه، وإنما الأولى أن نذكر أن رسائل بطليموس الرابع فى نهاية عهده إلى الرومان كانت تدعو إلى استمرار الصداقة والعلاقات الطيبة بين الطرفين خلال عهد ابنه أيضا، وهو ما تم تفسيره على أنه دعوة لوصاية الرومان على الطفل حيث تناولها الكتاب الرومان بشئ من المبالغة والتهويل إلى حد أن يوصى الملك الرومان بتولى الوصاية على ابنه الملك الصغير من بعده، وقد دعم هذا الظن وصول البعثة عقب انتصار روما على هانيبال فى وقت كان فيه الملك حدثا لا يعى ما يدور حوله. ومن الجائز أيضا- كما افترض بعض الباحثين- أنه كانت هناك علاقة

خاصة بين الملك الطفل بطليموس إبيفانس وبين هذا العاهل الرومـــانى الكبيـــر حيث إنه من الجائز- نتيجة لهذه العلاقة- أن يمثل مصالح مصر فى رومـــا أو يحمى تلك المصالح بها[1].

- **التدخل السياسى**

لم يأت القرن الثانى ق.م حتى كانت هذه العلاقات قد انتقلت إلى طور جديد وهو طور التدخل السياسي من جانب الرومان فى شئون البطالمة، وكانت روما في تلك الأثناء قد ازدادت قوة، بينما ازدادت مصر ضعفا نظرا لتردى أوضاعها الداخلية، وكثرة الخارجين على الحكومة المركزية سواء فى الدلتا أو طيبة مما كان له الأثر السيئ على أوضاع ممتلكات مصر الخارجية حتى طمع فيها كل من فيليب الخامس ملك مقدونيا(221-179 ق.م) وأنطيوخوس الثالث ملك سوريا (223-187 ق.م). وهكذا شاءت الأقدار أن يتولى عرش العالم الهيللينستى فى الفترة التى عاش فيها بطليموس الرابع ملكان آخران مقدونيان وهما أنطيوخوس الثالث، وكان فى الثامنة عشر من عمره، وفيليب الخامس الذى كان فى السابعة عشر من عمره. ومما يلفت النظر أنه فى هذه الفترة التى حكم فيها هؤلاء الملوك الثلاثة- الذين كانوا يعدون خلفاء على إمبراطورية الإسكندر الأكبر- أخذت بوادر قوة روما وبطشها تظهر فى عالم البحر المتوسط الأبيض. ومع انتهاء حكم هؤلاء الملوك الثلاثة أصبحت روما تفرض نفوذها على هذه الممالك، بل فرضت شروطا مهينةً عليها، وباتت تتدخل بشكل سافر فى الأمور الداخلية لها سواءً بشكل مباشر وغير مباشر. وقد جمع أنطيوخوس الثالث وفيليب الخامس الطموح والرغبة فى توسيع ممتلكاتهما على حساب الغير، وكان هذا الغير هو مصر التى يحكمها طفل صغير تحت وصاية رجال

([1]) E.R.Bevan(1927), The House of Ptölemy, pp 257-258.

غير أكفاء وغير أمناء فى ذات الوقت فعقب وفاة بطليموس الرابع وتولية ابنه الطفل(بطليموس الخامس) يقال إن هناك اتفاقية عقدت بين أنطيوخوس وفيليب نصت على تقسيم ممتلكات مصر، وقد حظيت هذه الاتفاقية أو المعاهدة بصدى كبير في عدد من المصادر الأدبية، نوجز منها ما يلي:-

* بوليبيوس الذى يعد المصدر الأقدم والأكثر ثقة فى آن واحد، والذى تحدث عن هذه المعاهدة أو الاتفاقية فى فقرتين، قال فى الأولى[1] إن الملكين أنطيوخوس الثالث وفيليب الخامس بدلا من أن يساعدا الملك الصغير- بطليموس الخامس الذى تولى عقب وفاة والده-؛ شجع كل منهما الآخر على التحرك من أجل تقسيم ممتلكات الطفل. وفى الفقرة الثانية[2] وصف بوليبيوس هذا الاتفاق الذى أبرم عام 202 ق.م بين الملكين بأنه مشين، وحدد المناطق التى سيحصل عليها كل منهما نتيجة له حيث سيحصل أنطيوخوس على جوف سوريا وفينيقيا، بينما يحصل فيليب على جزر بحر إيجة وساموس وكاريا.
* ذكر ليفيوس[3] أن رغبة فيليب كانت المحرك أو الدافع لهذه الاتفاقية من أجل تقسيم ثروة مصر التى كانت تحت أيديهما عقب سماع نبأ موت ملك مصر، ولم يحدد ليفيوس مناطق التقسيم، بل اكتفى بالقول بتقسيم" ثروة مصر Aegypti opes" ، وأكد أنها كانت تحت أيديهما، وهو ما يشير بداهة إلى جوف سوريا وفينيقيا وممتلكات مصر فى حوض بحر إيجة.
* تحدث ابيانوس[4] عن أن مصر نفسها كانت ضمن مناطق التقسيم، فذكر أن الملكين اتفقا على أن يساعد فيليب أنطيوخوس فى الاستيلاء على مصر

(1) Poly XV,20.2-3.
(2) Poly III,2.8
(3) Livys XXXI,14.
(4) Appian; The Macedonian Wars, 4.

وقبرص، فى حين يساعد أنطيوخوس فيليب فى ضم قورينى وجزر الكيكلادس وأيونيا. وتتسم عبارة ابيانوس بوجود خطأ تاريخى لأنه خلط بين بطليموس الرابع والخامس، ولكن الأصح هو أن بطليموس الخامس هو المقصود وليس الرابع[1].

وهكذا سنحت لروما فرصة التدخل في شئون مصر متذرعة بحجة حمايتها من عدوان الملكين، غير أن الباعث الحقيقى لتدخلها هو حرصها على عدم اختلال التوازن الدولى في منطقة الشرق الهللينستى. وهكذا فقد كانت هذه الاتفاقية التكأة التى منحت الرومان فرصة التدخل العسكرى فى الشرق الهللينستى لوضع حد لطموحات وتطلعات فيليب المقدونى وحليفه أنطيوخوس الثالث الذى نجح بالفعل فى انتزاع جوف سوريا من مصر. وبالفعل تخلصت روما من فيليب فيما عرف بالحرب المقدونية الثانية (200-196 ق.م)، ثم من أنطيوخوس الثالث عند ممر الثيرموبلاى Thermepylae، الذى فر إلى آسيا حيث لم يجد في بلاد اليونان من يساعده، ثم كان الانتصار الحاسم فى معركة ماجنيسيا Magnesia عام 190 ق.م، وعلى أثر هذه الهزيمة استسلم أنطيوخوس لشروط الصلح التى وضعها الرومان، هكذا أنهت روما على أحلام وطموحات فيليب المقدونى وحليفه أنطيوخوس الثالث.

وعلى صعيد الوضع فى مصر، ففى عام 170 ق.م- وفقا لإحدى البرديات (P.Ryl. IV,583) -غزا أنطيوخوس الرابع (215-163 ق.م) ملك سوريا الأراضى المصرية، وهزم جيشا بطلميا عند تل كاسيون Casion، واحتل بلوزيوم، وواصل زحفه حتى منف، وفيها التقى ابن أخته بطليموس السادس فيلوميتور ملك مصر الذى أقر الاتفاق الذى يقضى بوصاية خاله أنطيوخوس الرابع عليه، ولما علم السكندريون بهذا الاتفاق ثاروا على فيلوميتور

([1]) فاروق القاضى (1965)، ص ص159 وما بعدها.

في الوقت الذى استمر فيه أنطيوخوس فى سيره شمالاً حتى حاصر الإسكندرية، وأعلن أنه يريد إعادة بطليموس فيلوميتور– الذى تركه فى منف– إلى العرش بجانب أخيه يوارجتيس الثانى الذى وضعه السكندريون على العرش بعد الثورة على فيلوميتور، بعد كل هذا اضطر أنطيوخوس إلى رفع الحصار عن الإسكندرية والعودة إلى سوريا.

ويعتقد البعض أن أنطيوخوس انسحب بمحض إرادته بعد إعادة فيلوميتور إلى عرشه بعد وساطة من بعض سفراء المدن اليونانية الذين تصادف وجودهم بالإسكندرية حينذاك، فقبل أنطيوخوس وساطتهم، وقفل عائدا إلى بلاده إذ لم تكن لديه نية لاحتلال مصر هذه المرة[1]. وعلى الجانب الآخر يرى البعض أنه أنسحب مرغما بسبب صمود ومقاومة حصون الإسكندرية، إلى جانب حدوث اضطرابات في بلاده، وثورة ياسون كبير كهنة اليهود فى فلسطين ورواج إشاعة عن مقتله. على أية حال حال انسحب أنطيوخوس إلى بلاده[2]. ومن ناحية أخرى فقد كان أنطيوخوس يخشى الرومان، وكان ينظر إليهم بعين الاعتبار، لذلك فعند عودته إلى سوريا أرسل إلى روما هدية– أو بالأحرى رشوة– مقدارها خمسون تالنت، من أصل مائة وخمسين تالنت، والمائة تالنت لبعض المدن اليونانية[3].

وسرعان ماعاد أنطيوخوس الرابع لغزو مصر مرة ثانية فى عام 168 ق.م، وكانت لديه –فى هذه المرة – نية فى خلع الأخوين، وضم مصر إلى مملكته مدفوعاً بانشغال روما بالحرب المقدونية الثالثة ضد برسيوس. وقد زحف أنطيوخوس إلى مصر بعد أن استولى أسطوله على قبرص التى انحاز حاكمها البطلمي إليه، وبلغ بيلوزيوم حيث جاءه سفراء من قبل فيلوميتور ليبلغوه شكر الملك على مساعدته فى استرداد عرشه ويبلغوه أنه قد تصافى مع أخيه

---

(1) Poly XXVIII,19.2-6.

(2) فاروق القاضى (1965)، ص 203.

(3) Poly XXVIII,22.

الأصغر، وبالتالى فلم يعد بحاجة إلى مساعدته. وعندئذ طلب أنطيوخوس أن يحصل على قبرص وبيلوزيوم. وكان طبيعياً أن يُقابل هذا الطلب بالرفض، فاستأنف أنطيوخوس تقدمه حتى بلغ منف مثلما فعل فى الحملة الأولى، وفيها توج نفسه ملكا على مصر، ثم واصل زحفه إلى الإسكندرية، فاستنجد الملكان الأخوان بالعصبة الآخية فى بلاد اليونان طلبا للمعونة العسكرية للوقوف فى وجه أطماع خالهما أنطيوخوس الرابع، غير أن مجلس العصبة رفض التدخل العسكرى، واكتفى بإرسال سفارة لإقرار السلام بالطرق السلمية بين أنطيوخوس وابنى أخته ملكى مصر، لذا لجأ البلاط السكندرى لطلب المساعدة من الرومان الذين كانوا فى ذات الوقت مشتبكين فى الحرب المقدونية الثالثة مع برسيوس، فقرر السناتو الرومانى إرسال بعثة سياسية إلى مصر.

وقد واصل أنطيوخوس زحفه حتى وصل إلى الإسكندرية، وضرب حصاراً عليها، وعند ضاحية اليوسيس اعترضته سفارة رومانية على رأسها بوبيليوس لايناس C.Popilius Laenas، الذى كان السناتو الرومانى – بعد الانتصار الساحق على برسيوس ملك مقدونيا في معركة بيدنا Pydna في يونيو عام 168 ق.م – قد عهد إليه بالاتجاه إلى مصر لكى يأمر الفريقين بوقف القتال، وينذرهما بأن روما لن تعتبر المعتدي صديقا أو حليفا[1]. وليس هناك أبلغ من وصف المؤرخ الروماني ليفيوس[2] الذى ينقل لنا عن بوليبيوس (XXIX,27) المشهد المثير الذى جمع بين أنطيوخوس ولايناس؛ ذلك السفير الرومانى الذى كان على قدر كبير جدا من الغطرسة، وهو مشهد راجت قصته رواجا كبيرا بين الرومان، وقد جاء على النحو التالى:

" وبعد أن عبر أنطوخيوس النهر عند اليوسيس (النزهة)؛ وهو مكان يبعد عن

(1) Livy XLIV, 19;See also Justin XXXIX,2.7-8.
(2) Livy XLV,12.

الإسكندرية أربعة أميال، اعترض طريقه السفراء الرومان، فلما اقتربوا منه حياهم الملك، ومد يده لمصافحة بوبيليوس غير أن بوبيليوس سلمه لوحا مدونا عليه قرار السناتو، وأمره بأن يقرأه قبل أي شيء آخر، فلما فرغ الملك من قراءته قال إنه سوف يدعو أصحابه ليستشيرهم فيما ينبغي أن يفعله، وعندئذ رسم بوبيليوس- بما جبل عليه من خشونة في الطبع- بعصاه التى كان يحملها بيده دائرة حول الملك قائلاً له: أعطني ردا أبلغه للسناتو قبل أن تخطو خارج هذه الدائرة، وذهل الملك من لهجة الأمر العنيفة، وتردد للحظة قصيرة، قال بعدها: سأفعل ما يقرره السناتو، عندئذ فقط مد بوبيليوس يده مصافحاً الملك كما يمدها إلى حليف وصديق[1]". ثم انسحب أنطيوخوس من مصر، وكان عليه أيضا أن يترك قبرص التى احتلها أثناء حملته على مصر، أما لايناس فقد قدم النصيحة للأخوين بضرورة تحقيق قدر كبير من التفاهم بينهما، وغادر إلى قبرص لطرد أسطول أنطيوخوس منها [2].

وهكذا أنقذت دائرة لايناس مصر من براثن الوقوع فى قبضة أنطيوخوس الرابع، ومع ذلك فقد كانت هذه الحادثة ذات آثار بعيدة المدى على روما وتطور علاقتها بمصر من ناحية، وكذلك على سوريا من الناحية الأخرى.

فبالنسبة لروما أحرزت صيتا فى جميع أنحاء الشرق الهللينستي، وأضحت من القوة بحيث إنها أصبحت مرهوبة الجانب، كذلك اتسم سلوك سفيرها بالغطرسة والصلف والغرور البالغ، وما هو السبيل وهذه هى غطرسة القوة. وهذا المسلك الفظ يذكرنا بمواقف كثيرة مشابهة تجرى فى أيامنا هذه تتعمد إهانة الغير والتعامل معه من منطق غطرسة القوة التى تسول لصاحبها إهانة الآخرين، والتصرف بما يتوافق مع مصلحة وأطماع صاحب هذه القوة دون أن

---

(1) عبد اللطيف احمد على (1993)، ص ص8-9.

(2) Poly., XXIX ,27.9.

يقيم وزنا لرغبات أو نزعات الآخرين.

أما بالنسبة لمصر فقد أثبتت هذه الدائرة أنها كانت بمنأى عن العداوات مع روما قبل ذلك، وكانت تتمتع بحمايتها فى بعض المناسبات كلما دعت الضرورة، إلا أن هذه الدائرة كانت نذيراً بأن روما قد غدت وصية عليها وحامية لها من العدوان الأجنبى، وسيتطور الأمر إلى أن تصبح صاحبة اليد الطولى في تنصيب ملوكها وخلعهم، وإجلاسهم على العرش بالقوة رغما عن شعب مصر. فمصر أصبحت على درجة كبيرة من الضعف لدرجة أن مصيرها تقرره روما، ومن الآن فصاعدا أصبح البطليموس يلتمس تأييد الرومان فى كل خطواته وسياساته. لقد كان هدف روما هو إنهاء هذه الحرب لصالحها وليس لصالح سوريا أو مصر، وهنا تكمن مهارة الرومان فى تحقيق مكاسب من أى حدث مثل هذا.

وعقب عودة فيلوميتور من إحدى حملاته فى الجنوب دبر أخوه الأصغر (بطليموس الثامن يوارجتيس الثانى) مؤامرة ضده فثار السكندريون ضده، فلم يستطع فيلوميتور المقاومة وفر إلى روما لينجو بحياته، وبالتالى انفرد الأخ الأصغر بالحكم بالإسكندرية. وهكذا أتيحت لروما الفرصة للمزيد من التدخل فى شئون مصر الداخلية، وفى هذه المرة كان عليها أن توفق بين الأخوين وتنصب نفسها حكما بينهما، وحامية لأحدهما ضد الآخر. وقد اتسم مسلك فيلوميتور فى روما بالتواضع مما أكسبه تعاطف السناتو الرومانى، غير أنه أراق ماء وجهه- ووجه مصر بالطبع- أمام السناتو الرومانى طلبا للمساعدة و الذى طلب منه التوجه إلى قبرص لحين إرسال سفارة من روما إلى الإسكندرية للتوفيق بينه وبين أخيه، وتقسيم المملكة بينهما[1]. لكن هل كان الرومان جادين فى مساعدة فيلوميتور ودعم استقرار المملكة البطلمية؟ الواقع أن الرومان لم

([1]) Val.Max.,V.1.

يكونوا جادين فى هذا الأمر حيث استغلوا الشقاق بين الأخوين من أجل كسب مزيد من النفوذ، وكان هذا فى الواقع أفضل الوسائل للقضاء على البطالمة؛ لأن هذه النزاعات كانت هى بذور الفناء، وبالتالى أصبحت المملكة البطلمية فى مصر تحمل داخلها بذور فنائها.

وعلى الرغم من أن جماهير الإسكندرية هى التى ثارت على فيلوميتور وأجبرته على الفرار لينجو بحياته، إلا أنها هى نفسها التى أعادته للحكم، فبعد أن حكمهم الأخ الأصغر لمدة ستة أشهر رأوا أنه أسوأ من أخيه فيلوميتور؛ لأنه كان طاغية محبا لسفك الدماء، فكرهوا حكمه كرها شديدا، وثاروا عليه، وأرسلوا الرسل إلى قبرص يطالبون فيلوميتور بالعودة إلى الإسكندرية حيث مقر حكمه، وكان ذلك فيما بين أول أبريل والتاسع والعشرين من مايو عام 163 ق.م[1].

وقد كانت السفارة الرومانية موجودة بالإسكندرية، وبدلا من التدخل لصالح فيلوميتور الذى طالبه السكندريون بالعودة، نجد الرومان يتدخلون لا من أجل إقرار حق الملك العائد، بل من أجل تقسيم الحكم بينه وبين أخيه، فتم منح هذا الأخير قورينى، أما فيلوميتور فقد أسند إليه حكم مصر وقبرص، وقد تهلل الأخ الأصغر لهذا التقسيم الذى كان فى صالحه، وتبادل القسم مع أخيه على احترام بنوده كما ذكر بوليبيوس[2]. وهكذا دق الرومان أول مسمار فى نعش المملكة البطلمية؛ لأن هذه الاتفاقية كانت التكأة التى أتاحت لهم التدخل من آن لآخر فى شئون مصر الداخلية.

وهكذا انفرد فيلوميتور بحكم مصر، وكان يرغب فى أن تسير الأمور بسلام، إلا أن أخاه الأصغر أبى ذلك، ولم يدعه يهنأ بعودته إلى مصر، حيث

---

(1) Diod., XXXI,17c.:217 إبراهيم نصحى (1984)، جـ1ص
(2) Poly., XXXI,10.4-5.

زار روما أكثر من مرة محاولا إقناع الرومان بأن التقسيم قد ظلمه لصالح أخيه، وأنه ينبغى أن يحصل على قبرص إضافة إلى قورينى.

وعلى الجانب الآخر فقد كان الرومان لديهم استعداد للإصغاء إلى شكواه، بل العمل على تنفيذها؛ لأن هذه الاتفاقية أتاحت لهم التدخل فى شئون مصر من أجل التوفيق بين الأخوين، لذا وفد رسل الرومان إلى فيلوميتور من أجل إقناعه بمنح أخيه قبرص، لكن فيلوميتور نجح فى التسويف والمماطلة دون أن يغضب أو يستثير الرومان، ولم يتنازل عن قبرص، وذهب السفراء الرومان إلى الأخ الأصغر (بطليموس يوارجتيس الثانى) ليخبروه رفض أخيه منحه قبرص إلى جانب قورينى، ويدعونه إلى الالتزام ببنود اتفاق التسوية السابقة أو الاتفاق الموقع بينهما[1].

ونتيجة لهذا الرفض قرر يوارجتيس أن يجرب مسلكا آخر تلخص فى ترويج افتراءات ومزاعم غير صحيحة بخصوص العلاقة بين أخيه وبين الرومان، وذلك بهدف الإساءة إلى العلاقة بين الطرفين لصالحه. وقد أحرز يوارجتيس قدرا كبيرا من النجاح إذ إن العلاقة بين أخيه وبين الرومان قد اعتراها الفتور، وبذلك أصبح الرومان يميلون إلى تصديق كل ما يقال ضد فيلوميتور. وعلى هذا شكا يوارجتيس للرومان من أنه نجا لتوه من محاولة اغتيال دبرها له أخوه فيلوميتور. وكان السناتو الرومانى -كما ذكرنا من قبل- مستعدا لتصديق يوارجتيس فى الوقت الذى رفض فيه دفاع رسل فيلوميتور بشأن هذه التهمة، فأوفد لجنة خماسية من أعضائه لترافق يوارجتيس من أجل تنصيبه ملكا على قبرص، وأرسلت إلى حلفائها فى بلاد اليونان وآسيا تدعوهم لمساعدته[2].

---

(1) Poly., XXXI,10.6-10.
(2) Poly., XXXIII,11.

وقد سار يوارجتيس إلى قبرص يحدوه الأمل فى تلقى المساعدة من حلفاء روما ومن روما نفسها ومن أهالى قبرص، إلا أن الجميع تخلوا عنه، ونجح أخوه فى إلحاق الهزيمة به بل أسره، وبدلا من أن يفتك به أعاده إلى مملكته قوريني معززاً ومحملاً بالهدايا، بل ووعده بالزواج من ابنته. من هنا أعطاه درساً فى غاية الأهمية فى العفو عند المقدرة[1]. ويبدو أن يوارجتيس استوعب الدرس جيداً، ومنذ هذه اللحظة كف عن إثارة المتاعب فى وجه أخيه، وقنع بحكم قوريني، إلا أنه أوصى بها للرومان فى عام 155 ق.م إذا مات دون وريث كما يكشف عن هذا أحد النقوش المكتشفة فى قوريني. وهذه الوصية عبارة عن تملق فاضح من جانب يوارجتيس للرومان، ويبرر هذا النقش سر تصديق السناتو لمزاعم يوارجتيس بهذه السرعة، وهذا النقش عبارة عن وصية[2] وضعها يوارجتيس عام 155 ق.م، ويوصى فيها بأن تؤول مملكته إلى الرومان بعد وفاته فى حالة عدم وجود ولى للعهد، ولم توضع هذه الوصية موضع التنفيذ لأن يوارجتيس استرد عرش مصر بعد وفاة أخيه فيلوميتور في عام 145 ق.م، فأورث برقة عند وفاته عام 116 ق.م لابنه غير الشرعى

(1) Poly., XXXIX,7.6-7.

[2] "السنة الخامسة عشرة شهر لويوس (يونيو تقريبا) بالتوفيق فيما يلي وصية الملك بطليموس الابن الأصغر للملك بطليموس والملكة كليوباترا " الإلهين الظاهرين " والتى أرسلت منها أيضا صورة إلى روما، لتمنحنى الآلهة بفضلها القدرة علي أن أقتص قصاصا عادلا من أولئك الذين دبروا ضدي مؤامرة دنسة، وأخذوا على عاتقهم أن يسلبونى ليس مملكتى فحسب، بل حياتى كذلك، لكن إذا حدث لى شيء قبل أن أترك ورثة لعرشى فإنى أوصي بالمملكة التى فى حوزتي للرومان الذين حافظت بإخلاص منذ البداية على صداقتي وتحالفي معهم، وإليهم أعهد كذلك بحماية مصالحى، مناشدا إياهم باسم جميع الآلهة وبشرفهم أن يقدموا المساعدة بكل قواهم إذا اعتدى أحد على مدن مملكتى أو أراضيها طبقا لما تقتضيه العدالة، معاهدة الصداقة والتحالف القائمة بيننا، وقد أقمت شهودا على هذا الإجراء , جوبيتر الكابيتوليني والآلهة الكبار وهليوس وابوون مؤسس (قوريني) الذين أودعت فى حراستهم أيضا أصل هذه الوثيقة , وليكن التوفيق رائدا لها ".(SEG IX,7) ؛ عبد اللطيف أحمد علي (1993)، ص 10.

المدعو بطليموس أبيون Apion الذى عاد في سنة 96 ق.م، وأوصى قبيل وفاته بمملكته للشعب الروماني[1]، وقبل السناتو التركة، ولكنه لم يضع يده إلا على الأراضي الملكية تاركا المدن تتمتع باستقلالها، ولما أدى ذلك إلى انتشار الفوضى في قورينى نظمها السناتو على شكل ولاية رومانية في عام 74 ق.م. ومما لا شك فيه أن يوارجتيس قد سن سنة سيئة، وقلده أتالوس الثالث Attalus III ملك برجامون عام 133 ق.م، وبطليموس أبيون ملك قورينى عام 96 ق.م، ونيقوميديسNicomidus ملك بيثونيا عام 74 ق.م[2].

- **زيادة اهتمام الرومان بمصر**

تطورت العلاقات بين الطرفين تطورا سريعا، واتخذت بعداً جديداً تمثل في ازدياد اهتمام الرومان بشئون مصر، والتعرف على أحوالها طمعا في ثروتها. ففي عام 144 ق.م[3] أوفد السناتو الرومانى سفارة على رأسها سكيبيو ايميليانوس Scipio Aemilianus قاهر قرطاجة بهدف دراسة أحوال الدول الحليفة أو الصديقة فى الشرق[4]. وقد نزل سكيبيو فى الإسكندرية حيث استقبله بطليموس الثامن يوارجتيس الثانى بحفاوة بالغة، ومشى معه من الميناء إلى القصر الملكى وهو يلهث من بدانته. وتروى القصة أن سكيبيو أسرّ فى أذن بنايتيوس Penatius الفيلسوف الرواقى وأحد رفقائه في الرحلة أن مواطني الإسكندرية مدينون له بشيء واحد وهو أنهم شاهدوا ملكهم وهو يسير لاهثا متنقلا بين القصر الملكى والميناء أثناء الزيارة[5]. وكان يوارجتيس بدينا سمينا

---

(1) Justin XXXIX,5.2; Cf. Livius , Periochae LXX.

(2) Appian, Civil WarsI.111.

3 يعتقد بعض الدارسين ان تاريخ هذه السفارة هو 140/139 ق.م غير ان التاريخ الاقرب للصحة هو 144 ق.م ، راجع: A. E. Astin; Diodorus and the Date of the Embassy to the East of Scipio : Aemilianus, *Classical Philology*, Vol. 54, No. 4. (Oct., 1959), pp. 221-227.

(4) Justin.XXXVIII,8.8.

(5) Justin.XXXVIII,8. 9-11.

حتى أن السكندريين أطلقوا عليه لقب فوسكون Phoscon ويعنى البطين أو أبو كرش. ومع أن طبيعة المهمة التى أُوكلت إلى سكيبيو في مصر لا تزال غير واضحة، إلا أن المؤرخ ديودوروس الصقلى[1] يذكر أن هدفها كان دراسة الأحوال فى مصر، والوقوف على مصادر ثروتها. وقد تابع سكيبيو جولته فركب النيل حتى منف، وشاهد على الطريق الحقول الفسيحة الخصبة، والقرى المتناثرة الآهلة بالسكان، ولا يساورنا الشك فى أنه عاد إلى روما بتقرير واف كان له أثر فى توجيه سياسة السناتو إزاء مصر[2].

وقد انتهت زيارة سكيبيو لمصر على خير وجه حيث إن السناتو الرومانى لم يتخذ أى إجراء ضد الملك؛ لأن روما تتحقق مصالحها فى حالة بقاء مصر ضعيفة، إلى جانب أنها كانت تعتمد على القمح المصرى منذ عهد بطليموس فيلادلفوس، وزاد اعتمادها على القمح المصرى بشكل أكبر مع مرور الأيام. من هنا كانت روما حريصة على استتباب الأمن فى مصر مع وجود ملك ضعيف صديق للرومان يعول الكثير على مساندة ودعم الرومان له، ولعل هذا يفسر عدم اتخاذ السناتو أية إجراءات ضد الملك بعد سفارة سكيبيو.

وتعد زيارة سكيبيو لمصر دليلا على تنامى اهتمام روما بها، بدليل قدوم مسئولين آخرين من روما زيارات فى ظاهرها السياحة ومشاهدة آثار مصر، وباطنها الاطلاع عن قرب على أحوال مصر، ومزيد من الإمعان فى خيراتها تمهيداً لضمها إلى روما.

وفى هذا السياق تأتى زيارة لوكيوس مميوس Lucius Memus عضو السناتو الرومانى الذى لقي فى مصر كل حفاوة واستعداد لتوفير سبل الراحة والأمان له أثناء الزيارة، وهذا ما نتبينه من إحدى الوثائق البردية (.P

---

(1) Diod., XXXIII,28.

(2) عبد اللطيف احمد على (1993)، ص12.

(Tebt.33, 112 B.C) المكتشفة فى تبتونيس (أم البرجات بجنوب الفيوم). ففى هذه الوثيقة يرسل أحد كبار الموظفين بالإسكندرية إلى موظف آخر من مرءوسيه فى الفيوم يأمره بتوفير كافة سبل الراحة والأمان لهذا الضيف الكبير بمناسبة زيارته لإقليم الفيوم في مارس عام 112 ق.م. وهكذا يعكس مضمون البردية حرص الموظفين على إرضاء السناتو الرومانى بشتى السبل[1].

- **التدخل المسلح**

أعطى النزاع بين الأخوين (بطليموس السادس وأخيه بطليموس الثامن) ، ثم تنازل بطليموس أبيون ابن الثامن عن قورينى للرومان الفرصة لهم للتلاعب بملك مصر، وظل ملوك البطالمة ألعوبة في أيدي القادة الرومان لفترة طويلة وكان منهم الملك بطليموس الثانى عشر الملقب بـ((الزمار Aultes)) ، والذى ارتقى العرش عام 80 ق.م ، وتزوج من أخته كليوباترا السادسة، إلا أنه واجهه مشكلة كبيرة تمثلت فى عدم اعتراف الرومان به، بل إنهم لوحوا له بوصية مدسوسة على سلفه الملك بطلميوس الحادي عشر الملقب بالإسكندر الثانى ، وفيها يوصى هذا الملك بمملكته للرومان. وجدير بالذكر أن هذا الملك–الإسكندر الثاني– كان صنيعة القائد الرومانى سلا Sulla، ولم يحكم سوى عدة أيام، وهذه

---

[1] " من هرمياس إلي حورس , تحية , يما يلي صورة من الخطاب المرسل إلي اسكليبياديس , فلتعمل عي إتباع التعليمات الواردة به والسلام . السنة الخامسة , كسانديكوس 17 الموافق أمشير 17 (= 5 مارس 112)."إلى اسكليباديس. لوكيوس مميوس عضو مجلس الشيوخ وهو رجل كبير المقام ويشغل منصبا رفيعا سيقوم برحلة (نيلية) من المدينة (الإسكندرية) إلي إقليم أرسينوي (الفيوم) لمشاهدة مناظره، فلتعمل علي استقباله استقبالا بالغ الفخامة، وأحرص علي إعداد قاعات الضيافة في الأماكن المناسبة والانتهاء من تهيئة أماكن النزول إليها وتقديم الهدايا المذكورة أدناه عند نزوله (من المركب) وتجهيز أثاث قاعة الضيافة والطعام لبيتيسوخوس (اله الفيوم) وللتماسيح وما يلزم للتفرج علي اللابيرنث، وكذلك للأضاحي وحفل القرابين، وبالأجمال ابذل أقصى عنايتك في كل شيء لإرضاء الزائر وأظهر كل اهتمامك."عبد اللطيف على 1993، ص12.

الوصية لم تثبت صحتها بصورة قاطعة، ولا يستبعد أن تكون مُختلقة. ومن تلك اللحظة بدأت متاعب بطليموس الزمار والتى لم تنتهِ إلا بوفاته، وبدلا من أن يواجه الرومان كملك لدولة مستقلة نجده يقضى سنوات حكمه مدافعا عن حقه مريقا ماء وجهه في سبيل الحصول على اعترافهم به، فقد تهالك في ذل وخضوع وضعف شديد على ساسة روما من أجل الحصول على هذا الاعتراف بأي ثمن، فى الوقت الذى لم يبذل فيه أى جهد من أجل نيل رضا محكوميه. والواقع أن كل شئ كان قابلاً للشراء فى روما متى توافر الثمن كما يقول الشاعر جوفينال، وبالفعل وجد الزمار الطريق، فبدد ثروة البلاد من أجل هذا الغرض. هكذا كشفت روما القناع عن نواياها الاستعمارية إذ تتعمد اختلاق مشكلة أو تلمُّس عذرٍ واهٍ للتحكم في ملوك مصر، وفرض مطالبها عليهم، وهذا ما حدث بالضبط مع الزمار.

وقد حصل الزمار على اعتراف رسمى بحقه في تاج مصر ولقب (بصديق وحليف الشعب الروماني) بعد أن دفع لأعضاء الائتلاف الثلاثى (كراسوس وبومبى وقيصر) رشوة ضخمة بلغت حوإلى 6000 تالنت (وهو ما يعادل نصف دخل مصر) ، زيادة على هذا فقد تنازل الزمار عن قبرص- التى كانت فى حوزة مصر منذ عهد بطليموس الأول – لروما، وقد حولتها روما إلى ولاية رومانية فى عام 58 ق.م. وكانت روما قد حاولت جاهدة من قبل ضم الجزيرة إليها، فأوفدت السياسى الرومانى الكبير كاتو الأصغر Cato Minor فى مهمة لإقناع بطليموس أخي الزمار حاكم قبرص بالتنازل عنها لروما، غير أنه كان أبيا ورفض الخضوع والتنازل عن قبرص، لكن أحد نقباء العامة فى روما استصدر قرارا من السناتو الرومانى يقضى بضم الجزيرة إلى الجمهورية الرومانية بحجة أنها تعادى الرومان وتعاون القراصنة، وقد قبل الزمار هذا

القرار[1]، وبالتالى أضاف جزءاً جديداً من مصر لصالح روما بعد أن ضمت قورينى من قبل- بناء على وصية بطليموس أبيون- وبالتالى فقدت مصر كل ممتلكاتها الخارجية. هكذا كان ثمن اعتراف قادة روما بالزمار ملكاً على مصر باهظاً للغاية، ولم يقتصر على المال، بل امتد إلى التنازل عن ممتلكات مصرية لروما[2].

وقد كان وقع قرار ضم قبرص لروما سيئا للغاية على أخى الزمار ملك قبرص الذى انتحر. أما عن وقع القرار على السكندريين؛ فقد ثاروا على بطلميوس الزمار لتفريطه فى قبرص، وتعسفه معهم، وأرغموه على الفرار من المدينة. ويذكر ديو كاسيوس[3] أن السكندريين طلبوا من بطليموس الزمار إما أن يسترد قبرص من الرومان، وإما أن يقطع علاقاته بمثل هؤلاء الأصدقاء، ولما لم يستطع الزمار تهدئة ثائرتهم بسبب افتقاره إلى الجنود المرتزقة، فر هاربا إلى روما حيث اتهم رعاياه بطرده.

وهكذا عاش الزمار طريداً مرتمياً مرة أخرى فى أحضان زعماء الرومان (وبخاصة القائد الروماني بومبي)، مبدداً ثروة بلاده- التى ادخرتها مصر منذ عهد بطليموس الثانى على حد تعبير اثينايوس- عليهم، ومستدينا من مرابيهم, كل ذلك حتى يعيدوه إلى عرشه. وظهرت تبعا لذلك على مسرح السياسة الرومانية (مسألة مصرية) وهى مسألة استغلتها الأحزاب المتطاحنة لتحقيق مآربها، وتدعيم مركز زعمائها، فتبنى كل حزب المسألة من وجهة نظر مصالحه الخاصة دون اعتبار لمصلحة مصر، وكان على رأس كل حزب زعيم له أنصاره ومؤيدوه. ففريق رأى إبقاء الوضع كما هو عليه مع فرض جزية، أما الفريق الأخر فكان يرى ضرورة ضم مصر إلى ممتلكات الجمهورية، وقد كان

---

(1) عبد اللطيف أحمد على (1988)، ص 180.

(2) Dio Cassius XXXVIII,30

(3) Dio Cassius XXXIX,12.

محركهم الوحيد هو الحرص على المصلحة الحزبية، وليس على مصلحة مصر كما نتبين من الخطاب الذى ألقاه شيشرون عن الملـــك الـــسكندرى De rege Alexandrino والمقصود بالطبع هو الزمار.

وقد زار بطليموس الزمار جزيرة رودس قبل ذهابه إلى رومـــا، وفيهـــا التقى كاتو الأصغر الذى قابل الملك مقابلة لا تتفق مع مكانته، وعامله كأنه زائر عادى، والأهم من هذه المقابلة هو ذلك الحوار الذى دار بين الاثنين، ونقله لنـــا بلوتارخ[1]، فقد تحدث كاتو إلى الملك بطليموس الزمار حديثا فى منتهى الصراحة والوضوح حينما نصحه بعدم الذهاب إلى روما؛ لأنه بهذا يستعدى روما علـــى شعبه، وأنه بذلك قد هجر حياة سعيدة ليعرض نفسه للعبودية والمتاعب والرشوة والجشع بين الرومان الأقوياء الذين لا يمكن لمصر أن تشبع نهمهم، وإن تحولت كلها ذهبا، كما أنه نصحه بالعودة ومحاولة الاتفاق مع مواطنيه، وقـــد عـــرض عليه كاتو الذهاب معه إلى الإسكندرية للتوفيق بينه وبين رعيته[2].

لكن كلام كاتو لم يجد أى صدى لدى الزمار الذى لجأ إلى روما ليناشـــد أصدقاءه هناك مساعدته على استرداد عرشه. وقد أكرم بومبى وفادته، وأنزلـــه بأحد قصوره، ولكنه لم يكد يستقر بالعاصمة الرومانية حتى جاءها في أعقابـــه وفد كبير بعث به السكندريون لكى يشكو الملك بطليموس الزمار إلى الـــسناتو، ويناشدوه ألا يعيده إليهم، وكان الزمار حريصا على عدم وصول الوفـــد إلـــى السناتو حتى لا يسمع شكواهم ويدين الزمار، فأوعز إلى بعض الأشقياء بقتـــل أفراد الوفد عند وصولهم[3]، وقد أدى قتل رسل الإسكندرية بروما إلى سلسلة من المحاكمات والفضائح، إلا أن هذه المحاكمات لم تنته بإدانة أحـــد، فقـــد " أُتهـــم كثيرون، لكن أدين قليلون؛ لأن الرشوة كانت فاشية، ولأن الخوف دفع الشركاء

([1]) Plut.Cato Minor,35.
([2]) Bevan(1927), p 353.
([3]) Dio Cassius XXXIX,13-14;Cicero.Pro Caelio,24.

إلى معاونة بعضهم بعضا" حسب تعبير شيشرون فى خطبته الرائعة عن الملك السكندرى.

وقد احتدمت مناقشات السناتو بخصوص أمر إعادة الملك إلى مصر، ولم يبق هناك من حل لمسألة إعادة بطليموس الزمار إلى عرشه سوى اللجوء للقوة، وبذلك انتقلت علاقات روما بمصر إلى طور التدخل المسلح. وبالفعل قام جابينيوس والى سوريا وعميل حكومة" الائتلاف الثلاثى" عام 57 ق.م- وقد كان يضع نصب عينيه المكاسب المادية التى ستعود عليه من هذا الأمر- باقتحام مصر في ربيع 55 ق.م، وتقدم حتى بيلوزيوم فاستسلمت له الحامية اليهودية دون مقاومة، ثم سار إلى الإسكندرية حيث أجلس الزمار على عرشه الذى افتقده عدة سنوات[1]، وكان يقود الفرسان فى جيش جابينوس قائد شاب يدعى ماركوس أنطونيوس Marcus Antonius، وقد نجح هذا الجيش في القضاء على أدعياء العرش، وتثبيت الزمار على العرش عام 55 ق.م، وكان ماركوس أنطونيوس قد رأى أثناء مهمته فى القصر بالإسكندرية كليوباترا كبرى بنات الزمار، وأبدى إعجابه بها،حيث أثارت عواطفه مع أنها لم تكن قد تجاوزت الرابعة عشرة حينذاك، وسرعان ما عاد جابينيوس إلى ولايته في سوريا التى اختل فيها الأمن تاركا وراءه فى مصر حامية من بضع كتائب مؤلفة من جنود رومان وجرمان وغال كى تشد أزر الزمار. وكان من الجائز أن تصبح مصر ولاية رومانية منذ هذا التاريخ لولا الحرب الأهلية التى نشبت بين زعماء روما وأرجأت ذلك إلى حين.

ولم يكتف الزمار بهذا الهوان، وبتبديد ميزانية مصر فى الرشاوى التى دفعها من أجل العودة ، والاعتراف به ملكا شرعيا على مصر من قبل الرومان،

---

(1) Cicero, Pro Rabirus , 8; Bevan(1927), pp 356-357.
وعن الموقف داخل روما والانقسام من أجل عودة الملك انظر: إبراهيم نصحى(1984)، جـ1، ص ص 281 - 288.

بل إنه تمادى إلى أبعد من ذلك حيث قام باقتراض مبالغ ضخمة أيضا أثناء وجوده فى روما(58–55 ق.م) من شخص يسمى رابيروس Rabirus، فلما عاد وأراد أن يسدد ديونه لم يستطع بسبب إفلاس الدولة، فعين هذا المرابى وزيراً للمالية(؟؟؟) ليفعل بمالية مصر ما يتراءى له[1]. فثار الشعب على هذا الوضع، وكاد رابيروس أن يقتل لولا مساعدة الزمار له على الهرب، وما لبث الزمار أن مات عام 51 ق.م تاركا وصية باشتراك ابنته الكبرى كليوباترا مع أخيها فى الحكم.

- **كليوباترا السابعة**

ولم تلبث مصر أن تعرضت مرة أخرى للتدخل المسلح من جانب الرومان بعد وفاة بطليموس الزمار عام 51 ق.م، وقد كان حال مصر وقتئذ فى منتهى الضعف بعد أن فقدت كل ممتلكاتها الخارجية لصالح روما، ولا يستقر لها ملك بدون اعتراف روما به، إلى جانب وجود جيش رومانى بالإسكندرية كان قد تركه جابينوس لحماية الملك بطليموس الزمار. فى هذه الظروف برزت كليوباترا السابعة –أشهر ملكات مصر البطلمية– وقد كانت كبرى بنات بطليموس الزمار، والذى كان قد أوصى بعرشه لها ولأخيها بطليموس، وكانت كليوباترا تبلغ من العمر 18 عاما، أما أخيها بطليموس (الثالث عشر) الذى كان عمره 12 عاما، أى أنه كان أصغر من أخته، وأرسل الزمار إلى روما صورة من وصيته ناشد فيها الشعب الرومانى مراعاة تنفيذها وحماية ابنيه.

وكان القصر الملكى بالإسكندرية به عدد من الأوصياء الذين أحاطوا بالملك بطليموس الثالث عشر، والذى كان بدوره أداة طيعة فى أيديهم. وقد خيبت كليوباترا ظن هؤلاء؛ لأنها لم تعد بمرور الزمن أداة طيعة بين أيديهم

---

(1) Cicero, Pro Rabirus,10.

كأخيها، إذ اكتسبت نضجا وخبرة كبيرة خلال ثلاث سنوات، إضافة إلى ذكائها الفذ وشخصيتها الطموحه، من هنا أخذت زمام المبادرة، وقررت أن تكون القابض والمتصرف الأول فى أمور القصر، وفى حكم مصر على حد سواء. ولاشك فى أن هذا قد جرها إلى الصدام مع رجال القصر وحاشيته لأن مصالحهم فى السيطرة والاستحواذ على كل الأمور دون كليوباترا وأخيها، لذا وقع الصدام بين الطرفين، فاتهموها بالرغبة فى الانفراد بالحكم دون أخيها، ونجحوا فى إثارة السكندريين عليها، وإرغامها على الفرار إلى الحدود الشرقية حيث استطاعت أن تجمع جيشا من الأعراب رابط علي مقربة من بيلوزيوم، واستعدت للزحف على الإسكندرية من أجل استعادة حقها فى العرش، كما أعد أخوها جيشا رابط فى بلوزيوم لمواجهتها وسد طريق عودتها.

وجدير بالذكر أنه بموت الزمار وإقامة الرومان أوصياء على تنفيذ وصيته، ورعاية أبنائه غدت مصر من الناحية الواقعية جزءاً من العالم الرومانى، ولابد أن تتأثر بما يحدث فيه، وكان الصراع حينذاك على أشده بين اثنين من أعظم قادة التاريخ وهما بومبى الذى انضوى الحزب الأرستقراطى تحت لوائه، ويوليوس قيصر زعيم الحزب الديمقراطى، وقد كان مصير العالم الرومانى كله معلقا على نتيجة الحرب الأهلية التى ذارت رحاها بين هذين القائدين الكبيرين. وفى 7 يناير من عام 49 ق.م أصدر السناتو قراره الأخير[1]، وفيه كلف القنصلين وبومبى بحماية الدولة، واتخاذ التدابير الكفيلة بذلك، وأعلن قيصر عدوا للشعب، وكان هذا بمثابة إعلان عن استئناف الحرب الأهلية من جديد، لكن هذه المرة بين بومبى وقيصر. هذه هى الصورة العامة للصراع بين بومبى وقيصر، والذى اتسم بالتعقيد والغموض في المقاصد والأغراض

([1]) قرار السناتو الأخير Senatus Consultum Ultimum كان بمثابة إعلان الأحكام العرفية فى حالة الطوارئ، و تخويل القائد الذى يختاره السناتو مسئولية وسلطة اتخاذ التدابير اللازمة الكفيلة بالحفاظ على سلامة الدولة. عبد اللطيف أحمد على(1988)؛ ص 162.

القائدين الكبيرين. وفى ٧ يناير من عام ٤٩ ق.م أصدر السناتو قراره الأخير[1]، وفيه كلف القنصلين وبومبى بحماية الدولة، واتخاذ التدابير الكفيلة بذلك، وأعلن قيصر عدوا للشعب، وكان هذا بمثابة إعلان عن استئناف الحرب الأهلية من جديد، لكن هذه المرة بين بومبى وقيصر. هذه هى الصورة العامة للصراع بين بومبى وقيصر، والذى اتسم بالتعقيد والغموض في المقاصد والأغراض والنتائج. وقد أظهر بومبى تأييدا لنظام الحكم السناتورى، وكان رجاله يتوسمون فيه أنه أقل خطورة من قيصر، ورغبوا فى أن يكون أكثر اعتدالا لو كتب له النصر. أما قيصر فقد أوتى من المقدرة على التنظيم ما يفوق ما لدى بومبى، وكان عبقريا فى الحرب، ويتمتع بنفوذ شخصي ومحبة لدى جنوده، وهذه كانت عوامل نصره على بومبى.

وقد تمخض هذا الصراع المحموم عن هزيمة بومبي في معركة فرسالوس (Pharsalus) في بلاد اليونان عام ٤٨ ق.م، ولم يلبث أن فر بعدها إلى مصر حيث كان يأمل فى أن يجد ملاذا وعونا في ساعة الشدة لدى أبناء بطليموس الزمار الملك الراحل الذي كانت تربطه به صلات ودية، ولابد أن ابنى الزمار كان يعلمان جيدا فضل بومبى على أبيهما حين أوعز إلى جابينوس بمساعدته على استرداد عرشه، إلى جانب أن الجيش الذى تركه جابينوس فى الإسكندرية لحماية الزمار كان عدد كبير منه قد خدم تحت إمرة بومبى، وبالتالى سيكونون عونا له خلال إقامته بالإسكندرية، ونتيجة لهذين العاملين اعتقد بومبى أن مصر هى الملاذ الآمن له خلال هذا الظرف العصيب الذى يمر به بعد هزيمته من قيصر فى فرسالوس، وتتبع غريمه له[2].

---

(1) قرار السناتو الأخير Senatus Consultum Ultimum كان بمثابة إعلان الأحكام العرفية فى حالة الطوارئ، و تخويل القائد الذى يختاره السناتو مسئولية وسلطة اتخاذ التدابير اللازمة الكفيلة بالحفاظ على سلامة الدولة. عبد اللطيف أحمد على(١٩٨٨)؛ ص ١٦٢.

(2) عن تفاصيل الصراع بين قيصر وبومبى؛ راجع:عبد اللطيف أحمد على(١٩٨٨)؛ ص ٢٢٤ ومابعدها.

شديدا[1].

لم يرحل قيصر كما كان متوقعاً، بل نزل بالإسكندرية في أكتوبر من عام 48 ق.م ، وكانت المدينة خالية من الملك والملكة، ولاشك فى أنه كان على علم بالخلاف بينهما. وقد سار قيصر فى شوارع الإسكندرية تتقدمه شارات سلطته القنصلية Fasces، وقد أثار هذا المشهد حفيظة السكندريين؛ لأن هذا المشهد غير المألوف يعتبر انتقاصا من السلطة الملكية وإهانة لها فى آن واحد. وقد دعا قيصر بوصفه ديكتاتورا متمتعا بكامل السلطة، وممثلا للشعب الرومانى الأخوين إلى تسريح قواتهما وقبول التحكيم. وبالفعل حضر بطليموس الثالث عشر إلى المدينة لكنه ترك قواته متأهبة من أجل منع قدوم كليوباترا، أما كليوباترا فقد دخلت المدينة ومثلت بين يدى قيصر. لكن بطريقة فى منتهى الغرابة كان لها تأثيرها البالغ على هذا العاهل الرومانى الكبير؛ لقد دخلت كليوباترا المدينة فى قارب عن طريق البحر يحملها رجل وهى ملفوفة فى سجادة، ثم ذهب إلى قيصر وبسط أمامه السجادة، فخرجت منها كليوباترا، وقد بهرت قيصر بجمالها وجاذبيتها. هكذا تسللت كليوباترا إلى القصر خفية، والتقت بقيصر لأول مرة، وأثارت عطفه عليها، وفتنته بجمالها ولباقتها[2].

وقد كان شعور الغضب والعداء يتصاعد فى المدينة ضد قيصر بسبب موقفه السابق الداعى إلى ضم مصر، وحصوله على مبلغ ضخم مقابل الاعتراف ببطليموس الزمار ملكا شرعيا على مصر، وعندما دعا الملك والملكة للحكم بينهما باسم الشعب الرومانى لحل النزاع القائم بينهما، كان السكندريون وأعوان الملك يتشككون فى نواياه، وفى انحيازه لكليوباترا ضد أخيها، وكان الدافع إلى هذا الشك هو الموقف الذى جمع بين قيصر وكليوباترا لأول مرة، فقد

---

(1) Livy, Periochae, CXII..
(2) Caesar, Bell. Civ.,III,106; Dio Cassius XLII,34 Bevan(1927),p 364 ff

كانت في ربيعها الواحد والعشرين فى قمة الجمال واللباقة، ونجحت فـــى فتنـــة العاهل الرومانى الكبير ذى الخمسين عاما، وسلبت لبه لدرجة أنه لم يعـــد فـــى وسعه أن يعدل بينها وبين أخيها، وكاد بطليموس أن يغادر القصر بعد أن أثاره انحياز قيصر إلى جانب أخته، فأعاده بعض الجنود الرومـــان، وكـــان لهيـــاج بطليموس داخل القصر أثره فى الخارج حين احتشد السكندريون خارج القصر، وحاولوا اختراقه، غير أن قيصر نجح فى تهدئة ثائرتهم.

وخلال الاجتماع بين كليوباترا وأخيها بحضور قيصر، قضى قيصر بين الأخوين بتنفيذ وصية أبيهما بطليموس الزمار الداعية إلى زواج كليوباترا مـــن أخيها، واعتلائهما العرش معا، ولم يكن فى هذا مخالفة لتقاليد الأسرة البطلمية، إضافة إلى هذا فقد وعد قيصر بإهداء قبرص إلى أختهما أرســـينوى الـــصغرى وأخيهما بطليموس الصغير، و بذلك اعتلى الأخوان كليوباترا وبطليموس الثالث عشر عرش مصر، وهدأت الأمور نسبيا، وأقيم احتفال بالإســـكندرية ابتهاجـــا بالصلح[1]، غير أن أوصياء الملك –وخصوصا بوثينـــوس –أدركـــوا صـــعوبة السيطرة على الأمور، وحتى القبض على السلطة بسبب كليوباترا التى نجحـــت فى توجيه مشاعر قيصر نحوها بدرجة كبيرة، لذلك استغلوا الموقف، وأشـــعلوا الحرب ضد الدخيل الأجنبى (قيصر) مستغلين ضعف مركزه فى مصر، وقلة ما معه من الجنود، وقد سجل قيصر أو أحد ضباطه تفاصيل هذه الحرب فى كتابه الذى يحمل اسم (حرب الإسكندرية)، والتى أرهقته بدرجة كبيرة.

وقد بدأت الحرب عندما اتصل كبير أوصياء الملك سراً بالجيش البطلمى، ودعاه للزحف على الإسكندرية، وتحرج مركز قيصر لضآلة قواته، فقـــرر أن يتخذ موقف الدفاع فى الحى المجاور للميناء الكبير(الشرقى) انتظارا للإمدادات، ثم أرسل رسولين إلى أخيللاس قائد الجيش البطلمى المهاجم، فقـــبض عليهمـــا،

([1])Dio Cassius XLII,34-35; Bevan(1927), p 365.

وقتل أحدهما، وجرح الآخر. وقد دارت أحداث تلك الحرب المعقدة فى شوارع المدينة ومينائها، وقد أبلى فيها السكندريون بلاءً حسنا في البر والبحر، وتعرضت فيها حياة قيصر للخطر فى أكثر من مناسبة، ومن هذه المواقف التى كاد قيصر أن يفقد فيها حياته حين حاول السيطرة على الجسر الواصل بين جزيرة فاروس والمدينة، غير أنه فشل، وفقد حوالى أربعمائة من جنوده، وكاد يفقد حياته لولا أنه ألقى بنفسه فى المياه، وسبح إلى سفينته، وقد أضرم الجيش النيران فى عدد من سفن قيصر الراسية فى الميناء إمعانا فى محاصرته، وقطع أية وسيلة اتصال بينه وبين جيشه فى سوريا، وامتدت النيران إلى الأرصفة وبعض الموانئ المجاورة للميناء، ومن هذه المبانى مبنى المكتبة إذ التهمت النيران عدداً كبيراً من الكتب، وبالطبع احترق بعض سفن قيصر الراسية في الميناء.

وقد كان قيصر حريصا على السيطرة على منطقة القصر الملكي والميناء حتى يتمكن من الاتصال بقواته خارج مصر على الرغم من أنه كان معزولاً بفعل العواصف فى مثل هذا الفصل من السنة؛ فهو لا يستطيع أن يتلقى إمدادات من وراء البحر[1]. وعلى الرغم من هذا الحصار فقد وصلت إلى قيصر قوات من جيوشه عن طريق سوريا، وحاصرت الإسكندرية، وتمكن بفضلها من هزيمة جيش الملك البطلمى الصغير، واستولى على الإسكندرية. وأثناء الحرب كان قيصر قد أبقى على الملكين بالقصر الملكى، إلا أن الملك الصغير عقب هزيمة جيشه من قيصر فر ولحق بجيشه، وأثناء عبوره النيل مات غريقا فى يناير عام 47 ق.م. ونتيجة لوفاة بطليموس الثالث عشر أصبح العرش شاغرا، فحسم قيصر المشكلة بأن أقام كليوباترا ملكة بالاشتراك مع أصغر أخويها الذى حمل اسم بطليموس الرابع عشر. وبخصوص أرسينوي أختهما العنيدة، فقد

([1]) Caesar; Bell, Alex.3.

أرسلت إلى روما حيث زج بها في السجن عقابا لها على مقاومة الرومان[1]. وقد قضى قيصر الشتاء فى نزهة نيلية مع كليوباترا، ثم غادر مصر في يونيو من عام 47 ق.م تاركا بها بعض الفرق الرومانية لدعم سلطة كليوباترا.

وفى 23 يونيو من نفس العام وضعت كليوباترا طفلها من قيصر، وأسمته قيصر كذلك، ولكن السكندريين أسموه قيصرون (وهو تصغير قيصر) على سبيل السخرية[2]. وفى أواخر عام 46 ق.م لحقت كليوباترا بقيصر فى روما، وقد أكرم قيصر وفادتها، إذ أقامت فى أحد قصوره علي ضفاف نهر التيبر، بل أقام لها تمثالا من الذهب فى معبده الجديد للإلهة فينوس، وهناك احتفظت كليوباترا بمظاهر الملك مما أثار امتعاض الرومان[3] ، وزاد من شعورهم بالخوف من نية قيصر- غير المعلنة- فى تحويل الجمهورية إلى ملكية،. ونظروا إليها على أنها ليست أكثر من خليلة أو عشيقة لقيصر؛ لأن زوجته الشرعية كانت لا تزال على قيد الحياة، وذلك على الرغم من اعتراف قيصر بابنه منها[4].

وقد اتخذ شيشرون منها موقفا معاديا، وقال صراحة في إحدى رسائله إلى صديقه الحميم اتيكوس (إننى أكره الملكة Reginam odi) ، مع أنها وعدته ببعض الكتب اللغوية بعد عودتها إلى الإسكندرية[5].

---

(1) أرسلت أرسينوى إلى روما، وسيقت فى مهرجان نصر قيصر على الأفارقة، وعلى الغال الذى أقامه فى 46 ق.م، ويقول ديو كاسيوس إن منظرها وهى مقتاده فى موكب النصر كان مبهجا للمشاهدين. نصحى (1984)، جـ1 ص 312،. Dio Cassius,XLIII,19,2-4.

(2)Dio Cassius XLVII,31.5.

(3) يقول شيشرون إن صلف الملكة الذى ظهر من خلال احتفاظها بمظاهر الأبهه أثناء اقامتها فى هذا القصر كان يثير شعورا عميقا بالألم لديه هو شخصيا.

Cicero, ad Atticum,XV,15.2.

(4) عبد اللطيف احمد على (1993)، ص 19.

(5) Cicero,ad Atticum,XV,15.2.

ولما كان سلوك قيصر يوحى حينئذ بأنه يعمل على قلـب نظـام الحكـم الجمهورى، وراجت الإشاعات بأنه يخطط من أجل تحويل الجمهورية الرومانية إلى مملكة على غرار الممالك الشرقية، يكون هو ملكها، وكليوبـاترا ملكتهـا، وأخذت كليوباترا تعقد على المستقبل أكبر الآمال، فتصورت نفسها ملكة تتربـع إلى جانبه لا على عرش مصر وحدها، بل على عرش العالم الرومـاني كلـه، ولمس الرومان فيها هذا الطموح، فعز عليهم أن يصبحوا رعايا(ملكة مـصرية) كانوا ينظرون إليها شذراً، فكرهوها أشد الكراهية[1].

وأخيرا نجحت المؤامرة التي دبرها أنصار الحزب الأرستقراطى الجمهورى، واغتيل الدكتاتور يوليوس قيصر فى 15 مارس عام 44 ق.م لحظة دخوله مجلس الشيوخ الرومانى[2]، ونتيجة لهذا لم تعد روما مقرا آمنا للملكة المصرية، فاستيقظت من حلمها العذب على الحقيقة المرة فوجدت نفسها بغير نصير، وتحرج مركزها فهربت خفية إلى الإسكندرية لتقنع بمملكتها الصغيرة على ضفاف النيل،.وكتب شيشرون إلى صديقه اتيكوس معبرا له عن ابتهاجه وسروره بفرار الملكة، وكان قد أعلن فى مناسبة سابقة كرهه لها، والآن يعلن أن هروبها لا يزعجه، وهو تعبير عن ابتهاجه بمغادرتها روما مذعورة بعد أن افتقدت الأمان باغتيال قيصر[3].

- **<u>كليوباترا وأنطونيوس</u>**

فجر اغتيال يوليوس الحرب الأهلية فى روما من جديد، وكانت الحـرب فى هذه المرة عبارة عن صراع هائل بين طرفين، وهذا الصراع كان متشابكا بمعنى أن أنصار الحزب الواحد بعد انتصارهم اشتبكوا مع بعضهم، ولم ينقـشع

---

(1) إبراهيم نصحى (1984) جـ1، ص321 وما بعدها.

(2) Seutonius; Divus Iulius, 81-82.
(3) Cicero,ad Atticum,XIV,8.17.

غبار هذا الصراع إلا بعد أن أنهى على الجمهورية، وبزغ إلى الوجـود نظـام حكم جديد يعتمد على شـخص الإمبراطـور عـرف باسـم نظـام المـواطن الأول(Pnriceps) ، وأرسى أوكتافيوس(أوغسطس) دعائم هذا النظام بعـد أن قضى على كل خصومه، وأنهى الحرب الأهلية التى غرقت.فيها روما لمدة مائة عام. فعقب اغتيال قيصر اندلع الصراع بين أنصاره وبين خصومه، وبعبـارة أخرى بين أعضاء الحكومة الثلاثية (الثانية) التي تألفت في نوفمبر عـام 43 ق.م من أوكتافيوس بن يوليوس قيصر بالتبنى, وماركوس أنطونيـوس رئـيس فرسانه، ولبيدوس من ناحية، وبين ماركوس بروتوس، وجـايوس كاسـيوس، وجايوس تريبونيوس، ودكيموس بروتوس.... وغيرهم مـن أقطـاب الحـزب الأرستقراطي من ناحية أخرى. ومن مصر أخذت كليوباترا تراقـب الـصراع الهائل، ولم تشارك فيه كما كان متوقعا، بل إنها آثرت أن تقف موقـف الحيـاد حتى تتيقن من نتيجتـه[1]. وقـد تمخـض الـصراع عـن انتـصار أنـصار قيصر(أوكتافيوس وماركوس أنطونيوس ولبيدوس) فى معركة فيليبى عـام 42 ق.م[2].

وقد آلت مسألة تنظيم شئون الولايات الرومانية الشرقية إلى ماركوس أنطونيوس، ومن هنا أخذت كليوباترا تقوى علاقتها به. وعندما استدعاها من مدينة طرسوس لكى يحاسبها على موقفها السلبي، وعدم معاونتها لأنصار قيصر، لبت كليوباترا الدعوة في موكب بحرى فاخر، ومثلت بين يديه فى طرسوس خلال صيف عام 41 ق.م، ونجحت فى تبرير موقفها بلباقتها المعهودة، وكان أنطونيوس فى نفس الوقت لديه استعداد لتصديقها حتى أنه استجاب لها وأعدم أختها أرسينوى التى كانت لاجئة فى معبد إفيسوس بعد أن

(1) Appian Bell Civil IV,61-62.
(2) Appian Bell Civil IV,87-88.

سيقت فى موكب نصر قيصر فى روما عام 46 ق.م، وكان أنطونيوس قد اعترف بحق هذا المعبد فى حماية اللاجئين[1]، غير أنه ضعف ولم يستطع أن يقاوم أو يرفض أى مطلب لكليوباترا التى كانت قد أثارت عواطفه مع أنها لم تكن قد تجاوزت بعد الرابعة عشرة خلال أول لقاء جمعهما عندما التقاها فى القصر الملكى بالإسكندرية خلال حملة جابينوس لإعادة والدها إلى العرش عام 55 ق.م، ومن هذه اللحظة كانت كليوباترا تعيش فى خيال أنطونيوس[2].

وعندما التقى بها هذه المرة فى طرسوس، وكانت تتمتع بأنوثة طاغية استطاعت، أن تجعله أداة طيعة فى يديها، وتغريه على المجئ فى أعقابها إلى مصر حيث أمضى معها عامى40/41 ق.م. وقد استغرقت علاقة أو قصة غرام كليوباترا وماركوس أنطونيوس اثنتي عشرة سنة من 42 إلى30 ق.م، ونالت حظًا وافرًا من الشهرة. وقد كان لهذه العلاقة أبلغ الأثر فى تشويه سمعته بين مواطنيه الرومان بعد أن استغلها أوكتافيوس –الذى سيطر على القسم الغربى من الولايات الرومانية– للمزيد من الدعاية المضادة ضده، وتأليب الرأى العام عليه[3]. عندئذ اغتنمت كليوباترا الفرصة ودفعت أنطونيوس إلى تحدى أوكتافيوس ومنازعته السلطة، ولتأكيد صدق موقفها هذا عرضت على أنطونيوس مساعدتها، ووضعت تحت تصرفه جميع موارد مملكتها، وكان دافعها إلى ذلك هو تحقيق حلمها القديم الذى رأت أنه من الممكن أن يتحول إلى حقيقة على يد أنطونيوس، وكان هذا الحلم قد تبدد من قبل بمصرع يوليوس قيصر، لكنه من الممكن أن يتحقق على يد أنطونيوس هذه المرة، وتسيطر كليوباترا على العالم الرومانى، وتتحكم فى روما نفسها والتى أذلت أسرتها منذ عهد بعيد.

([1]) Dio Cassius XLVIII,24;
([2]) Appian Bell Civil,V.8.

([3]) حسين الشيخ(2000) ، ص 40.

وقد قدم أنطونيوس لكليوباترا منطقة خالكيس(في شمال ولاية سوريا)، وعندما عاد من حملته على أرمينيا منتصرا فى عام 34 ق.م شجعته على الاحتفال بانتصاره فى الإسكندرية خلافا للعرف الرومانى الذى كان يقضى بإقامة موكب انتصار القواد في روما[1]، وكانت الرسالة التى قصدتها كليوباترا من هذا الأمر واضحة لكل الرومان؛ فكأنها أرادت أن تقول: إن الإسكندرية ستحل محل روما بعد انفرادها بالسلطة. على أية حال فمن الصعوبة بمكان التيقن من أن أنطونيوس فعل ذلك استجابة لرغبتها، أو أنه تعمد ذلك ليكيد خصمه، وقد حملته على أن يهبها هى وابنها قيصرون وأبناءها منه بعض الولايات الرومانية والممالك المتاخمة فيما عرف باسم الهبات السكندرية، وُوزعت الولايات فى مهرجان ضخم أقامه أنطونيوس فى الإسكندرية على كليوباترا وأبناءها من أنطونيوس وقيصرون بن يوليوس قيصر من كليوباترا[2]. كما أن أنطونيوس- بإيعاز من كليوباترا- اتخذ عددا من الخطوات الأخرى التى ساهمت فى تأجيج الصراع، واتساع شقة الخلاف بينه وبين أوكتافيوس[3].

وقد كان وجود أنطونيوس فى الشرق بعيدا عن روما نقطة ضعف فى موقفه في حربه الدعائية ضد أوكتافيوس، وعلى النقيض كان وجود أوكتافيوس فى روما مركز قوة لتدعيم موقفه مما يعنى بداهة إضعاف مركز أنطونيوس. وهكذا أصبح من اليسير علي أوكتافيوس أن يستغل الأخطاء التى ارتكبها أنطونيوس للدعاية ضده والتشهير به، وتأليب الرأى العام عليه. وعندئذ نشر بعض أجزاء من وصية قيل إن أنطونيوس قد أودعها في معبد الربة فستا، وهي أجزاء من شأنها إثارة الرأي العام عليه وعلى كليوباترا، وعندما تأكد من أن شعور العداء نحو الملكة المصرية بلغ ذروته أوعز إلى أعضاء السناتو

(1) Dio Cassius XLIX,40.
(2) Dio Cassius XLIX,41.
(3) عبد اللطيف احمد على (1993)، ص ص 21-22 وما بعدها؛ نصحى (1984)، جـ1 ،ص ص349-351.

المتخلفين في روما، وسكان البلاد الإيطالية والولايات الغربية أن يقسموا له يمين الولاء (Coniuratio)، وكان هذا القسم بمثابة السند الرئيسي لسلطته فى السنوات التالية لأن أوكتافيوس لم يعد يعتبر نفسه عضوا في الحكومة الثلاثية التى فقدت مقومات وجودها، وعلى ذلك استصدر قرارا بإلغاء سلطة أنطونيوس العليا وإبطال انتخابه قنصلا لعام 31 ق.م.

وعندما أراد أوكتافيوس الحرب على أنطونيوس ألبس هذه الحرب ثوبا قوميا، فأعلن الحرب على كليوباترا الملكة الشرقية عدوة الشعب الرومانى والتى تمثل الخطر الأجنبى الوافد من الشرق على روما. لقد كان هذا الإجراء الأخير دليلاً على الذكاء السياسى الذى تمتع به أوكتافيوس إذ كان يدرك أن أنطونيوس كان لا يزال يحظى بتأييد بعض أعضاء السناتو وفئة لايستهان بها من الشعب الرومانى، لذا فإعلان الحرب عليه مباشرة قد لا يحظى بكل التأييد، لكنه أعلنها على حليفته كليوباترا، وبالتالى عليه هو أيضاً ولكن بشكل ضمنى[1].

ولم تشأ كليوباترا أن تدع أنطونيوس يخوض المعركة الأخيرة وحده فرافقته إلى الميدان بوصفها شريكة في المغامرة، وإذا كان هو الذى أخذ على عاتقه إدارة الحرب وقيادتها، فإنها أمدته بالمال والمئونة اللازمين للحرب، وكانت نتيجة الحرب تعنيها بقدر ما كانت تعنيه. وقد كانت مرافقتها له فى ميدان المعركة عاملا سلبيا للغاية بالنسبة لأنطونيوس؛ لأن فريقاً من ضباط أنطونيوس ممن سبقت لهم الخدمة تحت لواء قيصر رأوا فى وجود الملكة بساحة القتال إضعافا لمركزه فى نظر الشعب الروماني، وإيحاءً للجنود بأنهم يقاتلون من أجلها لا من أجل الزعيم الرومانى، ولذلك نصحوا بإعادتها إلى مصر، ولما سمعت الملكة بذلك استشاطت غضبا، وأصرت علي البقاء، وأثار عنادها بعض

([1]) حسين الشيخ(2000)، ص 42.

أنصار أنطونيوس البارزين فانفضوا من حوله لاجئين إلى معسكر خصمه. كما كان من بين العوامل التى أضعفت مركز أنطونيوس وكليوباترا هو سوء اختيار مكان المعركة، وسوء تركيز وتوزيع الجنود بحيث تم تركيز القـوات البحريـة والبرية فى خليج وشبه جزيرة أكتيوم عند المدخل الضيق لخليج أمبراكيا، أمـا بقية القوات فوزعت على خط طويل مكشوف من ناحية إيطاليا، كما أنه كان من السهل اختراقه. ولعل كليوباترا كان لها يد في هذا الاختيار لـسهولة الاتـصال بمصر، والاحتفاظ بخط الرجعة في حالة الهزيمة[1].

وقد التقى الجيشان عند أكتيوم فى سبتمبر عام 31 ق.م، ونجـح جـيش أوكتافيوس فى إنزال الهزيمة بجيش أنطونيـوس وكليوبـاترا بفـضل تفـوق أوكتافيوس وقواده، ونجاحهم فى تطويق جيش وأسطول أنطونيوس ومحاصرته، وبالتالى إعاقة وصول الإمدادات إليه من البر، وقطـع اتـصاله بـداخل بـلاد اليونان، وقد أدى هذا أيضا إلى أن جنود أنطونيوس بدأوا يعانون من قلة المئونة وتفشي الأمراض، واستفحلت حركة التمرد بينهم. وقد اخترقت كليوباترا بسفنها خط الحصار عائدة إلى الإسكندرية، ولم يلبث أن لحق بها أنطونيوس بعـد أن تحطم معظم سفنه أو وقع فى يد العدو مثلما استسلمت قواته البرية.

أما أوكتافيوس فنزل بسوريا حيث شرع في أوائل صيف عـام 30 ق.م يعد العدة للزحف على مصر، وفي تلك الأثناء تبادل مع كـل مـن كليوبـاترا وأنطونيوس الرسائل عن طريق السفراء، لكن الطرفين لم يـصلا إلـى نقطـة اتفاق، وبالتالى أصبح موقف أنطونيوس وكليوباترا حرجا للغاية، وزاد الموقف سوءا أن كورنيليوس جاللوس،أحد قواد أوكتافيوس، استمال إلى جانبـه فـرق أنطونيـوس المرابطـة فـي قـورينى، واسـتولى علـى برايتوريـوم

---

(1) Dio Cassius,L,3-4; عبد اللطيف احمد على (1993)، ص ص25-26.

Paraetoniun(مرسى مطروح الحالية)[1]، واقتحم أوكتافيوس الحدود الشرقية واستولى على بيلوزيوم، ثم تابع سيره إلى الإسكندرية، وخرج أنطونيوس لملاقاته، إلا أنه تمكن من إنزال الهزيمة بفرسانه،كما استسلمت سفنه الراسية في الميناء، ولم تلبث فصائل فرسانه أن حذت حذو وحدات أسطوله، واندحرت كتائب مشاته عند ضاحية المدينة (الرمل) التي أطلق عليها أوكتافيوس اسم نيقوبوليس Nicopolis (مدينة النصر) تخليدا لانتصاره، واستبد اليأس بأنطونيوس فانتحر (أول أغسطس عام 30 ق.م)، وحاولت كليوباترا أن تضمن العرش لأحد أبنائها، ولكن أوكتافيوس الظافر أصم أذنيه عن رجائها، ولم يشأ أن يتحمل وزر مقتلها، فأوعز إليها بأنه قد يسوقها – مثلما ساق قيصر أختها أرسينوى – في موكب نصره بعد عودته إلي روما[2].

من هنا أدركت كليوباترا أن أمامها خيارين أحلاهما مر؛ فإما أن تموت ، وإما أن تساق مجتازة شوارع روما في موكب النصر، فاختارت أن تأخذ نهايتها بيدها لا أن تساق في موكب نصر أوكتافيوس، وكم كانت ذكية فطنة في هذا الاختيار، فقد سبق لها الذهاب إلى روما وهي ملكة متوجة، وحلت ضيفة على قيصر في قصره على التيبر، أما الآن فستعود مساقة مهزومة في موكب نصر، وهذا لا يليق بأميرة يجرى في عروقها دم ملكي على مدى أجيال طوال، كما أنها كانت أكثر ذكاءً في اختيار طريقة الموت عن طريق لدغة الحية.

إن اختيار كيلوباترا للحية التي كان عليها أن تخلصها من مصير الأسر المحتوم جدير بالاعتبار، فقد كانت أفعى من الأفاعي المصرية، وهي الحية المقدسة في مصر السفلى، وبوصفها فرعوناً وسيدة القطرين لبست كيلوباترة التاج المزدوج تاج العقاب رمز مصر العليا، وتاج الحية رمز مصر السفلي ،

([1]) Dio Cassius,LI, 9.
([2]) Dio Cassius XLIII,19; 28عبد اللطيف احمد على (1993)، ص

والحية هى كاهنة إله الشمس وليس فى لدغتها الخلود فحسب، بل الإلوهية كذلك. لقد اختارت كيلوباترا الطريق السوي المؤدي إلى الموت ولحقت بحضرة الآلهة[1].

وهكذا لقيت كليوباترا حتفها فى (10 أغسطس عام 30 ق.م) ، ولم تكن في حقيقة الأمر مصرية الدم غير أنها كانت أكثر أفراد حاشيتها تشبعا بالروح المصرية، إذ كانت الوحيدة من بينهم التي تعلمت اللغة المصرية، وكان يروق لها أن تنسب نفسها إلى رع، وتظهر في زى إيزيس، ولعلها كانت أقرب البطالمة إلى قلوب رعاياها[2].

إن القالب النمطي الذى وضعها فيه كتاب وأدباء الرومان، والذى نقله آخرون مثل شكسبير أو برنارد شو وهو صورة العاهرة الداعرة أو اللعوب فيه ظلم كبير وتجنٍّ بين، وإذا وافقناهم فإننا لا نكون قد ظلمناها وأسأنا إليها إساءة بالغة فحسب، بل إننا نكون متجنين على الحقائق التاريخية، ونكون قد نظرنا إليها بمنظار فيه انحراف خطير عن جادة الصواب. ومما لا شك فيه أن الصورة غير الصحيحة والسمعة السيئة التى اكتسبتها كانت بتأثير ذلك المنظر المشوه المستمد من الدعاية الرومانية الرسمية. ومهما كانت معايبها ونقائصها الخلقية فإنها كانت امرأة أوتيت ذكاءً فذاً، وأثبتت أنها خصم لروما له قيمة، وفى هذا السياق ليس هناك أبلغ من تعليق مؤرخ العصر الهللينستى الأول تارن Tarn حين قال (حدث أن روما التى لم يسبق لها أن اهتزت أو أدركها الفزع من أية أمة أو شعب استولى عليها الخوف فى تاريخها من شخصين اثنين أحدهما هانيبال والآخر كان امرأة). لكن الحق أنها كانت أعظم خلفاء الإسكندر الأكبر– كما صورها خير الثقاة من الأحياء– وهذه المنزلة العظيمة التى بلغتها

([1]) Florus II,21,11,10-11.

([2]) عبد اللطيف احمد على (1993)، ص ص 28-29..

هذه الملكة لم تأت من فراغ، بل هناك ما يبررها. لقد كان شغلها الشاغل هو المحافظة على استقلال مصر، وتوسيع رقعتها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، ثم ضمان عرش البلاد لأبنائها، وقد استخدمت هيام أنطونيو وافتتانه بها لتحقيق هذه الغاية.

وإذا كانت صورتها قاتمة داعرة لعوباً فى نظر الرومان، فقد كانت على النقيض فى نظر الشرقيين الذين رأوا فيها رمزاً لروح المقاومة ضد روما، وضمان الخلاص من نيرها. لقد تحمل الشرق تبعات الحرب الأهلية التى دارت رحاها -إلى حد كبير- فى بلاد الإغريق، وأُجبر الناس على تقديم الغذاء للرجال والخيول التابعة للجيوش المقاتلة، وتسخير الأهالى فى أعمال حربية، واستخدام وسائل النقل، وإسكان الجنود فى بيوتهم، إلى جانب تحمل الغرامات الباهظة المفروضة على المدن التى أبدت مكرهة زعيما قدرت له الهزيمة.

لقد نظر زعماء الأحزاب السياسية فى روما إلى الشرق على أنه منطقة استغلال، ومورد لا ينضب معينه يحصلون منه على ما يكفيهم من أموال، إلى جانب ذلك فقد اتسمت حكومات الولايات الرومانية في الشرق بسمات الظلم والاستبداد والاستغلال، لهذا وجدت كل تلك الكراهية والبغضاء الجاثمين فى الصدور طوال حقب طويلة من السنين تقدر بالعشرات موئلا وملاذا تركن إليه فى شخص كيلوباترا، غير أنها منيت بالإخفاق الذى أصاب هانيبال من قبل، ولم يبق أمام أوكتافيوس إلا أن يضم مصر إلى أملاك الشعب الرومانى كما ذكر فى مناسبتين؛ الأولى فى أثر أنقرة (Mon. Ancyr.27) حين قال ضممت مصر إلى سلطان الشعب الرومانى *Aegyptum imperio populi Romani adiecti*؛ والثانية فى أحد النقوش الذى أهداه لإله الشمس حين قال أهدى هذا النصب لإله الشمس بمناسبة إخضاع مصر لسلطان الشعب الرومانى

Aegypto in potestate populi Romani redacta soli donum dedit.

وقد كان هذا النصر خير نهاية للجمهورية الرومانية، وخير بداية لنظام حكم جديد فى روما بعد أن أصبح أوكتافيوس وحيدا لا ينافس بعد أن أنهى قرنا من الحروب الأهلية التى قطعت أوصال روما، وبدأ عصرا جديدا أطلق عليه اسم البرنكباتس أو البرنكباتية (Principate) وأطلق هو علي نفسه اسم برنكيبس princeps Civium Romanorum التى تعني مواطن الرومان الأول، أو رئيس المواطنين الرومان، ويكون الحكم فى هذا النظام عن طريق السلطات الدستورية التى يمنحها السناتو والشعب، أو بمعنى آخر هو حكم دستورى شكلا وانفرادى فعلا- على حد تعبير ديو كاسيوس- وقد عرف هذا النظام مجازا باسم الحكم الإمبراطورى، وهو الاسم الأكثر شيوعا[1].

([1]) سيد الناصرى (1991)، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسى والحضارى، القاهرة ، ص 22 ومابعدها.

الخـــــاتـــــمـــــة

نقل لنا بوليبيوس[1] نص الخطبة المطولة التى كان الزعيم الأيتولي الشهير أجيلاؤوس قد ألقاها فى اجتماع عام للحلف الأيتولى وفيها وجه كلامه إلى فيليب الخامس ملك مقدونيا الذى كان يترأس ذلك الاجتماع.

وقد آثرنا أن نضع هذه الخطبة كاملة فى الخاتمة لأنها تنطوى على أهمية كبيرة من حيث أنها عبارة عن نداء موجه لأبناء الأصل الواحد، والعقيدة الواحدة أن يتحدوا وينبذوا ما بينهم من خلافات ومشاحنات، وأن يبادروا بمهاجمة العدو قبل أن يهاجمهم، ونحن إذ نورد هذا النداء الذى يعود إلى القرن الثانى قبل الميلاد، نكرره فى القرن الواحد والعشرين لأبناء الأمة العربية عسى أن يلقى استجابة.

يقول أجيلاوس: ((سيكون من الأفضل للجميع لو أن الإغريق توقفوا عن إشعال الحروب بينهم, لأن أفضل صنيع وهبته لهم الآلهة هو أن يتحدوا، ويسيروا جنبا إلى جنب مثل الرجال الذين يخضون البحر ليردوا الغزاة البرابرة من أجل حماية أنفسهم ومدنهم.

وإذا كانت هذه الوحدة بعيدة المنال، فإننى ادعوكم فى اللحظة الراهنة – على الأقل– أن نتفق مع بعضنا البعض، ونتخذ الاحتياطات اللازمة الآن من أجل سلامتنا. وبخصوص الاستعدادات العسكرية الكبيرة، والحرب العظيمة التى تدور رحاها فى الغرب. فإنه واضح حتى لأولئك الذين يعطون أحوال السياسة اهتماما قليلا أنه سواء هزم القرطاجيون الرومان أو هزم الرومان القرطاجيين فى هذه الحرب، فان المنتصر – على أقل تقدير– لن يكتفى ببسط سيادته على إيطاليا وصقلية، بل سيأتى إلى هنا، وسوف يمد طموحاته إلى خارج حدود الحق والعدل. لذا فإننى أناشدكم جميعا أن تتوحدوا من أجل مواجهة هذا الخطر،

([1]) Poly V,103.9-104.

وأخاطب بصفة خاصة الملك فيليب، سيدى: إن هذا هو أكبر أمان لنا جميعا بدلا من إنهاك قوى الإغريق فى المشاحنات، وبالتالى يصبحوا فريسة سهلة للمعتدى أو الغازى، بل فى المقابل عليك أن تفكر فى الإغريق كما لو كانوا قوتك الضاربة، وأن تضمن سلامة وأمن كل مدينة من بلاد اليونان كما لو كانت من مناطق نفوذك أومن أملاكك. ونتيجة لقيامك بهذه المهام فإن الإغريق سوف يحملون لك شعور الحب، ويقدمون لك المساعدة الصادقة فى حالة الحرب، فى الوقت الذى سوف يكون فيه الأجانب أقل استعدادا للتآمر عليك، متأثرين أو مدفوعين بولاء الإغريق لك.

إذا كنت تبحث عن ميدان حرب فول وجهك شطر الغرب، وركز على الحرب فى إيطاليا، وانتظر الفرصة بحكمة، فلعلك فى يوم ما تقاتل من أجل أن تسود العالم. لكن فى هذه اللحظة فليس هناك أية وسائل لاستبعاد أى حلم من هذا النوع. الآن أنبذ خلافاتك مع الإغريق، ودع حروبك هنا حتى تكون مستعدا أكثر لمثل هذه الأمور، وأعط اهتمامك كاملا فى هذه اللحظة لأكثر الأمور إلحاحا أو أهمية حتى تظل لديك القوة إذا أرادت القيام بالحرب، أو جنحت للسلام معهم حسب رغبتك، لأنك إن تباطأت فسوف تتحرك السحب التى تتجمع الآن فى الغرب لتأتى إلى بلاد اليونان.

تنتابنى مخاوف كبيرة خشية أننا جميعا نستيقظ من حالة الهدوء والألعاب على أمر مريع. ونتضرع إلى الآلهة أن تمنحنا القوة فى أن نحارب بجانب بعضنا البعض، وأن نصنع السلام عندما نريد، وأن تكون لدينا القدرة على حل خلافاتنا بأنفسنا)).

وأنا من جانبى أشارك هذا القائد الآيتولى كل أمنياته وأحلامه، وأتمنى أن يهبنا الله القدرة على أن نكون أصحاب قرار، وأن نتحد ونقف صفا واحدا فى السلم والحرب.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر الأدبية

هذه المصادر كتاب اليونان و الرومان الذين تناولا هذه الحقبة، و جميع النصوص الواردة مقتبسة من أكثر من مصدر، أهمها:

1. Loeb Classical Library.
2. The Latin Library, www.thelatinlibrary.com/
3. The site of Chicago , penelope.uchicago.edu/Thayer/
4. The Ancient History website, ancienthistory.about.com/od/historianslivy
5. Perseus Digital Library, www.perseus.tufts.edu/

ومن أهم هذه المصادر الأدبية التى وردت فى الحواشى نجد كتلبات بوليبيوس، وليفيوس،وأبيان،شيشرون، وديودور الصقلى،وساللوست وديودوروس الهاليكاناسى، وجوستينوس، وبلوطرخوس، وكاسيوس ديو وغيرهم.

القواميس

The Oxford Classical Dictionary,3rd ed, By Simon Hornblower and Anthony Spawforth,Oxford university Press 2000.

المراجع الأجنبية

1) Arthur Boak & William Sinnigen(1965) A History of Rome to A.D.565, 5th ed., New Yrok &London.
2) A. E. Astin(1959); Diodorus and the Date of the Embassy to the East of Scipio Aemilianus, *Classical Philology*, Vol. 54, No. 4 , pp. 221-227.
3) M. Austin (1981); The Hellenistic world from Alexander to the Roman conquest, Cambridge.
4) E. Badian (1958); Foreign Clientelate 264-70 B.C, Clarendon.
5) Arthur E.R.Boak & William Sinnigen (1965); A History of Rome to A.D.565,5th ed., New Yrok &London
6) Donald Walter Baronowski (CP 1995); Polybius on the Causes of the Third Punic War, *Classical Philology*, Vol. 90, No. 1, pp. 16-31.

7) E.Bevan(1927), The House of Ptolemy,London.
8) Brian Dobson (1993); The Roman Army: peace time or wartime army? pp 113-128 in Breeze &Dobson; Roman Officiers and the frontiers, Stuttgart.
9) Glanville Downey (1951); The Occupation of Syria by the Romans, Transactions and Proceedings of the American Philological Association, Vol. 82, pp. 149-163.
10) Hansen, Esther V. (1971). *The Attalids of Pergamon. Ithaca*, New York: Cornell University Press; London: Cornell University Press Ltd.
11) Tenney Frank(1928); Pyrrhus, pp 658-662 in CAH VII, Cambridge.
12) Tenney Frank (1929), Roman Imperialism, New York.
13) Duncan Fishwick & Brent Shaw(1977); The formation of Africa Proconsularis, Hermes 105, pp 369-80.
14) A.H.J.Greenidge (1901); Roman public life, London.
15) Donald Kagan(1986); problems in Ancient History, Vol II, The Roman History, New York.
16) B.L.Hallward (1930), Hanniball's Invasion of Italy; pp 25-32 in CAH VIII.
17) R.C.Law (1978); Tripolitania and North West Africa under Roman rule; pp199-209 in; J. D. Fage(ed); the Cambridge history of Africa II, c.500 B.C-A D1050 London and New York.
18) Yann Le Bohec (1989); La Troisiéme LégionAugusta, Paris.
19) Naphtali Lewis & Meyer Reinhold(1990); Roman Civilization, Selected Readings vol I The Republic and the Augustian Age, New York.
20) Paul MacKendrick (1976); The mute stones speak, The story of Archaeology in Italy, New York & London.
21) A.C .Neatby (1950); Romano –Egyptian Relations during the Third Century B.C, TAPA 81.

22) R. S. Omran (2003): The Limes Numidiae et Tripolitanus under Septimius Severus, Unpublished Ph.D Vienna University, Austria.
23) H.H.Scullard (1961); A History of Roman World from 753-146 B.C, 3rd ed., London.
24) H.H.Scullard (1960); Scipio Aemilianus and Roman politics, JRS 50, pp 59-74.
25) Graham Shipley (2000); The Greek world after Alexander 323-30 B.C, London & New York.
26) Virgil, The Aeneid, translated into English verse by E.Fairfax Taylor, Everyman's Library 161, and London.
27) Wacher (ed); The Roman World, vol I, London & NewYork.
28) P.G.Walsh (1965); Massinissa; JRS 55, pp149-160.
29) F.W. Walbank (1963); Polybius and Rome's Eastern policy, JRS LIII, pp 1-13.
30) Watson(1969);The Roman Soldier, London.

المراجع العربية أو المعربة

1. جمال حمدان(1999)؛ استراتيجية الاستعمار والتحرر، مكتبة الأسرة، الأعمال الفكرية، القاهرة.
2. دونالد.ر.ددلى(1979)؛حضارة روما،ترجمة جميل يواقيم الذهبى وفاروق فريد، راجعة محمد صقر خفاجة، القاهرة.
3. إ.إ.رايس(2005) ؛البحر والتاريخ،ترجمة عاطف أحمد، العدد 314 إبريل 2005، سلسلة عالم المعرفة- الكويت.
4. عبد اللطيف أحمد على(1974)؛ التاريخ الرومانى (من تأسيس المدينة حتى بداية الثورة)، بيروت.
5. عبد اللطيف أحمد على(1988)؛ التاريخ الرومانى عصر الثورة، القاهرة.

6. عبد اللطيف أحمد على(1993)؛ مصر و الإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية، القاهرة.
7. فاروق حافظ القاضى(1965)؛ روما وسقوط الممالك الهللينستية فى شرق البحر المتوسط، رسالة ماجستير غير منشورة ، كـــليـــة الآدآب جامعة عين شمس.
8. فاروق حافظ القاضى(1997)؛ التاريخ الرومانى منذ تأسيس المدينة حتى عام 133 ق.م، القاهرة.
9. سيد احمد على الناصرى(1982)؛ تاريخ و حضارة الرومان من ظهور القرية حتى سقوط الجمهورية، القاهرة.
10. سيد احمد على الناصرى(1992)؛ تاريخ و حضارة مصر والشرق الأدنى فى العصر الهللينستى، القاهرة.
11. سيد احمد على الناصرى(1991)، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسى والحضارى، القاهرة.
12. إبراهيم نصحى(1984)؛ تاريخ مصر فى عصر البطالمة،4 أجزاء، الطبعة السادسة، القاهرة.
13. إبراهيم نصحى(1983)؛ تاريخ الرومان منذ اقدم العصور حتى عام 133 ق.م، الجزء الأول، القاهرة.
14. تشارلز ورث(1999)؛ الإمبراطورية الرومانية، ترجمة فوزى عبدة جرجس ومحمد صقر خفاجة، مكتبة الأسرة – الأعمال الفكرية، القاهرة.
15. محمد السيد عبد الغنى(2005)؛ تاريخ الرومان حتى نهاية العصر الجمهورى، ، جـــ1، الإسكندرية.
16. مفيد رائف العابد(1993)؛ سورية فى عصر السلوقيين، من الإسكندر إلى بومبى 333–64 ق.م، دمشق– سوريا.

الفهـــرس

م	الموضوع	الصفحة
1)	المقدمة	7
2)	مقدمات تمهيدية	11
3)	الدفاع من أجل التوسع	29
4)	طور الهجوم	43
5)	طور التوسع: التوسع الرومانى فى المياه القرطاجية	73
	- جماعة الفتيالس	75
	- الحروب البونية	81
6)	الممالك العميلة	105
	- نوميديا	109
	- برجامون	119
	- رودس	133
7)	طور الاستعمار	137
	- روما ومقدونيا	139
	- روما وسوريا	161
	- روما ومصر	175
8)	الخاتمة	221
9)	قائمة المصادر و المراجع	223
10)	الفهرس	227

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب قصة توسع روما وتحولها خطوة بخطوة سيدة لإقليم لاتيوم الموجودة به، ثم سيدة لإيطاليا ككل، ورويداً رويداً تتسع الدائرة، وتمتد الحدود حتى أضحت روما سيدة البحر المتوسط بعد أن كونت إمبراطورية كان هذا البحر مركزاً لها. لقد كان هذا التحول طفرة جديدة فى سجل الاستعمار العسكرى لم يسبق لها مثيل فى التاريخ، ووصلت بوحدة البحر المتوسط إلى منتهاها، وتحول البحر المتوسط إلى مجرد بحيرة داخلية للرومان، وبحر مغلق ، أو كما كانوا يفاخرون دائما "بحرنا؛ لأن كل البلاد المطلة عليه أصبحت تقع داخل النفوذ الرومانى، وأصبح هذا البحر نواة للإمبراطورية الرومانية. فهل قصة التوسع هذه تمت من خلال خطط موضوعة وفكر رومانى خالص له أسبابه ودوافعه؟ أم أنها كانت عبارة عن تجاوب- أى رد فعل- من جانب الرومان لعدة تحديات أفضت بهم فى نهاية المطاف إلى هذا الوضع؟

